عبد السلام ياسين

إمامة الأمة






إمداد الأمة

الطبعة الثانية: 2018/1439
ISBN: 9789953506084



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

إمامة الأمة

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

تقديم

تجتاز الأمة الإسلامية مرحلة عصيبة ومحنة حقيقية. فأرضها مستباحة، وخيراتها منهوبة، وكرامتها مدوسة، وقرارها بيد غيرها لابيدها. تكاثرت عليها الأرزاء، وتزاحمت عليها سهام الأعداء، وأنهكتها الأزمات، لا تكاد تخرج من واحدة حتى تحل بساحتها أخرى وثانية وثالثة بل العشرات. وأصبح يهزأ بها القاصي والداني، ويسخر منها الحاضر والبادي، ويتجرأ عليها شذاذ الآفاق والأنذال من كل جنس، ويسفه أحلامها ومقدساتها سقط الناس والسفلة من كل قوم، بالرسم والصورة والكلمة المكتوبة والمسموعة. تتعرض للابتزاز والإهانة في المحافل والمنتديات فلا ينتصر لها أحد، وتكره على اتخاذ مواقف والدخول في معامع دون أن تدري أو تسأل لماذا. أرضها أصبحت ملاذا آمنا للئام وفاسدي الذمم لإقامة مشروعاتهم المشبوهة، ومجالا خصبا يسيل له لعاب الخصوم والأعداء، وحتى الأصدقاء، إن وجدوا، على حد سواء.

ولو كانت هذه المحنة من تدبير أعدائنا وحدهم لما كان هناك من داع للاستغراب. ذلك أن المكر منهم متوقع، والكيد والتآمر من قبلهم هو الأصل، ومن السذاجة أن ننتظر منهم غير ذلك، لاسيما الذين يعتبرون أن الدنيا صدام وصراع، والبقاء فيها للأقوى والأدهى، أما الحديث عن الإخاء والعدل والإنصاف فضلا عن الآخرة والجنة والنار فحديث خرافة ليس إلا.

لكن المؤلم حقا أن يكون ضالعا في هذه المحنة، ومشاركا في صناعتها إلى حد بعيد، شرذمة من الحكام الذين قال فيهم الشاعر:

أغاروا على الحكـم في ليلة ففر الصباح ولم يرجع

قوم تسلطوا على رقاب المسلمين بغير رضاهم ولامشورة منهم، فساموهم الخسف ومنعوهم النصف، وقربوا المحاسيب والمتملقين، وأقصوا أهل العلم والمشورة والرأي، وبذروا ثروات المسلمين فيما لا طائل وراءه، وأعطوا ولاءهم للمستكبرين، وفتحوا الباب على مصراعيه للصوص الجشع الدولي مقابل منتجات التافه فيها والفاسد أكثر من الصالح المفيد، أو مشروعات الفاشل منها والمفلس أكثر من الناجح النافع. لا عجب أن يطول تخلفنا، ويزداد فقرنا وبؤسنا، ويكثر جوعانا ومرضانا، ويتنامى العاطلون فينا، وتسترخص هجرة الأوطان، وتتفشى السلبية والخمول، وتنشأ القابلية للرضوخ للطغيان، والقبول بالدون، والتأثر بالخرافات والدعايات السخيفة.

ويزداد القلب كمدا وألما حين نعلم أن هذه الأمة قد حباها الله عز وجل بمقومات ومزايا كثيرة لو استثمرتها كما ينبغي، وأحسنت إدارتها كما يجب، لكان حالها خيرا مما هو كائن، ولاستطاعت أن تنهض بمسؤوليتها تجاه نفسها والعالم، فتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. لديها من الخيرات الظاهرة والمذخورة، والموارد الهائلة والمتنوعة، والإمكانات الواسعة، وفوق ذلك معها رسالة الإسلام، ورحمة الإسلام، ومعها القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تأتلف به القلوب، وتستنير به العقول، وتزكو به النفوس، وتطمئن به الأفئدة، وتتآخى به الشعوب وإن اختلفت لغاتها وألوانها وأعراقها.

إن أمة بهذه المنح الربانية حري بها أن تكون رأسا لا ذنبا، متبوعة لا تابعة، موفورة الكرامة لايتطاول عليها معتد أو ينال منها رعديد. إن أمة بهذه المزايا والنعم لخليق بها أن تقود لا أن تقاد، وأن توجه لا أن توجه، وأن تكون لها الإمامة والريادة لتسلك بالبشرية سبيل النجاة، لا أن تركض خلف كل ناعق، أو تستجيب للدعاة على أبواب جهنم. هذا هو المفروض، ولكن ما هو قائم شيء آخر.

ومع ذلك، ورغم ما ذكرنا، وما لم نذكره وهو كثير، مما قد يزيد الصورة قتامة والآفاق ضبابية، فإن الأستاذ عبد السلام ياسين حفظه الله من المؤمنين بأن من هذا التردي الحاصل، «ومن هذا الغثاء يأذن الله سبحانه وتعالى أن تنبعث أمة الخلافة الموعودة. ومن تلك الأنفس المنهزمة وعد الله ورسوله أن تتخلق أسد العرين، وحماة الدين» (إمامة الأمة ص 45).

نعرف جيدا أن هذه «البشرى الصادمة» لا تتسع لها حويصلة بعض الناس، بل إن بعضهم لايزال يصر على أن الحديث عن إمامة الأمة وهي تعيش هذا الواقع المزري، وهذا الوضع المهين هو حديث غير علمي وغير واقعي، بل هو ضرب من الأحلام وتسويق للأوهام ليس إلا. والأجدر بنا أن ننزل من سماء الخيال إلى أرض الواقع العنيد، وأن نعرف بأن ميزان القوى ليس في صالح الشعوب العربية والإسلامية، وأن لامناص، والحالة هذه، من القبول بالأمر الواقع، والرضى بما هو حاصل إلى أن تتغير الظروف، وساعتها يمكن أن تتغير المواقف.

هذا الخطاب يروج بقوة، وله دعاته ورموزه، وأبواقه ومنابره، ومؤسساته التي تشتغل بالليل والنهار لبث اليأس في الأمة، والتمكين لثقافة الاستسلام والهزيمة. حتى إذا تحقق لطائفة من الأمة إنجاز

أو انتصار هنا أو هناك، بخسوه حقه، وقللوا من قيمته، أو عزوه لغير أسبابه، وتمحلوا لتفسيره تفسيرا ينكر الفضل لأهله، أوعدوه فلتة أو استثناء لايعتد به.

لسنا بدعا من الأمم التي عانت مثل ما عانينا أو أشد، لكنها لما أجمعت أمرها، وصح منها العزم على تغيير ما بها، وعلى إمساك مصيرها بيدها، خرجت من أزماتها، وتجاوزت مآسيها، وأنجزت ما نالت به مكانة عزيزة بين الدول. ولئن صح هذا في أمم شتى، فكيف لايصح في أمة تمتلك من الحوافز والمقومات ما هو أفعل وأقوى مما لدى غيرها. بل إن تباشير فجر جديد قد لاحت في الأفق، ومؤشرات الوعد النبوي لهذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في ازدياد يوما بعد يوم.

تؤكد ذلك هذه الأفواج المتدفقة من التائبين إلى دينهم، المقبلين على ربهم، الطامعين في رحمة الله ورضوان الله، وما يظهرونه من استعداد متزايد لتحرير الأمة من الطغيان وتبليغ رسالة الله. وتؤكده هذه الصحوة المباركة التي أصبحت ملء سمع العالم وبصره، وتزداد، والمنة لله، باستمرار نضجا وامتدادا وتجذرا في المجتمعات العربية والإسلامية. وتؤكده هذه الثقة المتنامية لدى الأمة في الحركات الإسلامية الراشدة. فلا تنظم تظاهرة أو توجه دعوة للمشاركة في انتخابات أو حضور مسيرات أو غير ذلك من المناسبات إلا وكان التجاوب مع الصوت الإسلامي في أحيان كثيرة فوق المتوقع.

ويؤكده أيضا ما نراه اليوم من اهتمام زائد عن اللزوم يبلغ حد الهوس لدى قوى الاستكبار بصحوة الإسلام. يزعمون أن

«المارد الإسلامي» بدأ يتململ ويوشك أن يخرج من قمقمه، ومن ثم رصدوا إمكانيات مادية وبشرية ضخمة، وأنشأوا المعاهد والمؤسسات لدراسة «الأصولية الإسلامية»، كما يسمونها، ووضع الخطط لتحجيمها، وتقليص نفوذها إن تعذر القضاء التام عليها.

ومن البشائر الدالة كذلك على أن أمر هذه الأمة إلى رشد، بإذن الله، ما أخبر به الرسول الأكرم صلوات الله عليه وسلامه في أكثر من مناسبة وفي عدة أحاديث. منها قوله صلى الله عليه وسلم: «**لايلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء، ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لايعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما طلع من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يول د في العدل من لا يعرف غيره**» (الإمام أحمد رحمه الله). والأحاديث في الباب كثيرة، فلتراجع في مظانها.

فكل الدلائل، سواء منها المبثوث في نصوص الوحي أو المستخلص من مجريات الواقع المشاهد، تؤكد على أن يقظة هذه الأمة ستتواصل إلى أن تتحرر من أيدي الفاسدين والمستبدين، وتتخلص من الظلم الحاضر والموروث، من هيمنة الاستكبار العالمي وظلم الحكم العاض والجبري، وتكون لها الريادة والإمامة، فتبلغ رسالة الإسلام، وعدل الإسلام، ورحمة الإسلام إلى الناس كافة.

وإلى ذلك الحين الذي نرجو أن يكون قريبا، نقدم اليوم هذا الكتاب الذي يتناول فيه الأستاذ عبد السلام ياسين، حفظه الله وبارك في عمره، موضوع إمامة الأمة وبعض معالم الطريق المرجو سلوكها لتنهض أمة الإسلام من جديد وتقوى على القيام بمسؤولياتها على الوجه المطلوب: كيف تسترجع إيمانها الراسخ بموعود الله، وثقتها بنفسها،

واعتزازها بدينها؟ كيف تتجاوز ثقل العادات وسلبيات الماضي، وتقتحم بثبات العقبات الكؤود على درب التغيير المنشود؟ كيف تسترجع كرامتها المدوسة وحريتها المسلوبة؟ كيف يكون سيرها راشدا، يمضي في خط لاحب، ويتجنب العثرات والنكسات؟ كيف تكون الاستفادة من وسائل العصر ومبتكراته لمواجهة إعلام المستكبرين وأباطيل الدجالين؟ كيف يتم بناء الشخصية المؤمنة العاملة العاملة الواعية بمسؤولياتها عن الانتصار للمستضعفين في الأرض؟ كيف يحصل الائتلاف ويتجنب التنازع وتتسع الصدور لاستيعاب تعدد الرؤى وتباين وجهات النظر؟ إلى غير ذلك من التساؤلات والقضايا المرتبطة بهذا الموضوع.

وينبغي الإشارة إلى أن الأستاذ عبد السلام ياسين كان قد أنهى تأليف هذا الكتاب قبل حوالي ثلاثة عقود. وهو في الحقيقة جزء من مشروع كبير لايزال أكثره مخطوطا، وقد صدر منه لحد الآن أربعة كتب وهي: «مقدمات لمستقبل الإسلام» و«رجال القومة والإصلاح» و«الخلافة والملك» و«في الاقتصاد: البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية». وقد يلاحظ القارئ العزيز في أماكن من هذا الكتاب حرارة في مناقشة بعض القضايا التي لم تعد بذات خطر اليوم، أو يلتقي ببعض الأمثلة التي كانت استشرافا فأصبحت واقعا ملموسا، أو إشارات، وإن كانت عرضية، لأزمات مضت في حين تم تجاهل ما هو أشد منها اليوم. فذلك راجع، كما لايخفى على القارئ اللبيب، إلى المرحلة التي دونت فيها هذه الفصول، والتفاعل الطبيعي مع ما كان يقع آنذاك.

وأملنا في الكريم الوهاب، لا إله إلا هو، أن تكون هذه الصحائف إضافة مخلصة نافعة تساهم في رفع الهمم، وشحذ العزائم، وترشيد

اليقظة الإسلامية الصاعدة المباركة، ودعوة صادقة لأبناء هذه الأمة وبناتها ليحملوا «رسالة الإسلام بشرى للإنسان وتخليصا له من ربقة ما يستعبده من دون الله، ويضله، ويظلمه، ويحقره» (عبد السلام ياسين، العدل ص12).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
الرباط، الاثنين 6 صفر 1430 هجرية الموافق 02 فبراير 2009

عبد الواحد المتوكل

الفصل الأول

مع سواد الأمة الأعظم

- لا طبقية
- قد سمع الله
- مع العامة
- الحجاب
- مع ذوي الحاجات
- الدعاة في السوق مع العامة
- تربية الشعب لا تملقه
- مع الأمة لا وِصايةً عليها
- الولاة يعيشون مع الرعية
- كيف نتغلغل في السواد الأعظم؟
- لقاءٌ مع الأمة

لا طبقية

إن المهمة الأولى للجماعة أو الرابطة الإسلامية المتصدية للحكم بعد تقوية صفها، وتربية رجالها وتنظيمهم، هي مغالبة الأحزاب ودول الجور على إمامة الأمة. فلا يعرف الإسلام نُخبوية المثقفين، ولا يعترف بالتنظيم الطبقي الذي يقسم الأمة أو يُبقيها كما قسمتها الفتنة. ميزانُ القَبول التقوَى والعملُ الصالحُ. قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات، 13). جاء هذا الميزانُ الإلهي في سورة الحُجُراتِ، تلك السورةُ التي تعلمنا واجب تعظيم النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وواجبَ التآخي بيننا، وآدابَ التحفظ من طعن المسلمين، وآدابَ الإصلاح بين المؤمنين، وآدابَ الأُخُوَّةِ والتعامُلِ بين المؤمنين. وذكر الله سبحانه لنا الأعراب في هذه السورة فهم مِنَّا لِوَحْدَةِ كلمة الإسلام.

وتجمَعُ الكلَّ طاعةُ الله ورسوله. قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** (الحجرات، 13 –15). الناسُ شعوبٌ وقبائلُ وفئاتٌ يريد الله عز وجل لها أن تتعارف، فإذا تعارفت أنكرت المُنْكَرَ، ونصبت ميزان التقوى وميزان الإيمان، وهو نفسُه ميزان العدل في القسمة. لِسَانُه

الحادّ كلمةُ «إنما» الفاصلة بين الناس في مراتب الآخرة ومسؤوليات الأمة. لكنَّ الأمة واحدة بأعرابها ومسلميها ومؤمنيها ومجاهديها.

إن مَحْوَ الطبقية ورفعَ الحواجز المادية والنفسية بين طبقات الأمة هدف إسلامي، تحقَّقَ مرة في تاريخنا، ونرجو أن يمُنَّ الله الغني الحميد علينا بالحضارة الأخوية التي تنشُدُها البشرية فيتحقَّقَ مرة أخرى.

دخول جند الله إذن وسَطَ السواد الأعظم لاستعادة ثقته يقتضي منا أن نهيئَ نفوسنا للتنازل عن كل ما علِقَ بنا من مُخَلَّفاتِ الماضي. فإن السوادَ الأعظم من الأمة لا يثق بكثير من المثقفين ولا بالحكام، لأنه عانى من احتقارهم وظلمهم. ونحتاج لرِفقٍ كبير حتى تُصْغِيَ إلينا الآذان، وتتفتح لنا القلوبُ والأبوابُ، ونكونَ في قرارة أنفسنا مُعَظِّمين لذوي التقوى المُكْرَمين عند الله، حانين على الضعفاء من المسلمين. في فترة الإعداد والزحف نُرَبِّي العامة، ونجند الشباب، ونختار الرجالَ، ونساعد كل ذي استعداد لصعود مراقي الإيمان والهجرة والجهاد. وبعد القومة لن نجد قوة على مغالبة مشاكل الحكم والبناء إلا في السواد الأعظم. ولا غَنَاءَ في هذا السَّواد إن لم نَرْفَعْهُ بالعدل وضمان العيش الكريم إلى آدميته، وإن لم نحرر نفسه وعقله من الخرافات، والنفاق، والغزو الحضاريِّ، و«دين الانقياد».

عندما نقول «لا طبقية في الإسلام» نعني بالضبط أن محو الطبقية هدفٌ إسلامي. فليستَقِرَّ في ذهننا أن فتنةَ هذا الزمان أضافت إلى العصبيات القبلية القومية العتيقة، وهي تقسيماتٌ عموديةٌ عتيقة، تقسيما آخر أُفُقِيّاً يرفع الشَّرِسِينَ، والحاذِقين، والماكرين، والوصوليين، والأوباش، أعلى السلم الاجتماعيِّ، ويضعُ المحرومين من العاملين، والفلاَّحين، والعَجَزَة، والعاطلين، أسفلَ السلم الفتنويِّ. هذا واقعٌ رديء ويزداد رداءة. والإسلام مع المستضعفين دائما حتى يفيء الناس

إلى أمر الله، وهو العدل والإحسان. لكنَّ الانتقالَ من سُلَّمِ الظلم وفئة الاستكبار إلى ميزان الإيمان والإسلام ممكن في كل وقت لكل تائب. وإن الإسلام لا يطبَعُ على جباه الناس انتماءهم الطبقيَّ يُلاحقهم لعنة أبد الدهر، ويحاسَبونَ على أنهم بنو فلان أو من أسرة علان. تعال من أعرابيتك، من رأسماليتك، من ماضي إثمك، من نضالك الحزبي. لكن ادخل من باب التوبة، ورُدَّ المظالم إلى أهلها، واقبَل ميزان الإسلام. إلاَّ تكن من الذين توَلَّوْا كِبْرَ الفساد فالإسلام رحمةٌ يُؤويك مُعْتَزّاً بتوبتك. وإن تكن منهم فرحمةُ الإسلام تمنعُ أن يُفْعَل بك ما فَعَلْتَ بِنَا جزاءً وِفاقاً. نحنُ قوم أمَرَنا الله ربنا تعالى بالعفو والإصلاح وحَبَّبَهُمَا إلينا.

قد سمع الله

«جاءت خولةُ بنت ثعلبةَ إلى عمر بنِ الخطاب وهيَ عجوزٌ كبيرة، والناسُ معه وهو على حمار. قال: فجنح إليها، ووضعَ يده على منكبها وتنحى الناس عنها. فناجاها طويلا ثم انطلقت. فقالوا: يا أمير المؤمنين! حبَسْتَ رجالاتِ قريش على هذه العجوز! قال: أتدرون مَنْ هي؟ هذه خولةُ بنتُ ثعلبة، سمعَ الله قولَها من فوق سبع سماوات. فوالله لو قامتْ هكذا إلى الليل لقُمْتُ معها إلى أن تحضُرَ صلاةٌ، وأنطلِقَ لأُصَلِّيَ ثُمَّ أرْجع إليها».[1]

نعم يا خليفةَ رسول الله، ربُّنا يسمع نجوى المتظلم من عباده لا يحجُبُها عنهُ حاجب، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدُه ورسولُه يَرْعَى في خَوْلَةَ وغيرِ خولة وجهَ الله. فكنت رضي الله عنك العبدَ الحاضر مع مسؤوليتك عن الرعية أمام الله سبحانه وتعالى. قال الله

(1) ابن العربي في «أحكام القرآن»، ج4، ص: 1734.

تعالى لعبده ونبيِّه ولنا تربية وتنبيها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة،1). لا إله إلا الله، ربُّنا يسْمع ويُبْصِرُ حِوارَ المرأة المسكينة من عامة الناس مع سيد الناس محمد صلى الله عليه وسلم. وسبحان الله كيف تغيب عن الناس وحدتُهم أمام خالقهم، وكيف ينفُخُ الشيطانُ في مناخِرِ بعضهم، فيحْسِبُ نفسَه من طينة غيرِ طينةِ الناس. لكنها الغفلة عن الله، الغفلةُ عن السميع البصير الخبير الحفيظ الوكيل المهيمن العزيز الجبار المتكبر. وأنت ابن ما أنت ! رجالاتُ قريش يُحْبَسُون لعجوز! رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تحبسُه الأَمَةُ فيتَنَحَّى لها ويقفُ حتى يقضي حاجتها. وكيف لا تنحلُّ عُقَدُ الجاهلية، وروابط العصبية، وفوارق المعاش، والجنس، والمكانة الاجتماعية، عندما يَذْكُر العبيد أنَّهُمْ بين يدي الله سواء؟

روى أبو داود رحمه الله عن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير، فيُزْجِي الضعيفَ ويُرْدِفُ ويدعو لهم». رسول الله أمير الجيش يتخلف آخرَ السَّفْرِ فيركبُ خلْفَهُ الضعيفُ!

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان، 7). قال القاضي ابن العربي: «وأوقعهم أيضا في ذلك (أي في التساؤل الإنكاري) جهلُهم حينَ رأوا الأكاسرةَ والقياصرةَ والملوكَ الجبابرةَ يترفَّعون عن الأسواق. أنكروا على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك واعتقدوه مَلِكاً يتصرف بالقهر والجبر. (...) وإنما كان يدخُلُها لحاجته، أو لتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويَعْرِض نفسه على القبائل في مجتمعهم».[1]

(1) «أحكام القرآن»، ج3، ص: 1402.

في كتاب الأحكام من صحيح البخاري رحمه الله: «باب إجابة الحاكم الدعوةَ»، «باب ما يُكرَهُ من ثناء السلطان وإذا خرج قال غير ذلك»، «باب الإمام يأتي قوما فيُصْلِحُ بينهم». وفي هذا من الفقه أن الحاكم والإمام بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُلْزَمٌ باتباع سنته الشريفة في التواضع للأمة، وزيارةِ الناس، وغَشَيانِ أسواقهم، لحاجته يقضيها بنفسه،ولتبليغ الدعوة،ومراقبة الأحوال.

مع العامة

نقرأ هذه الوصايا الراشدة، وهي بمثابة قوانينَ سلوكيَّةٍ تُجاهَ الأمة وتجاه العامة بصفة خاصة، لِئلا يظن بعض الملَفِّقين اليساريين أننا نَلْقَفُ «خطَّ الجماهير» من غير مِلتنا وسلَفِنا الصالح.

أخرج ابن أبي شيبة وأبو عبيد -رحمهما الله- في الأموال وأبو يعلى والنسائي وابن حبّانَ والبيهقيُّ رحمهم الله أن عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه قال: «أُوصِي الخليفةَ بعدي بالمهاجرين الأولين، أنْ يَعْلَمَ لهم حقَّهم، ويَحْفَظَ لهم حُرمتهم. وأُوصيه بالأنصار الذين تبوَّأوا الدارَ والإيمان من قبلهم، أن يَقْبَلَ من مُحسنهم، وأنْ يَعْفُوَ عن مسيئهم. وأوصيه بأهل الأمصار خيرا، فإنهم رِدْءُ الإسلام (عون الإسلام)، وجُباةُ الأمْوالِ، وغَيْظُ العدو. وأنْ لا يؤخَذَ منهمُ إلاَّ فَضْلُهم عَنْ رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيرا، فإنهم أَصْلُ العرب ومادةُ الإسلام، وأن يأخذَ من حواشِي أموالهم فيَرُدَّ على فقرائهم. وأوصيه بذِمة الله وذمة رسوله أن يُوَفِّيَ لهم بِعَهْدِهِمْ، وأن يقاتل مِنْ ورائهم، ولا يكَلِّفَهم إلا طاقتَهم».

ومن عهد أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الأشتَرِ هذه الوصيةُ بالعامَّة. وهي أبلغُ ما يُفْحَمُ به من يَنْسُبُ إلى الإسلام

ما طرأ على الإسلام في عهود الفتنة والمُلْك العاضّ الكسرويِّ. قال رضي الله عنه: «ولْيَكن أحبَّ الأمور إليك أوسَطُها في الحق، وأعمُّها في العدل، وأجمعُها لِرضَى الرعية. فإنَّ سَخَط العامة يُجْحِفُ برضى الخاصة، وإنَّ سَخَط الخاصَّة يُغْتَفَرُ مع رضى العامة. وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مَؤُونَةً في الرخاء، وأقَلَّ مَعونَةً له في البلاء، وأكْرَهَ للإنصاف، وأسألَ بالإلحاق، وأقلَّ شكرا عند الإعطاء، وأبْطأَ عُذْراً عند المنع، وأضعفَ صَبْراً عند مُلِمَّاتِ الدهر من أهْلِ الخاصة. وإنما عِمادُ الدين، وجِماعُ المسلمين، والعُدَّةُ للأعداء العامَّةُ من الأمة. فليكن صَغْوُكَ لهم، ومَيْلُكَ معهم».[1]

أيُّ نقد هذا «للنخبة» وأهْلِ المصالح الخاصة !

الحجاب

أخرج الدينوري وابن عساكرَ -رحمهما الله- عن معاجر العامريِّ رحمه الله أن عُمَرَ رضي الله عنه كتب عهدا لبعض أصحابه على بلد فيه: «أما بعد، فلا تُطَوِّلَنَّ حجابَك على رعيتك، فإن احتجاب الوُلاةِ عن الرعية شُعْبَةٌ من الضِّيق، وقِلَّةُ عِلمٍ من الأمور. والاحتجابُ يقطع عنهم علم ما احْتُجِبُوا دونه، فيصْغُرُ عندهم الكبير، ويعظُمُ الصغيرُ، ويقبحُ الحَسَنُ، ويحسنُ القبيحُ، ويُشاب الحقُّ بالباطل. وإنما الوالي بَشَرٌ لا يعرف ما تَوارَى عنه الناس به من الأمور. وليست على القول سِماتٌ يُعْرَفُ بها صُروفُ الصِّدْقِ من الكذب، فيُحَصَّن من الإدخال في حقوقٍ بلين الحجاب (أي فيتوقى أخذَ الناس بالوشاية إذا فتح بابه واتصل بالناس مباشرة ولم يكتف بالتقارير). فإنما أنت أحَدُ رجلين: إما امرؤٌ سَخَتْ نفسُك بالبذل في الحق، فتقيمُ

(1) «نهج البلاغة»، ج3، ص: 86.

احتجابَك من حقٍّ تُعطيه، أو خُلُقٍ كريم تُسْدِيهِ. وإما مُبْتَلىً بالمنع، فما أسرع كفَّ الناس عنك وعن مُسَاءَلتك إذا يئسوا عن ذلك. مع أن أكثر حاجات الناس إليك لاَ مَؤُونَةَ فيه عليك، مِنْ مَشْكاةِ مَظْلَمَةٍ، أو طلب إنصاف. فانتفع بما وَصفتُ، واقتصرْ على حَظك ورُشْدِكَ إن شاء الله».(2)

ذكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن احتجاب الوُلاة عن الرعية شعبة من الضيق، وأنه «ليس على القول سِماتٌ يُعرف بها صروفُ الصدق من الكذب»، هذا وصفٌ دقيق للحاكم الذي يعتزل عن الشعب، ويعيش في دائرة ضيقة، ضحيةً للتقارير والوِشايات. في دولة القرآن يتعين أن تكون الصلة بين الحاكم والمحكومين شفَّافة مُباشِرَة. رُبَما لا يتأتّى مع تعقُّد المشاكل في عصورنا هذه أن يُفتَح البابُ لذوي الحاجات عند كل وال وحاكم. فيُنَظَّمُ الاتصالُ المباشرُ على المستويات الإدارية العليا، ويُفتَحُ البابُ عند كل وال وحاكم لرجال الدعوة الملتحمين بالأمة. وهم نقباء الأمة الناطقون باسمها. وسيتجلى لنا إن شاء الله على طول هذه الفصول الفرقُ بين مُمَثِّلِ القاعدةِ في النظامين الديمقراطي والديمقراطي الشعبي كما تعرفهما الجاهلية، وبين النقيب المختار المسؤول أمام الله والمؤمنين. فواجبُه الشرعيُّ أن يَرْفَعَ إلى أولي الأمر حاجاتِ الشعب، أمانَةً طُوِّقَهَا. وإن عَدَمَ مسؤولية المُنْتَخَبِ الديمقراطي والمناضل الثوريِّ تجعل منهما حِجاباً بين القاعدة والقيادة، من حيثُ يُنْتَظرُ أن يكونا صلة وصل شفافة. نرجع إلى هذا إن شاء الله تعالى.

وقد ورد في احتجاب الوالي عن ذوي الحاجات الوعيدُ الشديدُ. روى أبو داود عن أبي مريم الجُهَني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(2) «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف، ج2، ص:281.

قال: «**من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلَّتهم** (بفتح الخاء: الخصاصة والحاجة) **وفقرِهم، احتجب الله دون حاجته وخلَّته وفقره يوم القيامة**». وروى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي الشماخ رضي الله عنه عن ابن عم له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من وُلِّي أمر المسلمين ثم أغلقَ بابه دون المسكين والمظلوم وذي الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبوابَ الرحمة دونَ حاجته وفقره أفقرَ ما يكون إليها**».

كتب الإمام الطرطوشي -رحمه الله- مع القاضي أبي بكر بن العربي -رحمه الله- للسلطان أبي يعقوب بن تاشفين -رحمه الله- رسالة فيها: «لقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين، واتخذت دونهم حجابا، وأنَّ ذا الحاجة لَيَظَلُّ يومَه ببابك فما يلقاك ! كأنك لم تسمع قول الله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** ﴾. قال الحسن: «لا والله ما كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُغلِق دونَه الحُجُبَ، ولا يُغْدَى عليه بالجِفان، ولا يُرَاحُ عليه بها. ولكنه كان بارِزاً، مَنْ أراد أن يَلْقاهُ لَقِيَهُ. وكان يجلسُ بالأرض، ويوضَعُ طعامُه بالأرض، ويلْبَسُ الغليظَ، ويركَبُ الحمار، ويُرْدِفُ عَبْدَه، ويَلْعَقُ أصابعَه. وكان يقول: «**من رَغِبَ عن سُنتي فليس مني**». فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها ! قال: وكان عُمر رضي الله عنه يأخذ دِرَّتَهُ، ويمشي في الأسواق يتفقّد أمور رعيته. وكان يمشي ليلا في سِكَكِ المدينة مع عبد الرحمن بن عوفٍ وغيره من الصحابة، ويحفَظون عَوْراتِ المسلمين. ورُوِيَ عنه أنه استعمل سعد بن أبي وَقَاص على الكوفة، فبلغه أنه اتخذ قصرا وجعل عليه بابا، وقال: انقطع عني الصُّوَيْتُ ! (كأنه استراح من سماع شكوى المتظلمين) فأرسل إلى محمد بن

مسلمة وقال له: ايتِ سَعْداً فأحْرِقْ عليه بابَه فأتى الكوفة، فأخرجَ زَنْدَهُ، واستوقد نارا، ثم أحرق الباب. فجعل سعدُ يَعْتَذِرُ، ويَحلف بالله ما قال. فقال له محمد بن مسلمة: نفعل ما أُمِرْنَا به ! ويُرْوَى عنك القولُ». [1]

مع ذوي الحاجات

كتب الإمام علي كرم الله وجهه في عهده للأشتر يعلِّمُه كيف يجلس لذوي الحاجات، وكيف يخصص لهم قِسما من وقته، ويعلمه آداب التعامُل مع الرعية. قال: «واجعل لذَوي الحاجات منك قسما تُفْرِغُ لهم فيه شخصَك، وتجلس لهم مجلسا عاما، فتتواضعُ فيه لله الذي خلقك. وتُقْعِدُ عنهم جندَك وأعوانك من أحراسك وشُرَطِك، حتى يكلمك متكلمُهم غير مُتَتَعْتِع. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: «**لَن تُقَدَّسَ أمة لا يؤخَذ للضعيف فيها حقُّه من القويِّ غير مُتتعتع**» (التتعتع في الكلام التردد. والمراد لازمه وهو الخوف). ثم احتملْ الخُرْقَ منهم والعِيَّ (لا تضجر من العنيف ولا من العاجز عن التعبير)، ونَحِّ عنك الضّيقَ والأنَفَ (تجنب ضيق الأخلاق والكِبْر) يبسط الله عليك بذلك أكنافَ رحمته، ويوجِبْ لك ثوابَ طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئا، وامنع في إجمال وإعذار (بحسن أدب واعتذار). ثَمَّ أمورٌ من أمورك لا بد لك من مُباشرتها. منها إجابة عُمّالك بما يَعْيَى عنه كِتابُك (بما لا تكفي فيه الكتابة). ومنها إصدارُ حاجات الناس يومَ وُرودها عليك مما تَحْرَجُ به صدورُ أعوانِك (قال محمد عبده في شرح هذه الجملة: والأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ويحبون المماطلة في قضائها استجلابا للمنفعة،

(1) «بدائع السلك» لابن الأزرق، ج1، ص: 372.

أو إظهارا للجبروت). وأمْضِ لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضلَ تلك المواقيت، وأجزلَ تلك الأقسام. وإن كانت كلُّها لله إذا صلُحت فيها النية وسلِمت فيها الرعيَّةُ».(1)

«إصدارُ حاجات الناس يوم ورودها» ! مسألة نظام ومسؤولية. مسألة مراقبة الله عز وجل في حقوق الناس لكي لا تُضِيعَها المماطلةُ و«الروتين» الإداريُّ. قال ابن حزم في تنظيم أوقات الإمام: «يجب على الإمام أن يجعلَ يوما في الجمُعة يركَب فيه، فتراه العامَّةُ كلُّها، ولا يُمْنَع منه مشْتك كائنا مَن كان. ويجعلُ سائرَ أيامه للنظر في الأمور، ولا يُسرفُ على نفسه، لكِنْ طَرَفَيْ النهار: من صلاة الصبح إلى ثلاث ساعات من النهار. ومن صلاة العصر إلى إسفار الشمس. ويجعلُ وسَط نهاره لرَاحة جسمه، والنظر في ماله وأهله. ويمنعُ أهل الفُضول من الوصول إليه، وملازمةِ داره ومجلسِه، لئلا يشتغل في مُجالسة من لا يجدي عليه مصلحةً في دينه ودنياه. ولْيُغْلِقْ الباب دون ذلك جملة. فلا يطمعُ أحد في الوصول إليه لغير معنى».(2)

قلت: نعم، لا بد من إغلاق الباب عن أهل الفضول، ولا بد من اقتصاد وقت الولاة لكيلا يضيع في غير معنى. لكن الله الله ! ما يغني طرفا النهار في مهمات تريد الانكباب عليها انكبابا كليا ! ولولا سويعاتٌ لراحة الجسم، وزُلَفٌ من الليل للقيام بين يدي الملك الحق المبين، لتَعَيَّنَ على جند الله أن ينصرفوا للجهاد آناءَ الليل وسحابةَ النهار. يباركُ الله إن شاء الله لجنده في أوقاتهم. ومن الجبارين مَنْ يشتغل ثمانَ عشرة ساعة يَكْدَح قي تخريب ديار المسلمين، فما أغنى عنه ما كسب.

(1) «نهج البلاغة»، ج3، ص: 102.
(2) «بدائع السلك»، ج2، ص: 516.

الدعاة في السوق مع العامة

تحدثنا في الصفحات الماضية عن واجب المؤمنين المسؤولين عن الدولة في الاختلاط بالشعب، والاستماع إليه، وفتح الأبواب أمامه لقضاء الحاجات، وفك المشكلات، ورد الظُّلامات. يبقى جانبُ الدعوة والتوجيه والإرشاد، وهو الجانب الأهم الأعم. هو واجب جند الله الدائمُ اليوميُّ. وإنما يمكنهم الوفاءُ لواجب الدعوة إذا هم اعتادوا الهجومَ الأخويَّ الرفيق على الناس، ومُبادَأَتِهم بالحديث، والتلطُّفَ مع كلٍّ بما يناسب عقْلَه وحالته، والاستعانة بالكلمة الطيبة، والخدمة، والبذل السخي، على تبليغ وتحبيب الدعوة. واجب جند الله الدعاةِ أن ينْبَثّوا في المساجد، والمكاتب، والإدارات، والشوارع، والأسواق. فكذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يجلس في بيته حتى يأتيه الناس مسلمين. وكذلك فعل من حملوا إلينا الإسلام، قطعوا الفيافي، ومخَروا عُبَابَ البحر.

لا يزال الدعاة في كل عصر يتصيَّدون الفُرَص لمخالطة الناس في نواديهم، وأسواقهم، ومجالسهم. وهذه فقرات من كتاب «المراحل» لابن الحاج، أحدِ فحول علمائنا، يوصي العلماءَ بدخول الأسواق ومخالطةِ العامة وتعليمهم. وتلك هي السنة التي دافع عنها هذا الإمام، يحاربُ بدعة بعض الفقهاء الذين يرون أن مكان العالم في المسجد، وأن هيبتَه تسقُط إن نـزَل للعامة. قال: «يجب عليه (أي العالم) أنه إذا اضطُر إلى قضاء حاجته في السوق أن يباشر ذلك بنفسه. فإنْ فعل ذلك فقد أتى بالسُّنَّةِ على وجهها، وبَرِئَ من الكبر (...). وليَحْذَرْ من هذه العوائِد الرديئة التي يفعلها بعضُ من يُنْسَبُ

إلى العلم وغيرُهم. فتجد بعضَهم يبحث في مسائل البيوع، والأحكام في الرِّبَوِيَّاتِ، وغيرِ ذلك، في الدروس. ويستدل ويُجيز، ويَمنع ويَكره. فإذا قام من مجلسه ذلك أرسل إلى السوق من يقضي له الحاجة، صبيّاً صغيرا كان أو كبيرا، أو عبدا أو جارية، أو عجوزا أو غيرهم ممن لا علمَ عنده بالأحكام الشرعية. (...) إذا خرج من بيته لشيء مما ذُكر، فينوي بذلك اتباعَ السنة في الخروج إلى السوق، واتباعَ السنة في قضاء حاجته بيده. لأن النَبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُباشر ذلك بنفسه الكريمة. ثم يضيف إلى ذلك نيةَ التواضع مع إخوانه المسلمين، ونيةَ الاقتداءِ بهم (هكذا: عالمٌ قابل دائما أن يستفيد ويتعلم)، وإرشادهم وتعليمهم وتهذيبهم، ورفع الضارِّ عنهم. (...)

«وينوي مع ذلك اتباعَ السنة من إرشاد الضال، وتشميت العاطس، والسلامِ على إخوانه من المسلمين، وردِّ السلام عليهم، وذكرِ الله تعالى في السوق، إن شاء سرا وإن شاء جهرا، (...) وهو أن يتشهد: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير. ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة التامة، ثم يقول: اللهم إني أسألك من خير هذا السوق، وأعوذ بك من الكفر والفسوق. بذلك ورد الحديث. (...) وقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يخرج إلى السوق وليس له حاجة إلا أن يذكر الله تعالى فيه، ويُسلِّمَ على إخوانه المسلمين. وكذلك سالمٌ بنُ عبد الله وغيرُهما. والخروجُ إلى السوق من شِعار الصلحاء والأولياء، والعلماء المتقدمين، رحمة الله عليهم أجمعين. قال مالك رحمه الله تعالى: كان ذلك من شأن الناس، يخرجون إلى السوق ويقعدون فيه. (...)

«فعلى هذا ينبغي للعالم، أو يتعين عليه، أنه إذا رأى الناس قد أعرضوا عن العلم عَرَضَ نَفسه عليهم لتعليمهم وإرشادهم وإن كانوا معرضين. لأن العلماءَ ورثةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم، حين كان الناسُ معرضين، كان يعرض نفسه المُكَرَّمَةَ على قبائل العرب ليتبَعوه وينصُروه. إذ أن الغنيمةَ عندهم (أي العلماء) إرشادُ شاردٍ عن باب ربه، أو ضالٍّ لا يعرفُ الطريق. فيرُدّونهم إلى باب مولاهم، ويوقفونهم على بِساط كرامته، باتِّباع أمره، واجتناب نهيه. (...). فانظر رحمنا الله تعالى وإياك إلى نية العلماء إذا صلحت، كيف يبذلون أنفسهم في الأسواق، والجلوسِ فيها مع الباعة، ومن هو متصف بالبُعْدِ والجهل، فيردونهم بالعلم إلى أسنى الأحوال وأرفعها. لا جرم أنه لما كان العلماء على هذا الأسلوب المبارَك انتفعوا ونفعوا، وعمت بركتُهم لأَهل السوق وغيرهم».[1] انتهى كلام ابن الحاج رحمنا الله وإياه، وألهمنا تقواه.

تربية الشعب لا تملقه

ترى كيف كانت مهمة العالم الداعي إلى الله واضحة لما كانت نفسه مُنيبَةً إلى الله، ترفعه نيتُه الصالحة إلى حيثُ لا تنَال منه نوازعُ الهَوَى. ويُشَرِّفُه تواضعُه لله، وانبساطهُ غير المفتعل لعباد الله، فلا يحتاج أن يتملق الشعب كما يفعل طُلاب الرئاسة والزعامة وقناصو الأصوات الانتخابية. الداعي إلى الله لا تمنعه الكبرياءُ أن يتعلم ويستفيد من العامة. فبانْفِتَاحِهِ ذاك تسري إليهم منه معاني الإيمان. وبالمثال يُعْدِي إخوانه المسلمين بالأخلاق الحميدة، والتعاونِ

(1) «المدخل»، ج2، ص: 68 وما بعدها.

الأَخَوِيِّ، والمعاشرةِ اللطيفة، والوجه البشوش، إلى النفوس البعيدة الشاردة، يرُدها إلى باب ربها.

الدّاعي إلى الله من الأمة وإليها، شعوراً صادقا، ونمط حياة، ومشاركةً في الآمال والآلام، واختلاطا في المجالس، والشارع، والسوق. ما هو طفيليٌّ سياسيٌّ يمتص دماء الأمة بالتلصص على عطْفِهَا. ما هو منافقٌ يتراءى للناس بما يحبون. فحين يعلم المسلمون صدقَه، يُصِيخُون إليه، ويَقْبَلون منه النصيحةَ والتعليم، والأمرَ والنهي، والزجرَ أيضا. في مجتمعاتنا منكراتٌ، وعلى رأسها السكوت والرضوخ لظلم الحكام. منكراتٌ مزمنة راسخة تَصْبَغُ سلوك العامة، وتَسِمُها بالتبلد الممزوج بالشك. فما غيرُ الداعي العالم المعلم المختلط بالأمة من يوقظ الوَسْنَانَ، ويُنَبِّهُ الغافل، ويُحيي الميت من النفوس، ويعلِّم الأمة أن دينها وقوفٌ بين يدي العزيز العليم سبحانه، ورفضُ كل ذل، وكلِّ منكر، وكلِّ عبودبة لغير الله عز وجل.

الشعب المستضعف أكثرُ الناس شعورا بالظلم والحَيْفِ، وأعرفُ الناسِ بما يعانيه من التعسف، وهضمِ الحقوق، والاحتقار، والابتزاز. يعلم ذلك ويشعرُ به، ويُعانيه في جسمه، في رزقه، في أبنائه، في مسكنه ومطعمه وملبسه، في حياته اليومية. وكل ذلك منكر ينكره الشرع ويأباه الله سبحانه. فلئن كان العالم الداعي قبلَنا يغشَى الأسواق ويخالطُ الناس ليفقههم في أحكام البيوع وآداب السلوك وفرائض العبادات، فإن الداعيَ منا يجب أن يُضيف إلى ذلك، بل أن يضيف ذلك إلى الإشعار بأن شريعةَ الله تنكر التفقير، واحتقارَ الناس وظلمَهم، كما تُنكر الكفر والفسوق والعصيان. يجب أن نعلم العامة أن الإسلام قومةٌ على الفساد والكفر والظلم والفسق، كلُّها

في قَرَن واحِدٍ. يجب أن نَصُوغَ من الاستعداد الخَيِّرِ -الذي في عامة المسلمين- أداةً ماضية لإبطال الباطل وتحقيق الحق. حتى إذا آن أوانُ القومة وجدنا على الحق مساعدا قويا، وظهيرا شديدا. وتحت ظل دولة القرآن ينفتح المجال لتجنيد العامة تجنيدا كاملا، بعد أنْ كنا نتسلل للاتصال بالمسلمين كأننا دخلاءُ طارئون في عقر دارنا.

شَلَّتْ قرون من الاستبداد روحَ المقاومة والإباء في نفوسنا، فلا إرادَةَ للخاملين، ولا وضوحَ في ذهن العامة، وهم يرون علماءَ القصور الفصحاءَ المتحذلقين بجانب الطاغوت. فعامَّةُ اليوم يتعايشون بإسلام مشلول، نصفُه العباديُّ من صلاةٍ مَيِّتَةٍ، أو مخطوفةٍ خَطفا، أو متروكةٍ مَنْسِيَّةٍ، يناسب شللَ نصفه التعامليِّ وموتَه. الأمر بالمعروف مُعطل، والنهيُ عن المنكر ممنوع، منَعَه الحاكم الحاضر الجبار، فلا تجْسُر النفوسُ الميتة الخائفة أن تتحدَّى الحاكم المخلوقَ لتُنَفِّذَ ما أوجب الله عز وجل الخالق. فإن دخلنا إلى السوق، والشارع، والمجلس، وخالطنا الناس في المكتب، والمعمل، والمدرسة، والكلية، فلكي نقوم بعملية إحياء، بعملية تربية شاملة تُعَلِّمُ الأمة طاعة الله، وأسبقيَّتَها على طاعة العبيد، تُعلمُهم أسبقيَّةَ رضى الله الذي إليه يرجعون، على رضى العبيد الذين يُهددون ويُخَوِّفون ويَبْطِشون. تُعلمهم أن كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله تتنافى مع الخضوع لغير الله، إلا بحق الطاعة لأولي الأمر منا، لا من غيرنا، وإلا بالتحاب والتوادد الأخوي بيننا.

بهذه التربية، وهذا الإحياء نُكَتِّلُ قوةً لإبطال الباطل، ثم نتمم العملية في ظل دولة القرآن، ونستمر فيها، ونوسعها، ليَكسب «السواد الأعظم» القدرة على مسك زمامه بنفسه، على مراقبة الحاكم، على محاصرة المنكر ومحاربته، على اليقظة الدائبة، والمشاركة الفعالة، في كل صغيرة وكبيرة من أمر المسلمين.

مع الأمة لا وِصايةً عليها

إن القيادة الناجحة هي التي تنهض بالجماهير إلى مستوى المشاركة الإرادية، لا التي تحصل على الموافقة الصامتة، والتصفيق للطليعة، والحماسِ للزعيم. وإنه لمن أكبر الأخطار أمام جند الله يوم يمسكون الأزمَّةَ أن يميلوا إلى جانب السهولة، فيزعموا لأنفسهم القدرة على إملاء إرادتهم من فوق، فتُنَفَّذَ، فيصلحَ الفاسدُ، ويستقيمَ المعوجُّ. منـزلقٌ على منحدَرات الهوى أن تجلس على كرسيك فتَتَواردُ عليك الأفكارُ، وتستهويك أريحيَّةُ الزَّعامَةِ، فتُصْدِرَ الأوَامِرَ ذات اليمين وذات الشمال. ولن تشعر إن فعلت ذلك بمعزل عن السواد الأعظم، ومن فوقه، ووصايةً عليه، إلا وقد دخلْتَ في منطقة فراغ، لا قرار لك، ولا أصل، ولا فصل. وهكذا تتكون الطبقات المستبدة.

تذكَّرْ كيف حذَّر الإمامُ عليٌّ من الخاصة ووصفها بأنها «أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقلُّ معونة له في البلاء، وأكرهُ للإنصاف، وأسألُ بالإلحافِ، وأقلُّ شكرا عند الإعطاء، وأبطأ عُذرا عند المنع، وأضعفُ صبرا عند مُلِمَّاتِ الدهر». والمطلوب منك أن تمحوَ الخصوصية الطبقيَّةَ، وتقاتل العجرفَةَ الإدارية، وأن تكون مع العامة قلبا وقالبا. ليس المنتظرُ منك، وقد جئْت بالشريعة المحمدية، أن تميلَ للمستكبرين من الخاصة، وأن تتخلق بأخلاقهم، وأن تتقمصك تلك الشخصية المتعالية على السواد من الأمة، وأن تتخذ لك بطانة منهم.

تذكر كيف حلَّى الإمامُ عليٌّ عامة المسلمين بتلك التحلية الناتجة عن الخبرة والمعاشرة والمشاركة في الجهاد من لَدُن الصبا، وفي المجلس، والمسجد، والملبس، والمطعم، والسوق، والسراء، والضراء.

لم يتغير رضي الله عنه في أحواله المعاشية، ولا في انبساطه للكافة يوم اختاروه أميراً للمؤمنين. لم يُبطره السلطانُ، ولم يَستفزّه المنصبُ. بل بقيَ مع العامة، عضوا منهم، قريبا إليهم. عرف العامة في سخطهم ورضاهم، اختبر وفاءهم في المواقف الحَرِجَةِ، ثم أدى لك هذه الشهادة: «إنما عمادُ الدين، وجِماعُ المسلمين، والعُدَّةُ للأعداء العامةُ من الأمة». فوَفِّرْ على نفسك عَناء البحث عن السند الطبيعيِّ والسلاح الوحيد لإنجاح القومة الإسلامية. في هذا السواد الأعظم من الأمة سِرُّ القوة، وبرَكَةُ النصر. لكن فَرِّقْ بعناية بين أعرابية الأعْراب بالمعنى القرآني للكلمة، وبين تماسُكِ السواد الأعظم. الأعرابية مظهرُ النفاق، والخمولِ، وخذلانِ القضِيَّةَ أشَدَّ ما تكون الحاجة إلى النصير. وعامة الأمة، عمادُ الدين وجِماعُ المسلمين، مظهرُ الإيمان واليقظةِ والوفاءِ والبذل.

فمن ينقل الناس من أعرابية إسلام الخمول إلى التماسُك حول الجماعة، من الاستسلام، والاستقالة، والركود، إلى الهجرة، والجهاد، إلاَّ جُهْدُكَ في مراحل القومة والبناء؟ إنَّ الاعتمادَ على عامة الأمة في مُلمات الدهر يقتضي الإبقاءَ على ما في الخاصَّةِ من استعداد للخير، ويقتضي استصلاحَ الناس بعد إرشادهم وتربيتهم. فإنك إن جئت تُنَحِّي ذوي الكفاءات، وذوي الغِنَى والخبرة، ورجالَ التجربة والاطلاع، بمجرد أنهم ساروا شوطا أو أشواطا مع تيار الفتنة الجارف، لا يكادُ يبقى في يدك إلا عروق بلا حياة، وجِذْعٌ بلا فروع، وشجرةٌ صماءُ ميتة، لا تُورِق، ولا تُزْهِرُ، ولا تُثْمِرُ.

نرجع إلى مدرسة الإمام عليّ كرم الله وجهه لنتعلم أن عامة الأمة ليسوا الأعرابَ السادرين في فرديتهم الأنانية، و هَيَجانِهم الجماعيّ. بل هم مُجملُ الناس بعد أن يصوغَهم الإسلامُ في بُوتَقَة الإيمان، وبعد

أن يُخرجهم من انتماءاتهم الطبقية، وعصبياتهم، ويُفْرِزَهم على سُلَّمِ كرامة المتقين، وبعد أن تنظمهم الدعوةُ دوائرَ مُحَلَّقَةٍ حول القيادة والجماعةِ أهلِ الهجرةِ والجهاد. الأقربُ منهم إلى الله بعمله الصالح أقربُهم إلى قلب الجماعة ومسؤولياتها.

إننا إن تصورنا أن العامة التي يُعْتَمَدُ عليها في الُملمات هي الأعداد الضخمة، والفوضويَّةُ، العفويَّة، الهائجة، فما نظن إلا غروراً. إنما العامةُ النافعةُ في مُلمات الزحف، ومشاغِلِ البناء، هي الأمة الُمحَلَّقَةُ حول القيادة والجماعة، النصيرةُ لها، الُمنتَظِمَةُ معها بنظام الوَلاية، السائرةُ بأمْرها، المنتهية بنهيها. عندئذ يكون الكلُّ جندَ الله، ويكون النصرُ في القومة والبناء والجهاد محقَّقاً بإذن الله القوي العزيز. وإذا تصورنا أن العامة هم المستضعفون اليومَ، ينتصرون غدا كما تنتصر أيُّ طبقة ثورية فتُرْدِي الخاصةَ من أهل الخِبرة والكفاءة والعلم، وتُطيح بهم وتدوسُهم، فإنما نروم ثُبوراً. مَنْ لَنَا بحكمة تُذيب الطبقاتِ دونَ أن تسفِكَ الدماء، تمحو استكبار الخاصةِ دون أن تزرع في نفس العامة المنتصرةِ نوايا الانتقام، وشهواتِ الثأر، ومُغريات التسلط !

قال إمامنا الحكيمُ علي كرم الله وجهه يعلمنا استصلاح الطبقات لخير الأمة: «واعلم أنَّ الرعية طبقاتٌ لا يَصلح بعضُها إلا ببعض، ولا غِنَى ببعضها عن بعض. فمنها جنودُ الله (وهم الجيش المسلح). ومنها كُتَّابُ العامة والخاصة (الموظفون على مراتبهم). ومنها قُضاة العدل. ومنها عمالُ الإنصاف والرفق. ومنها أهْلُ الجِزية من أهل الذمة ومُسْلِمَةِ الناس (وهم الأعراب بالمعنى القرآني). ومنها التجارُ وأهل الصناعات. ومنها الطبقةُ السفلَى من ذوي الحاجات والمَسْكَنَة (وهم

المستضعفون). وكلاًّ قَدْ سَمَّى اللهُ سهمَه، ووضع على حدِّهِ فريضته في كتابه أو سنةِ نبيه صلى الله عليه وآلهِ، عهداً منه عندنا محفوظا».[1]

هذه الأصنافُ المذكورة من موظفين وجيش وتجار وأهلِ صناعة، ومنهم المثقفون المغرَّبون صناعُ الأفكار العقيمة، يخصُبُ عقلُهم بالإسلام إن شاء الله تعالى، كانت فوق السواد الأعظم في زمانِ الفتنة، وصيَّةً عليه. فبعد القومة لاَ مفرَّ من محاسبة كلِّ مجرم جبار، لكنَّ عامة المسلمين، ومنهم هذه الأصنافُ، يُحْمَلونَ على البراءةِ الأصلية، ويُحْسَنُ بهم الظنُّ، وتقبلُ توبة التائبِ منهم، وتُفتَحُ للجميع صفحةٌ جديدة. وتبدأ عندئذ تربية عقلية جديدة، ويراقَب السلوكُ بمعاييرَ جديدة، ويُحْزَمُ الأمرُ بجدِّيَّةٍ جديدة. لا غِنى لطبقة عن طبقة كما يقول الإمام علي رضي الله عنه. ريثما تذوب فوارقُ الاستكبار، فيرتع المسلمون في مجتمع الأخوة. إن شاء الله الملك الوهاب لا ربَّ غيرُه ولا خيرَ إلا خَيْرُه.

لاحِظْ أصلحنا اللهُ وإياك أنّ الإمامَ عليا عليه السلام صنف أهل الذمة مع أصناف الأمة. وأهلُ الذمة و«مُسلمة الناس» هم مَظِنَّةُ النفاق والشقاق. ومع ذلك فذَيْلُ الإسلام المُطَهَّرُ ينسحب على الجميع، فيغطِّي بعد انتصار القومة، ضَعْفَ البشر وخيانةَ الخائنين، وذكرى من مضوا في الغابرين.

الولاة يعيشون مع الرعية

كثيرا ما يتحدثون في هذه الأزمان عن «تقريب الإدَارة من المواطنين». ويَعْنُونَ بهذا التقريبِ تقريب المسافَة المكانية ليجد

(1) «نهج البلاغة»، ج3، ص: 89-90.

«المواطن» مصالحه قريبةً. هذا التقريب من آكد ما يجب على الإدارة الذكية المُجْدِية، فأحرى الإدارةِ الإسلامية التي تهتم بالجدْوَى، والفَعَالِيَّةِ، وتوفير وقت الناس، اهتمامها بصَوْن كرامتهم التي تضيع إن فُرِضَ عليهم التسكُّعُ بين المكاتب في العواصم. نرجع لهذا بعدُ إن شاء الله تعالى. موضوعُنا هنا هو أنَّ التقريب المكاني لا يُصْلِحُ ما تفسده الإدارةُ المتعجرفة إن لم يكن بينَ الحاكم والمحكوم قربٌ نفسيٌّ، وتلاحمٌ حِسِّيٌّ معا.

ألِفْنا أنْ نرى في مُدُنِ دويلاتنا المفتونة وعواصمِها أحياءَ شعبيةً، وأخرى للخاصة المُترفَة، وأخرى للخاصة الإدارية. طبقاتٌ في السكن تعكسُ طبقيةَ القسمة، والعادة، والعصبية. ومن أثْقَل ما يرثه جندُ الله بعد القومة التبذيرُ التَّرَفِيُّ من جهة، واللُّصُوقُ بالتراب، والعفَن، والمَرض، من جهة أخرى. وعلاجُ ذلك من أسبق الواجبات. نضع هنا تحَسُّباً لذلك اليوم، يومَ إعادة ترتيبِ البيت، هذا الطِّبَّ الراشد للمُعضلة كما طبقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد كان يُرْغِمُ عُماله على مُقاسَمَة الرعيةِ معاشَها وهمومَها. وذلك أحْرَى ألاّ تُولَدَ فيهم نخوةُ السلطان، وطاغوت الاستغناء، وتحلُّقُ البِطانة، والانفصالُ عن العامة.

روى هناد عن إبراهيم –رحمهما الله– قال: «كان عمر رضي الله عنه إذا استعمل عاملا، فقدِمَ إليه الوفدُ من تلك البلاد، قال: كيف أميرُكم؟ أيعودُ المَمْلوكَ؟ أيتبَعُ الجنازة؟ كيف بابُه؟ ألَيِّنٌ هوَ؟ فإن قالوا: بابُه لَيِّنٌ، ويعودُ المملوكَ تركه، وإلا بعث إليه ينـزِعُه». وروى البيهقيُّ والطبري –رحمهما الله– عن الأسود بن يزيد رحمه الله قال: «كان عمر رضي الله عنه إذا قدِمَ عليه الوفدُ سألهم عن أميرهم: أيعود المريضَ؟ أيجيبُ العبدَ؟ كيف صنيعُه؟ من يقوم على بابه؟ فإن قالوا لخصلة

منها: لا !عزله». وأخرج البيهقيُّ عن عاصم بن أبي النجود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كان إذا بعث عماله شرط عليهم: «أنْ لا تركبوا بِرْذَوْناً (فرس عجمي ثقيل، رمز للخيلاء)، ولا تأكلوا نقيا (الخبزُ المرَقَّقُ من الدقيق الخالص)، ولا تلبسُوا رقيقا، ولا تُغلقوا أبوابَكم دون حوائج الناس. فإن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلَّت بكم العقوبةُ» ثم يشيعهم. فإذا أرادَ أن يَرجع قال: «إنِّي لم أسَلطكم على دماء المسلمين، ولا على أبشارهم، ولا على أعراضهم، ولا على أموالهم. ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة، وتقسموا فيهم فَيْئَهم، وتَحكُموا بينهم بالعدل. فإذا أشكل عليكم شيء فارفعوه إليَّ. ألا فلا تضربوا العربَ فتُذِلوها ! ولا تُجَمِّرُوهَا (لا تحبسوا الجندَ عن أهله أكثرَ من أربعة أشهر) فتَفْتِنوا، ولا تَعْتَلُوا عليها (من الاعتلاء) فتحرموها. جرِّدوا القرآن (لا تكتبوا معه حديثا ولا غيرَه)».[1]

أمن الممكن أنْ يعودَ الناس هكذا سواسيَةً كأسنان المُشط بين يدَي العدل؟ وال على إقليم في زمن عمر يوازي رئيسَ دولة اليومَ. يزور المريضَ، ويأكل على مائدة العبدِ، ويتبع الجنازةَ، ويركب كما يركب عامةُ الناس، ويلبس مما يلْبَسون، ويطْعَمُ مما يَطْعَمون. الله أكبر ! هذه هي المثالية التي يحلم بها البشرُ منذ خُلقوا. وقد تحققت مرة في زمن النبوة والخلافة. ثم غابت بين فَخْفَخَةِ الكِسْرَويَّة، وتألُّهِ الفِرْعَوْنية، واستكبار القَيْصَرية. فالعودة إليها من تحت الرُّكام مسارٌ طويل. لكن لا ينبغي أن يأخذَ بِبَصرنا شعاعُ ذلِكم النور فنستبعدَ على الله عزَّتْ قدرتُه أن يَبْتعث فينا أجيالا على ذلك النمط. وإنه الوهاب. وإنه وعدُهُ ووعدُ رسوله أنْ يَظْهَر هذا الدينُ على الدين كله، وأن يجدِّدَها لنا خلافة على منهاج النبوة الذي سلكه عمر،

(1) هذه النقول من «حياة الصحابة»، ج2، ص: 205-206.

وأرْغِم عليه عمالُ عمر، وحَرَصَ على تنفيذه أمثالُ عمرَ من راشدي هذه الأمة.

كيف نتغلغل في السواد الأعظم؟

إن جند الله من هذا الشباب الطاهر، الناشئ في محاضن الإيمان المضطَهَدَةِ، منعزلٌ عن الشعب بواقع الحال. محاصَرٌ بالشرطة، والإعلام المضاد، والتخويف، وإفساد السمعة، وتلفيق التهم. فمن أعزِّ ما يحتاج إليه طلائعُ الحق نوافذ يُطِلُّونَ منها على واقع الأمة، ومعاشها، ومُعاناتها، حتى إذا فتحت الأبوابُ بعد القومة وجدوا أنفسهم في عالم ليس غريبا عنهم. يكونون يومئذ قد تعلموا كيف يخاطبون العامة، كيف يحبونهم، كيف يشاركونهم معاشهم، كيف يقبلون التدرج في التزام الناس بالشريعة، كيف يصبرون على ذي الهفوة والنـزوة، كيف يخاطِبون الفطرةَ ونوازعَ الخير في الناس حتى ينبعَ الخير، كيف يُمَيِّزون بين أهل المروءة الصالحين لمزيد من الصلاح وبين الدهماء الذين يُرْضَى منهم بالموافقة.

كلُّ تلك الخصال عزيزةُ المنال، وعلى توفرها فينا يتوقف نجاحُنا في استقطاب الجماهير، وتأطيرها، وتربيتها، وتعبئتها. لا يخشى من جند الله الناشئ بحمد الله التعالي على الأمة الآن وهم في صف المستضعفين. لكن غدا عندما يبتسم لهم القدرُ، ويهتف هاتفه أن جاء نصر الله ! تَفْرِضُ على جند الله طبيعةُ العمل السريِّ والهامشي، قبل القومة، نوعا من التقوقع على أنفسهم في مجالسَ تضم الشباب المتألق روحانية، المتعلق بالمثل الأعلى عقيدةً وعبادةً وخلُقاً. وفيما بين هؤلاء الطاهرين خلافاتٌ مآلُها إلى فهم كل فريق للعزائم وكراهيته للترخص.

فإن قابلوا العامَّةَ بهذا التشدُّدِ، فيوشكُ أن يُصَدِّقَ العامَّةُ ما يُشاع عنا أنَّنَا متزمتون، مُحَرِّفون للدين، ضالعون مع الشيطان. ويوشكُ أن تنظر إلينا الأمة كما تنظر لعدوٍّ مُنَغِّصٍ، وأن تُحِسَّ بنا كما تحسُّ بكابوس ثقيل. إن بَذَرْنا هذه البذورَ السامَّة فلن نحصُد إلا وبالا. وسيتذمر الناسُ منا، وتَغْلِي بهم قِدْرُ الغضب على قومتنا، فيستغلّ ذلك أعداؤنا المترصدون. دعاةٌ لا قضاةٌ! رحم الله الهضيبي وفسح له في رحمته.

قلنا، وألححنا، ونكرر، أن تغيير المنكر بالمعروف، وإحلالَ الحق محلَّ الباطل، يقتضيان حمل الناس على ما يكرَهون. وقلنا، ونكرر، أن تملُّقَ العامة ليس من شأننا. لكنَّ الرفقَ حتى يعرفَ الناس لِمَ نقُومُ، وما نريد، وتأليف الناس على الحق المُرِّ بالمخالَقَة الحُلْوة فَنٌّ لا غنى لنا عن إتقانه. بآيةٍ منـزلة وسنة ماضية لا بالنفاق والطفيلية. ولنتذكر كيف كانَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ينتظر الحلوة من الدنيا ليُجَوِّزَ بها المُرَّةَ من الحق.

لقاءٌ مع الأمة

لا يمكن أن يَتْبعنا الشعبُ في مسيرة القومة الإسلامية المحفوفةِ بالأخطار الجِسام، ولا أنْ يشاركنا في معارك البناء، وهي تريد بذلَ الجهود، ولا أن يصمُد أمامَ الأزَمَات الداخلية، والهجمات الخارجية، إن لم يحصُلْ بيننا وبين العامة تلاحمٌ، إن لم نحصل على ثقة سواد الأمة. الوسيلة لذلك، القلبيةُ، هي صدقُنا مع الله عز وجل الذي يؤلف بين القلوب. ثم دوامُ اتصالنا بالأمة، وتحركُنا إليها، ومعها. وقد طورت الاختراعات الحديثة الوسائلَ السمعيةَ البصريةَ التي تمنح الحكام فرصا لعرض أفكارهم، ومشاريعهم، ودعاياتِهم على

الناس، يفرضونها فرضا ويغزون بها حتى القاعد في بيته. بدخول هذه الوسائل في ميدان السياسة تغيَّرت العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وقرُبَتْ المسافة بين القيادة والقاعدة، وتقلصت أهميةُ الوسائط من رجال البرلمان. ثم إن وسائل النقل السريعة أضافت إلى الاتصال عبر الأثير، إمكانياتِ زيارةِ الحكام لأطراف البلاد زيارات متكررة. كُلُّ هذا يضع في أيدي الحكام أسلحةً هائلة للتأثير على الرأي العام وتوجيهه. وغالبا ما يُصْبِحُ التلفزيون، والخُطبُ الرنانة، والمظاهرُ الاستعراضية، والدعايةُ المنسقة، وسائلَ لإيحاء إرادة القيادة بما يشبه سحر الأعين بمغناطيس الحاكم.

هذه الوسائل العصرية تُسْتَصْلَح في دولة القرآن، وتُحَمَّل رسالةَ الصدق من الإمام والقيادة إلى سائر الأمة. لكنَّ هذا الاتصال من جانب واحد يُشَكِّلُ خطرا، لأنه إن تعود الناس السمع والطاعة البليدين، ولم يُعْطَهُم الحقُّ في الإعراب عن نياتهم وآرائهم، وبقي القادة في أبراجهم الإعلامية بعيدين جسميا ومعاشيا عن الجماهير، يُمْلون إرادتهم من فوقُ، آلَ الحكمُ إلى الاستبداد وعزلة الحكام. لا أكملَ وأليق، ولا أوفى بالمطلوب، من أن يفتح الإمام، والوُلاةُ، والدعاةُ، الأبوابَ للوفود، يجالسونهم على بساط المؤانسة، ليُفْضُوا بما عندهم، ويرفعوا بلا واسطة مشاكل القاعدة، وحاجاتها، وتظلُّمَها من رجال السلطان.

الفصل الثاني

الجندية



- تعبئة المستضعفين
- استعراض النبي ﷺ الشباب
- التنويه بالأبطال
- لعب الأحباش
- حركةٌ دائبة
- الحرَسُ المدنِيُّ
- الفروسية
- الرماية والمسابقة والمصارعة
- الألقابُ والكُنَى
- الألَوية وكلمات السر
- رجولة وخشونة
- النشيد
- الإسلام والقوة الجندية
- حراس العدالة والنظام
- ضمان الاستقرار

تعبئة المستضعفين

لِطول ما عانت الأمة من تعسفٍ واستبدادٍ فَقَدَتْ حِسَّ المبادرة، وفقدت القدرة على الاستقلال بالفكر والتدبير. جماهيرُ مهزومة أمامَ الفقر والجهل والمرض، أمامَ هم السَّكَنِ، أمامَ الخوف من الحاكم، أمامَ عادةِ الخمول المتجذرةِ، الموروثة. جماهيرُ عُرْضَةٌ لتأثير الخرافات، والدعايات، والمنافسات التافهة. جماهيرُ حولتها حضارة الاستهلاك التي اتَّخَذَتْنا سوقا إلى عَجَزَةٍ عالةٍ على ما يُنتِج الأجانبُ، وما يُفكرون، وما يَسْمَحُون. تَرَدَّيْنَا إلى ما يُشبه حالةَ الحيوان الداجِنِ يَعْلِفُونَهُ أو يجيعونه، يَضربُونَهُ أو يَنخَسُونه، لا يَملك لنفسه إلا الشَّكْوَى المكبوتة، ويُسَمِّي لتبَلده هذا الخنوع صبرا.

طيورٌ في قفص، قاصرون في حِجْر الوِصاية المستبدة، راضون بكل خَسْفٍ وضيم، منصرفون عن الرجولة: هؤلاء إلى الترف المُردِي، وأولئِك إلى الهم المقيمِ، والبؤسِ السقيم. من هذا الغثاء يأذَنُ الله سبحانه وتعالى أن تنبعث أمَّةُ الخلافة الموعودة. من تلكم الأنْفُسِ المُنهَزِمة وَعَدَ الله ورسوله أن تتخلّق أسْدُ العرين، وحماة الدين.

إنَّ القومة الإسلامية ليست عبارة عن انتفاضة جماهيرية تهز أركان الظلم وقد انتهى كل شيء. ليست هديَّةً يأتي بها جند الله للأمة باردةً هنيئة مريئة. ليست إجراء إداريا يَصْلُحُ أمرُ الأمة عَقِبَ تطبيقه. إن القومة تعني، كما لا نمَلُّ نكرر، أن نَعُودَ أمةً مجاهدة كما كنا، راشدةً، تقررُ مصيرَها بإرادتها الحرة، وتفرض قرارها بقوة الساعد المُنتج، وتدبير العقل المتحرر من الخرافة وفلسفة الإلحاد، وتنظيم الطاقات البشرية والاقتصادية. القومةُ أن يصبح أمرُنا شورى بيننا، أن تحمل

الأمة عبء الحاضر والمستقبل. مهمةُ القيادة المجاهدة في هذه العمليات أن تشُدَّ فكر الأمة وعزمها إلى المثَل الأعلى المنشود، وأن تسهر على جمع الإرادة المشتتة، لتصنع منها سهما يخرِق الحواجز. مهمتُها أن تنفُخ في جسم الأمة الميِّتِ روحَ الاستماتة والتفاني في نُصرة الحق والعدل، في نصرة الله ورسوله.

باعَةُ الثوراتِ الرخيصةِ يُرَوِّجُون بضاعة المهرجانات الثورية، والشعارات المُدَوِّيَّةِ، واللعناتِ المُنْصَبَّة وابلاً على رأس الأمبريالية. «ثورات» كلامية عاجزة، بعجز الناطقين بها، عن أن تَلْحَقَ الأمبريالية بسوء.

زَعَمَ الفرزدق أنْ سيقتل مَرْبعا أبْشِرْ بطول سلامة يا مَرْبَعُ !

الهَدَفُ من تجنيد العامة وتعبئة المستضعفين إيقاظُ القلب إلى معاني الإيمان، ورفعُ الهمم إلى نُشدان الكرامة الآدمية وكمال الإنسان، ثم إيقاظُ الفِكر من سُبات الزمان، وبَثُّ الوعي السياسيِّ لِيَهْتَمَّ المستضعفون بما يجري في الحَدَثَانِ. الهدفُ تحريك الساكن فينا، الخاملِ من أحوالنا. إنَّ حديدنا باردٌ، يحتاج مَنْ يُحْميه على نار الحَماس، ثم يصُبُّهُ في بُوتَقَة الجندية، ليصوغ منه النِّصالَ النفاذة، ويطرُقَهُ بمطارِق التربية، لتستوي زُبَرُه على ما نريد من استقامةٍ لله، وصمودٍ للجهاد.

والمفروضُ أن المحرِّكَ للعملية، وهم جند الله جماعةُ الحق في رابطتهم الجهادية، يكونون قد تجاوزوا كل هذه المراحِل من اليقظة، والتربية، وشحذ العزائم، قبل أن يتصدَّوْا لتحريك غيرهم على النطاق الواسع. وإلا تَبَخَّرَ ذلكمُ الحماس، وانطفأت شعلتُه كما تنطفئ نار التبن بعد أن غرتك بجَفْلَتها الأولَى.

إن تحريك الساكن، وإيقاظَ الوسنان، وشحْذَ الكالِّ من الهِمم، يتطلب حركة دائمة، ونشاطا موفورا. حركةَ أجسام، وحركةَ فكر، وحركةَ عواطف، تتناسق لتُحْيِيَ وقتَ العامة النائمَ في الأحلام، المضطربَ بالتوافِه، ولتخاطِب الحواسَّ، وتستفِزَّ الفكر، وتَنْهَض بالإرادة البليدة. حركةَ أجسام، وترتيب لِقاءات وتجمعات، وعَقْدَ عهود تربط الجماهير بعجلة الحركة. وفي مراحل تهيِيء القومة لا يمكن هذا على مرأى ومسمع من المتربصين. لكنْ بعد القومة يجب أن يملأ الإسلام سمْعَ الدنيا وبصرها، يجب أنْ ترتفع كلمتُه، وتُنْشَرَ أعلامُه، ويُستعرَض شبابُه غُدُوّاً وعَشيا. يجب أن تكون الجنديةُ وتحفُّزُها كلمةَ الساعة، ومطمَحَ النشيط، ومَنْشَطَ الكاسل، ومُقِيم القاعد، وحامِلَ الكَلِّ إلى جلائل الأعمال. هذا وظيفها الحركيُّ التربوي المُنَشط، ووظيفُها الغائيُّ حشد جهود السواد الأعظم لإنجاز مهمات البناء، للإنتاج، للتغيير، بالعمل الدؤوب المُصِرُّ. جندية جهاد، لا جندية لعب واستعراض. وإن كان الاستعراض في حد ذاته دعوة بالمثال لا تُعَوَّضُ.

استعراض النبي ﷺ الشباب

ذكر ابن عبد البَرَ رحمه الله في الاستيعاب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَعْرِض غلمانَ الأنصارِ في كلِّ عام، فمرَّ به غلامٌ فأجازَه في البعث. وعُرِضَ عليه سَمُرةُ بنُ جُنْدُبٍ من بعده فردَّه. قال سَمُرة: فقلت: «يا رسول الله ! لقد أجزْت غلاما وَرَدَدْتني، ولو صارَعَنِي لصَرَعْتُهُ. قال: فصارعته فصرعته، فأجازني في البعث».

قال الإمام الشافعيُّ: رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة عشر صحابيا عُرِضُوا عليه وهم أبناء أربعَ عَشْرَة سنة، لأنه لم يرَهم بلغوا، وعُرِضوا عليه وهم أبناءَ خمسَ عشرة فأجازهم».

وكان صلى الله عليه وسلم في الاستعراض يقف الناسُ أمامه صفوفا صفوفا. ففي طبقات ابن سعد في قصة قدوم العباس بن مرداس السُّلَمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسعمائة من قومه على الخيل والقَنا والدُّروعِ الظاهرةِ ليحضُروا معه غزوةَ الفتح، قال العباس: «فَصَفَفْنا لِرسول الله صلى لله عليه وسلم، وإلى جنبه أبو بكر وعمر».

وأخرج الترمذي رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «عُرِضْتُ على رسول الله صل الهع عليه وسلم في جيش وأنا ابن أربع عشرة، فلم يقبلني، ثم عُرِضْتُ عليه مِن قَابِلٍ في جيشٍ وأنا ابن خمسَ عشرة فقبِلَني. فحدثت عمر بن عبد العزيز بهذا الحديث فقال: هذا حدٌّ ما بين الصغير والكبير. ثم كتب أن يُفرض من بلغ الخمسَ عَشْرَةَ». أي أن يُجَنَّدَ للقتال.

وأخرج الحاكم رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الجيش يوم بدر، فرد عمرو بن أبي وقاص، فبكى عمرو، فأجازه معه وعليه حمائلُ سيفه. وروى ابن سعد رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رأيت أخي عمرو بن أبي وقاص قبل أن يُعْرَضَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدر متواريا. فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الهي عليه وسلم فيستصغرَني فيردَّني. وأنا أحِبُّ الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستصغره

فرده. فبكى فأجازه». فكان عمرو يقول: فكنت أعْقد حمائلَ سيفي من صغري. فقُتل وهو ابن ست عشرة سنة.[1]

اللهُ أكبر ! شباب في الرابعةَ عشْرَةَ يطلبون الشهادَةَ في سبيل الله، ويتسابقون إليها، ويتوسلون ويبكون ! في سنِّ اللعب والعبَثِ كانوا يتقلدون حمائلَ السيف، ويُزاحِمون الأبطالَ بالمناكب. بفضل الله وفضل هذا الشباب، بجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع من بَعْدَه وصلنا الإسلام. ولا نظن أنَّ شيئا من إيماننا يتَجَدَّد، ولا أن رسالةَ الإسلام تبلُغ، ولا أنَّ الخلافة على منهاج النبوة تعود، إن لم يَسْر في كهولنا، وشيوخِنا، وشبابنا، ونسائِنا، ورجالِنا تلكَ النفحةُ العُلْوِيَّةُ التي حملت سلفنا الصالح إلى احتقار الدنيا والشوق للقاء الله، حتى اقتحموا العقباتِ، وخاضوها شعواء على الكفر والاستكبار.

تأمل كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنَى باستعراض جيشه، وتَفَقُّدِ رجاله، واختيارهم يَومَ الكريهة عندما يفرُّ الجبان، فيجدُهم يسارعون إليها، إذْ أحبوا الله ورسوله واستحْلَوْا الموت في سبيله.

وانظر كيف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس أن يحبس أبا سفيانَ ليشاهد جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر إلى مكة عامَ الفتح. فلعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قصد أن يُدْخِلَ الرعبَ على قلب أبي سفيان حين يَستعرض جيشا لا عهدَ له بكثرته، ولا بنظامه، ولا بتعبئته. ذلك أدعى أن يزداد خضوعا لله ورسوله، وأن يحمل إلى قومه نذير الخوف من جند الله. فإنَّ رؤيةَ المسلمين قوتهم، المسلحة المنظَّمَة في زينتها الجهادية، لمما يُفرح القلوب، ويوقد الحماس.

(1) هذه النقول من كتاب «التراتيب الإدارية»، ج1، ص: 231 وما بعدها.

التنويه بالأبطال

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكْره أن يُطْرِيَ المرءُ أخاه ويمدَحَهُ في وجهه. وقد قال لرجل أثنى ثناء بالِغا على أخيه في وجهه: «**قصمت ظهر أخيك**». وقال: «**احثوا الترابَ في وجه المداحين**». هذا يدخلُ في نطاق النفاق الاجتماعي الذي يتعامل به الناس، فيُزْجي بعضُهم لبعض كلمات المجاملة مَجّاناً. أما إذا جد الجد، وتميزت رجولةُ الأبطال عن فُسُولَة الجَبان، فإنَّ إظهار المزيَّةِ، والإشادَةَ بالشجاعة، يُقَوِّيان في النفوس معاني الجهاد، ويبعثان روحَ المنافسة الشريفة. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد قال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فتبارى الصحابةُ حتى دفعه صلى الله عليه وسلم لأبي دُجَانة بشرط أن يضرب به حتى ينْكَسِرَ. فعَصَبَ الصحابيُّ رأسه بعِصابةٍ حمراءَ وجعل يختال ويرقُصُ بين الصفوف. فأعْجَبَ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال: «**هذِه خُيَلاء يُبغضها الله عز وجل إلا في هذا الموطن**».

روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود رحمهم الله عن سلَمة بن الأكوع رضي الله عنه وذَكَرَ قصة إغارة عبد الرحمن الفزاري على سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستنقاذه منه، قال: «فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كان خيرُ فُرْسَاننا اليومَ أبو قتادة، وخيرَ رجالتنا سلمةُ**» قال: ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم الفارس وسهمَ الراجل، فجعلهما لي جميعا.

فقه هذا الحديث أن الثناء على ذوي البَلاء الحسن في الجهاد سُنةٌ نَبَويَّة. وأن تشجيع الأبطال سنةٌ نبوية. ولا عيْبَ في التشجيع الماديِّ

إن أَمِنًّا أن يفتتن الناسُ به فتفسُدَ النياتُ. ثم إن في قصة أبي دُجانة ما يشير إلى استحباب الشَّارَةِ يتميَّزُ بها الجنديُّ ليلفت إليه أنظار العدو ويرهبه بها. أما أن تكونَ الشارات والنياشينُ العسكرية أداةَ أبَّهَةٍ واستكبار فذلك مما يَذُمُّهُ الشرع. على أن تربية الجند الصغار يساعد عليها التنويه، والوِسام، والثناءُ، ريثما يشتد العود، ويَرشُدُ العقلُ، وتتقوَّمُ النفس. ولِلباس والهندام أهميةٌ لا تقل عن أهمية الصف والنظام والتعبئة. ومِنْ طبع العامة، بل من فطرة البشر، أن تتأثر العينُ بما ترى، والأذْنُ بما تسمع، قبل أن يتأثر العقلُ، وتجيشُ في النفس الرغبةُ والرهبةُ، فنعطي لهذه المظاهر حقَّها في جنديتنا.

لعب الأحباش

الإسلام دينُ الفطرة، وتعني الفطرةُ الاستقامة على الدين فيما تعني. فليس في جِبِلَّة الإنسان ما يُنافي الإسلامَ لله إلا إن انحرفت الجِبِلَّةُ ومالت مع الهوى. فنُمِيلُها مع شرع الله كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ترك الأحباشَ على سجِيَّتهم يلعَبون في مسجده الشريف بالحراب. لم يكن لَعِبَ عَبَث، لكنْ كان تدريباً حماسيا يُذَكر المسلمين بمُهمتهم الدائمة: الجهاد. ووقوعُ مثل ذلك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحت نظره، وبإقراره وتشجيعه، يدلُّ على أن الجنديَّة ومظاهرَها عبادةٌ. وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليساعِدَ زوجَه أمَّ المؤمنين عائشةَ على حضورِ عمل ينقصها في دينها. بل كان لعبُ الجيش بالحراب مما يزيد الإيمان.

روى الإمامُ مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: «واللهِ لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقومُ على باب

حُجْرَتي، والحبشَةُ يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. يَستُرُني بردائه لكي أنظُرَ إلى لعبهم. ثم يقومُ من أجلي حتى أكونَ أنا التي أنصرف. فاقْدرُوا قَدْرَ الجارية الحديثة السن، حريصةً على اللهو». وفي رواية أخرى لمسلم عن عائشة أنها قالت: «وكان يَومَ عيد يلعبُ السودانُ بالدَّرَقِ والحِراب. فإمَّا سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمَّا قال: «**تشتهين تنظرين**»؟ فقلت: نعم ! فأقامني وراءه، خدِّي على خدِّه، وهو يقول: «**دونكم يا بَني أرْفَدَةَ**» (لقبٌ للحبشة) ! حتى إذا مَلِلْتُ قال: «**حَسْبُكِ**»؟ قلت: نعم ! قال: «**فاذهبي**». وفي رواية له أنهم كانوا يَزْفِنونَ، أي يرقُصُونَ.

وروى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما الحبشةُ يلعبون عندَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخل عمر بن الخطاب. فأهْوى إلى الحصْباء يحصُبُهم بها. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دعهم يا عمر**» ! وعند البخاري وغيره أحاديثُ في الباب.

جاءت هذه الأحاديث في «كتاب العيدين»، وما كان ليباح في العيد ما هو حرامٌ في غيره. وانظر تشجيع النبيِّ صلى الله عليه وسلم«بني أرفدة» وكلمته الرقيقة لهم، وعرضَه على زوجه الطاهرة أن تنظر، وصبرَه لها حتى قضت وَطَرَهَا من التفرج.

حركةٌ دائبة

دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ فُرِضَ عليه القتالُ وعلى أصحابه عقِب خروجهم من مكة يُجَيِّشُ الجيوش، وأصبحت المدينة معقِلا وحِصْنا. منها تنبعث البُعوثُ والمغازي، وفيها يتحصَّن جند الله إذا هوجموا. بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم السَّرايا من المدينة إلى كلِ

بقاع الجزيرة، وغزا منها بنفسه. فكان عددُ مغازيه التي قادها سبعا وعشرين كما جزم بذلك ابن الجوزي والحافظ العراقي رحمهما الله. قال ابن تيمية رحمه الله: «ولا يعْلَم أنه عليه السلام قاتل بنفسه إلا في أحُد، ولم يقتُل أحدا إلا أبَيَّ بْنَ خلَف فيها». وبلغ عددُ سراياه صلى الله عليه وسلم التي بعث بها دون أن يخرج سبعا وأربعين أو سبعين. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قرأتُ بخط مغلطاي أنَّ مجموع الغزوات والسرايا مائة». هذا مُعَدَّل عشر غزوات وسرايا في السنة، دون أن نَخْصِمَ الشهورَ السِّتَّةَ الأولى التي كانت فَترَةَ تهييءٍ. غزوةٌ أو سَرِيَّةٌ في كل شهر في المتوسط. وما بين غزوة وأخرى تزوُّدٌ واستعداد. من هذه الغزوات ما كان النَّفْرُ فيها عاما، ومنها ما لا يتجاوز عددُه العشراتِ أو الأفرادَ. لكن الكل كان دائما على أهْبة. أمَّةٌ مجندة، متحركة، حية.

الحَرَسُ المدنيُّ

روى ابن فتحون رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كانت غزوة بدر وأنا ابنُ ثلاثَ عشْرةَ فلم أخرج. وكانت غزوة أحُدٍ وأنا ابنُ أربعَ عشَرَةَ فخرجت. فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم استصغرني وردني وخلَّفَني في حَرَسِ المدينة في نَفَر». هذا أصل لتجنيد الشباب في مهامَّ داخليَّة، منها المساهمةُ في حفظ الأمن، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، في إطار التجنيد للدعوة، وتعليم العامة دينَهم.

الفروسية

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ (الأنفال، 60). كانت الخيل في ذلك الزمان القوة

الثقيلة. فلا مناصَ لنا في هذه الأزمان الحديدية من ربَاطِ المدرَّعات، والدبابات، والمصَفّحات، وغيرها من المدافع الطائرة والصواريخ. لكنَّ الفروسية وشجاعتَها وخشونتَها قيمةٌ لا تَفْنى. والفرسُ نفسه دابةٌ مباركة لا غِنى عنها إلى يوم القيامة في ترويض جسم المقاتل على الصلابة والشدة. روى مسلم رحمه الله عن سلمان رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**رِباطُ يوم في سبيل الله أفضل -أو قال: خير- من صيام شهر وقيامه. ومن مات مُرابطا وُقِي من فتنة القبر وفَتَّانَيْهِ، ونما له عملُه إلى يوم القيامة**». وروى الشيخان والترمذي رحمهم الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**رباطُ يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها. وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والروْحةُ يَروحُها العبدُ في سبيل الله أو الغَدْوَةُ خير من الدنيا وما فيها**». وفي مُوَطَّإ الإمام مالك رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الخَيْلُ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**». وفي ترجمة سَلَمَةَ بن الأكْوَع رضي الله عنه أنه: «كان شجاعا راميا، ودخل مصرَ لغزو المغرب. وكان يسبِق الفرس شَدّاً»[1] أي عدوا.

عقد ابن ماجةَ رحمه الله «باب ارتباط الخيل في سبيل الله»، جمع فيه أحاديثَ الباب: «**الخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»، «**الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»، «**الخيل ثلاثة فهي لرجل أجر، ولرجل سِتر، ولرجل وِزر. فأما الذي هي له أجر فالرجل يتخذها في سبيل الله، ويُعِدُّها، فلا تُغَيِّبُ شيئا في بطونها إلا كتِب له أجر. ولو رَعاها في مَرْجٍ ما أكلت شيئا إلا كُتب له بها أجرٌ.**

(1) الكتاني في «التراتيب الإدارية»، ج2، ص: 387.

ولو سقاها من نهر جار كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجرٌ (حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها). **ولو استَنَّتْ شَرَفا أو شرفين** (طلعت ربوة أو ربوتين) **كتب له بكل خطوة تخطوها أجر. وأما الذي هي له سِتر فالرجلُ يتخذها تَكَرُّماً وتجمُّلاً، ولا يَنْسَى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها** (أي حق استعمالها لحمل المجاهدين، وحق أداءِ زكاتها كما تقول بذلك بعض المذاهب الفقهية التي صح عندها الحديث). **وأما الذي هي عليه وِزْرٌ فالذي يتخذها أَشَراً وبَطَراً وبذَخاً ورياء للناس. فذلك الذي هي عليه وزر**».

ومن أحاديث الباب: «**خيرُ الخيل الأدهم** (الأسود)، **الأقرح** (ما في جبينه غرة بيضاء)، **المُحَجَّلُ** (ما في قوائمه بياض)، **الأَرْثَمُ** (أنفه وشفته العليا أبيضان)، **طلْقُ اليد اليمنى** (ليس فيها تحجيل). **فإن لم يكن أدهمَ فكُمَيْتٌ** (بين السواد والحمرة)، **على هذه الشِّيَةِ** (اللون المخالف في بعض الأعضاء للون الجسم). وفي الباب أحاديث صحيحة.[2]

الرباط هو التيقظ والأهبة لكل طارئ في مواجهة العدو. وأجر من رابط لا ينقطع إلى يوم القيامة، فهو عمل جار من صنف تلك الأعمال الصالحة التي لا تموت بعد موت صاحبها، وهي الصدقة الجارية، والعلم النافع ينتقل من جيل إلى جيل، والصدقة بأصل مالي ينتفع به الناس وقفا سرمديا بعد وفاة مالكه، والولد الصالح يدعو لأبيه من بعده. ووجهُ الشبَه أن الرباطَ دفاع عن الأمة، وحراسةٌ لها، ويقظةٌ تسهر على راحتها. ففيه من البذْل، ونكران الذات، وعموم المنفعة، ما في الأعمال الباقية النافعة للأمة كنشر العلم، ووقف الملك، وإنجاب الذرية الصالحة.

(2) انظر «نيل الأوطار»، ج8، ص: 252.

يقترن ذكرُ الرباط بذكر وسائله، ومنها اتخاذُ القوة وإعدادُ الوسائل. وتمثِّلُ صورة الفارسِ المستوي على صهوة جواده المجاهدَ المرابطَ النموذجيَّ. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسا مقداما، يركب الخيل، ويربيها، ويختار جيادها. وفي الحديث الذي أوردناه في وصفه صلى الله عليه وسلم لشيات الخيل ما ينم عن ذوق رفيع يستجيب لنعمة الله علينا بالدواب المباركة. قال الله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل، 8). فكان صلى الله عليه وسلم أشكر الناس لهذه النعمة، وأكثرَهم تذَوّقاً لهذه الزينة، إذ وصف الجَمَالَ، وأوصى بالخيل، نتخذها للجهاد، وللستر، تكرما وتجملا، واحتياطا ليوم الحاجة. ويَخْلُق الله من غير هذه الدواب ما ظهر في هذه العصور من مخترعات هي مقياسُ القوة القتالية. فيكون إنتاجُنا لهذه المخترعات من آكد الواجبات، كما كان السلفُ الصالح ينتجون الخيل. بيد أن هذه الدوابَّ الفولاذية لا زينةَ فيها إلا إن نظرنا إليها بعين المقاتل الخبير الذي يرى فيها صديقه يوم الوغى.

كانت الخيل العربية مضرب الأمثال في القوة والجمال، ولا تزالُ كذلك. غير أن الخيل هجرتنا كما هجرَنَا العلمُ، وهجرتْنا القوةُ، وهجرتنا العزةُ، حين هَجَرْنَا دينَنَا. يا خجلتنا من تُراث رائع هو اليوم في يد أعدائنا! يتباهون بالجياد العربية، ينتجونها، ويُجْرونَها في الحلبات العالمية، لاحظ لنا من ذلك المجد إلا الاسم: «فرس عربية». فليكن رباطُ الخيل، ونتاجُها، وتربيتُها، ومهرجاناتها، وزينتها، وشياتها، لُعْبَةَ المجاهدين تحت دولة القرآن. وليكن ركوبُها، والتمرسُ بها، تدريباً عاما، وحفلةً، وعيدا.

يقول الشيخ الجليل سيدي أبو الحسن الندوي: «من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت من خصائصها العسكرية، ورزئت في

فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم. فكانت رَزِيئَةً كبيرة، وخسارة فادحة. كانت سببا من أسباب ضُعْفها وعجزها في ميدان الجهاد. فقد اضمحلت الروحُ العسكرية، وضعفت الأجسام، ونشأ الناس عل التنعم. وقد حلت السيارات محل الجياد، حتى كادت الخيلُ العربية تنقرض من الجزيرة العربية. وهجر الناسُ المصارعة، والمناضلَة، وسباقَ الخيل، وأنواعَ الرياضة البدنية، والتدريبات العسكرية. واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئا. فالمهم لرجال التعليم والتربية، قادةِ الشعوب العربية، أن يربوا الشبيبة العربية (أقول: الإسلامية) على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البَساطة في المعيشة، وخشونةِ العيش، والجَلاَدة، وتحمل المشاق، والصبر على المكروه».[1]

الرماية والمسابقة والمصارعة

نعم ! أعْدَتْنا حضارةُ المُتعة الجاهليةُ بألعاب تُلهينا عن الله عز وجل، وعن أنفسنا، وعن مصيرنا. ألعاب لا تفيدنا، بل تهدمنا جسوما ونفوسا وعقولا. لا يليق بأمة تريد الحياة أن تركن إلى اللعب المُلْهِي، إنما يليق بالأمة المجاهدة أن تصطبغ حياتُها في كل المجالات بصبغة القوة، والمتانة، وشدة المراس. هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه رضي الله عنهم. عند الشوكاني رحمه الله في كتاب «نيل الأوطار»[2] أبوابُ السبق والرمي، ذكر فيها جوازَ السباق على الجُعْلِ (أي الجائزة)، وذكر مسابقة النبي صلى الله عليه وسلم على ناقته العضباء، وذكر الخيلَ وما ورد فيها، وذكر الأحاديث التي تَحُثُّ على الرِّماية وتعلمها، وذكر «الدليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات

(1) «ماذا خسر العالم»، ص: 286.

(2) «نيل الأوطار»، ج8، ص: 238 وما بعدها.

الجهاد والتمرن فيها والعناية في إعدادها»، وذكر «أن العمل في آلات الجهاد وإصلاحها وإعدادها كالجهاد في استحقاق فاعلِهِ الجنة»، وذكر المسابقة على الأقدام، والمصارعة، واللعبَ بالحراب.

أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه: «باب التحريض على الرمي» فذكر قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ (الأنفال، 60). قال الحافظ ابن حجر: «جاء في تفسير القوة في هذه الآية أنها الرميُ». وروى ذلك مسلم رحمه الله من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا وإن القوةَ الرمي !**» قالها ثلاث مرات. قال البيضاويُّ رحمه الله في التفسير: «لعله صلى الله عليه وسلم خصه بالذكر لأنه أقواه». وروى أبو داود رحمه الله عن عقبة رضي الله عنه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثةً الجنةَ: صانعَه يحتسب في صَنْعَتِه الخيرَ، والراميَ به، ومُنَبِّلَهُ** (أي الذي يناوله الرامي به). **فارموا واركبوا، وأنْ تَرموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا**». الحديث. وما عمَّ صناعة السهام والرميَ بها وإصلاحَها، يعمُ صناعة السلاح، والتدرُّبَ على استعماله، وتطوير مخترعاته.

روى أبو داود رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سابَقني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسبقته. فلَبِثْنَا حتى إذا أرْهَقَنِي اللحم (أثقلني) سابقني فسبقني. فقال: **هذه بتلك !**». فِقْهُهُ، زيادةً على استحباب إشراك الرجل أهلَه في النُزْهَةِ والاسترواح،أن هذه التدريباتِ تليق بالنساء كما تليق بالرجال. عَمَّنا تحت إسلام الخمول التخنثُ والقعودُ، فليَعُمَّنَا غدا تشميرُ الجهاد. والله يهدينا إلى سبيل الرشاد، إنه رب العباد لا إله إلا هو القوي العزيز.

ربما يتخيل الخَلِيُّ من هَمِّ الأمة، القاعدُ عن الجهاد، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في مثل خموله. وربما يظن أن صَلاَتَه تُغنيه عن الجهاد، وأنَّ زهادتَه تقوم مقام الرِّباط الدائم في سبيل الله. كلا، بل كانوا، بأبي وأمي تلكَ الهمةُ القَعْسَاءُ، لا يَفْرُغُونَ من عبادة الصلاةِ إلا لينْكَبُّوا على إعداد القوة. نهارا وبالليل. شغلُهم الشاغلُ بعد أن تمكنَّ الإيمان بالله وباليوم الآخر في قلوبهم أن يُحَدِّثوا النفس بالجهاد، ويُعِدّوا الجسومَ والخبراتِ للجهاد. روى البخاريُّ رحمه الله عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «كنا نصلي المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينصرف أحدنا وإنَّه ليُبْصِرُ مواقعَ نبله». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المواضع تصل إليها سهامه إذا رمى بها». وروى الإمام أحمد رحمه الله عن ناس من الأنصار قالوا: «كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب، ثم نرجع، فنترامى حتى نأتي ديارَنا. فما يخفَى علينا مواقعُ سهامنا».

وربما يتخيل المتخيلُ أن المسابقةَ والمصارعةَ كانت لُعْبة مفضلة عن الدعوة وهَيْبَتِها، والجهاد ولَوازِمه. ذكر ابن إسحاق رحمه الله أنه كان بمكةَ رجلٌ شديد القوة يُحسن الصراع. وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة، فيَصْرَعُهم. وبينما هو ذات يوم في شِعْبٍ من شعاب مكة إذ لَقِيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رُكَانَةُ ! ألا تتقي الله وتقبلُ ما أدعوك إليه؟ فقال له: يا محمد ! هل لك من شاهد على صدقك؟ قال: **نعم ! أرأيت إن صرعتكَ، أتؤمن بالله ورسوله**؟ قال: نعم يا محمد ! فقال له: **تهيأ للمصارعة** ! فقال: تهيأت ! فدنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرعه. قال: فتعجَّبَ رُكانةُ. ثم سأله الإقالَةَ والعودةَ. ففعل به ذلك ثانيا وثالثا. فوقف رُكانةُ متعجبا، وقال: إنَّ شأنك لعجيب». وحديث رُكانَةَ

رواه أبو داود وأبو نعيم والبيهقي رحمهم الله، وقصته مشهورة.[1] كان أَصْرَعَ أهل زمانه، لم يمَسَّ جلدُه الأرضَ قَطُّ في ساحة المغالبة.

هذه القصة تفتح لنا بابا لنشر الدعوة بواسطة الفروسية، والتفوُّق في الرياضات البدنية والمصارعة. ومن يتسمعْ لما يروج في هذا العصر يُدركْ قيمة التفوق الرياضي، وما يُكسبه من سمعة على مستوى العالم، وما يَجلُبُ من اهتمام الناس. فإذا قُرِنَ هذا التفوق بالأخلاقية العليا، وبنموذجية دولة القرآن في إنجازاتها السياسية، والاقتصادية، والجهادية، كان ذلك أبلغَ أنواع الدعوة، وأكثرَها تأثيراً على البشرية الرازحة تحت ثِقل الحضارة المادية التي لا تعرف للإنسان غايةً، فهي تُزْجي وقتَ الجماهير، وتستنفد طاقاتها، وتُبَذِّرُ أموالها، في تنظيم المباريات العالمية التي تملأ أخبارُها، ودويُّ حركتها، فراغَ الإنسان الجاهلي. إن غيابنا من على مِنَصَّاتِ الانتصار في الألعاب الأولمبية، والمسابقات الدولية، وألعاب الكرة، والرماية، والمسايفة، والمصارعة، والسباحة، ينِمُّ عن خمولنا الكلي، وموتِ الرجولة فينا. اصْرَعْهُ أولا في ميدان القوة البدنية، والفكرية، والاقتصادية، والجهادية، والسياسية، والعلمية، ثم عَلِّمْهُ الأخلاق بالمثال، وعلمه الإيمان بعد أن ينفتح قلبُه عليك إعجابا، وعقله عليك تعجُّبا. إنك ترى، رحمنا الله وإياك، ما تناله المصارعةُ اليابانية الرائعة من إعجاب العالم، وما تُدِرُّهُ أفلامُها على الرأسمالية التي تستعمل أنبل ما في الإنسان لجمع الحطام. فليكن جند الله قبل القومة، وخاصة بعدها، أبطالَ كل ميدان، نجومَ كل المنصَّات. على أن لا تُكْشَفَ عورةٌ ولا يُضْرَبَ وجهٌ. ونستطيع، إن كنا رجالا متفوقين، أن نفرض أخلاقيتنا وآدابنا في تلك الميادين.

(1) أنظر قصته عند ابن هشام رحمه الله في السيرة، ج1، ص: 390.

الألقابُ والكُنى

ذكرْنا فيما سبق من هذا الفصل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنوِّهُ بالأبطال. ومن التنويه إطلاقُ الألقاب والكُنَى. ونستنبط من هذين النّوْعين نوعا ثالثا هو استعمال الشارات والأوسمة، لا سيما في حق الشباب الصغار الذين يتأثرون بمظاهر الجندية من لباس يمتازون به، وعلامات ملونة. هي حلوى بين يدي الرجولة، تمنح للطفل والمراهق والصغير ليُسْتَدْرَج بها إلى مراتب الأبطال.

من هذه المشجعات تغييرُ الأسماء والكُنَى والألقاب المعهودة أَيَّامَ الدَّعَةِ والسكون، لتُشْعِرَ بميلاد المؤمن إلى عهد الهجرة والجهاد. وقد غزانا الاستعمار في هذا الميدان، وغزتنا العُجْمَةُ، فنُسِيَتْ التكنيةُ وهي من سُنَنِ الإسلام، وأطلقت أسماءُ رجالهم وكُتَّابهم وقُوَّادهم العسكريين على شوارعنا وميادينا. في سجلات المواليد من هذه الأسماء المُنْكرة التي طرأت علينا ما يبرر حملة تطهيرية جادة صارمة. فإن وجه المجتمع ومظهره حقيقان بالعناية، ومن أهم ملامح هذا الوجه الأسَماءُ. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغَيِّرُ من أسماء أصحابه ما لا ينسجم مع الذوق والتأدب اللازم مع كرامة المؤمن. كان عمر رضي الله عنه يقول: «إذا أبردتم لي بريداً فابعثوه حسنَ الوجه حسنَ الاسم»، أو كما قال رضي الله عنه. فكان يتفاءل بالوجه الحسن والاسم الحسن، عنايةً منه رضي الله عنه بالنظافة المعنوية على مستوى الرموز، والعين، واللسان.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلق الكُنَى والألقابَ على أصحابه. وكانوا فيما بينهم يتخاطبون بالكنية لما فيها من إيذانٍ بتعظيم

المُخاطَبِ، والتحبب إليه بذكر وَلَدِهِ. فقد كان العرب يُعْنَوْنَ بأنسابهم، وأقرَّ ذلك الإسلام، بل أكده، بل أوجبه حين أوجب صِلَةَ الرحم. كان أحدُهم يُدْعى أبا فلان فلان بن فلان. فتُذْكَر الكُنية والاسم الشخصي واسم الأب.

أما الألقاب فكانت ذاكرةً جماعيةً لتاريخ جهادِ المؤمنين، تخلد مزايا الرجال، وتنشر فضائلهم بما تتضمنه من الثناء الحسن. فمن هذه الألقاب «أسد الله» لقب حمزة، و«شيخ الإسلام» لقب أبي بكر الصديق، و«سيف الله» لقب خالد بن الوليد. وكانت تُضرَبُ الأمثالُ بعدل عمرَ وهيبته في النفوس، وبسابقة عليٍّ بن أبي طالب وعِلْمه وشجاعته وبلائه في الإسلام، وبصحبة أبي بكر وتفرُّدِهِ من بين الصحابة بالصداقة الحميمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبسخائه، وبحياء عثمانَ وبذْلِهِ وكرمه، وبصدق أبي ذَرٍّ، وبفقه عبد الله بن مسعود، وبأمانة أبي عُبَيْدَةَ ابن الجراح رضي الله عنهم أجمعين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسُهُ يُشيد بهذه الفضائل، وينبه إليها، ويَقْدُرُها قَدْرَها.

الألَوية وكلمات السر

كانت حركة الجيش المحمديِّ جندية منسقة شاملة، تأخذ مجامع القلوب ومجامع الحس. كانت الأجواءُ خفاقَةً بالألوية والرايات والأعلام. في خرجة الجيش ورجعته تُنشر الألوية والرايات. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقِدها بيديه الكريمتين، ويدفعها لأمير الجيش، أو لمن يحمِلها بين يديه. كانت هذه الألوية في ساحة القتال موئلَ الأبطال، تحت ظلها تُحسَم المواقف. فكان لا يحملها إلاأشجعُ الرجال. كان لكل كتيبة رايتُها، وكانت الرايات

ألواناً وأشكالا، سوداء، وغبراء، وبيضاء، وصفراء. وكان مكتوبا على راية النبي صلى الله عليه وسلم «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كما جاء في كتب الحديث. وقد عقد لوفد جاء إليه لواء أسودَ فيه رسم هلال أبيض.

وكان للجيش المحمديِّ كلماتُ سِرٍّ، وشعاراتٌ، ونداءاتٌ. من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى من قوم تأخُّراً فنادى: «**يا أصحاب سُورة البقرة**» ! ومنها كلمات السر «أنت أنْتَ»، «يا منصور». وقد يَجْمَعُ الشعارُ وكلمةُ السر بين وظيفةِ التعارف ومعنى التذكير، كشعارهم «حم، لا يُنصرون».وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمز إلى الخزرج بـ«بني عبد الله»، وإلى الأوس بـ «بني عبيد الله»[1].

وكانت الأبطال يتسوَّمون، أي يتميزون بعلامات، عمامةٍ أو غيرها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدر: «**تسوَّموا فإن الملائكة تسوَّمت**». وهذا مصداقُ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ (آل عمران، 125). فكان أبو دُجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه يتسوّم بعصابة حمراء، وسيدُ الشهداء حمزةُ رضي الله عنه بريش النعام.

رجولة وخشونة

في هذا الفصل نقصُرُ الحديث على التجنيد العام، وجَوِّهِ، ويقَظتِه. ونرجع إن شاء الله في باب مقبل إلى الجندية المسلحة. يستوي في

(1) استفدنا في هذا الفصل من كتاب «التراتيب الإدارية» للكتاني رحمه الله.

الحاجة إلى الرجولة والاخشيشان كلُّ شباب الأمة، من تخصص منهم في الرباط الدائم، ومن كان متطوعا. من تفرغ لحمل السلاح، ومن كان من كتائب النجدة.

من مشهور كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تمعددوا واخشوشنوا، فإن الحضارة لا تدوم». كانت قبائلُ مَعَدٍّ باديةً خشِنَةً، فيريد عمر أن تَتَصلَّبَ أجسامُنا على غِرار أجسامهم. وقوله: «فإن الحضارة لا تدوم» يمكن أن نفهمه فهما لطيفا باعتبار أن المتحضرين المُنَعمين لا يدومون في الساحة، بل سرعان ما ينهزمون أمام خشونة أعدائهم الأقوياء. وهذا ما يشرحه ابن خلدون. قال تحت عنوان: «الأمم الوحشية أقـدرُ على التغلب ممن سواها» ما يلي: «اعلم أنه لما كانت البدَاوةُ سببا في الشجاعة (...)، لا جرم كان هذا الجيلُ الوحشيُّ (يقصد الخشن) أشدَّ شجاعة من الجيل الآخر. فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم. بل الجيلُ الواحد تختلف أحوالُه في ذلك باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا الأريافَ وتفنقوا (تفننوا) النعيم، وألِفوا عوائدَ الخِصْبِ في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم».[1]

النشيد

يُسْتعمَلُ النشيد حافزا للعزم، باعثا للشهامة كما يُستعمل في الرخاوة والعبث. فنبني على العنوان السابق المتعلق بالرجولة والاخشيشان لنعطي للنشيد في الإسلام مكانَه. لا هو برنين الأحلام ولا بِنغمات اللهو. نرجع إن شاء الله في فصل «الإعلام» للموسيقى، وما فيها من خلاف فقهي.

(1) المقدمة، ص: 242.

كان السفر الجهاديُّ متواصلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان له حُداةٌ يُنشدون الشعر لتَنْشطَ الجمالُ في السير. كان عبد الله بن رَواحةَ يَحْدُو، وأَنْجَشَةُ الحبشيُّ، والبَرَاءُ بن مالك رضي الله عنهم. لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة كان عبد الله بن رواحة بين يديه ينشد: «خَلُّوا بني الكفارِ عن سبيله». وعندما كانوا يبْنُون المسجدَ النبويَّ كان الصحابةُ رضي الله عنهم ينشدون أبياتا منها: «اللهم لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا»، فينشدُ معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَمُدُّ الصوت معهم، جاء ذلك في سيرة ابن هشام رحمه الله. ولما دخل المدينة قبل ذلك أنشد الأنصارُ رضي الله عنهم: «طلع البدر علينا». وقيل أنشدوا ذلك مَرْجعَهُ من غزوة تبوك. قال عروةُ بن الزبير رضي الله عنهما: «نِعْم زادُ الراكب الغناءُ !» يعني النشيد. وقال عمر رضي الله عنه: «الغناءُ من زاد الراكب». وقد نال الصحابة من هذا الزاد منالاً طيبا.[2]

الإسلام والقوة الجندية

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ العبقريُّ حسن البنا رحمه الله فصلا من رسالة «نحو النور». ونعلم ما كان من براعة هذا السيد الهُمام في تجنيد شبابه، فكانت فِرَقُ الجوالة بأعلامها، وشاراتها، ونشيدها، وشهامتها، وحركتها، من أهم أسباب نجاح الدعوة. يقول رحمه الله: «وتحتاج كذلك الأمم الناهضةُ إلى القوة، وطبْعِ أبنائها بطابع الجندية. ولا سيما في هذه العصور التي لا يُضْمَنُ فيها السلم إلا باستعداد للحرب، والتي صار شعارُ أبنائنا جميعا: «القوةُ أضمن طريق لإحقاق الحق» (...). وإنك إذا قرأت ما جاء به الإسلام في إعداد العدة،

(2) انظر تخريج أحاديث الباب في «التراتيب الإدارية»، ج1 ص242 وج2 ص136.

واستكمال القوة، وتعليم الرمي، ورباط الخيل، وفضل الشهادة، وأجر الجهاد، وثواب النفقة فيه، ورعاية أهله، واستيعاب صفوفه، لرأيت من ذلك ما لا يحصيه الحصر. سواء في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، أو الفقه الحنيف».

حراس العدالة والنظام

يُنتَظَرُ من الشباب المسلم أن يُنقذ الأمة من مهواة الموت، وأن يُنقذ العالم من الاستكبار الجاهلي، وأن يقاتِل التخَنُّثَ، والترفَ، والظلمَ، وأن يسهر على إقامة دولة العدل والأخلاق، وأن يرابط مستعداً لنجدة المستغيث، وأن يُفْرِغَ كل طاقاته لحماية القومة الإسلامية، ودفع العاديات عنها. يُنتَظَرُ من الشباب المسلم أن يكونوا أسْدَ العرين، وحماة الدين، وعمادَ الأمة. وذلك لا يأتي إلا بتربية تزرع في القلب الإيمان والتقوى. فإنه إن انتشر جند الله في الحركية الدائبة يوشكون أن ينْسَوْا الغاية. ومن نَسِيَ الله أنساهُ نفسَه، فهَلَكَ وأهلك. لذلك يكون لجند الله تدريبٌ بالنهار على الرجولة المسلحة، وتدريب بالليل على رجولة العبودية لله تعالى. وتعقد لهم مجالس إيمان تُحْيي القلوب بقَدْرِ وعَدَدِ ما يُعْقَدُ لهم من دورات تدريبية. فإن اختل ميزان التربية، وغلبت المظاهرُ والعضلاتُ على القلوب والرحمة الإيمانية، فإنما هي جنديةُ العنف والظلم. قال الأستاذ العبقريُّ في رسالة «نحو النور»: «ولأمْرٍ ما كانت وصيةُ الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائِه من بعده لقواد جنودهم أرْوَعَ مظاهِرِ الرحمة والرفق: «**ولا تغدروا، ولا تغُلُّوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا امرأة ولا طفلا، ولا شيخا كبيرا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تُجْهِزُوا على جريح. وستمرون على أقوام تَرَهَّبوا في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له**».

وهذه بعض وصايا عمرَ رضي الله عنه لرؤساء أجنادِه. أخرج ابن جرير رحمه الله أن عمر كتب لأبي عبيدة حين ولاَّه عمل خالد - رضي الله عنهم أجمعين- على الأجْنَاد ما يلي: «أوصيك بتقوى الله الذي يَبْقَى ويَفْنَى ما سواه. الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند ابن الوليد. فقم بأمرهم الذي يَحِقُّ عليك. لا تُقدم المسلمين إلى هَلَكَةٍ رجاءَ غنيمة. ولا تُنـزِلهم منـزلا قبل أن تَسْتَرِيدَه لهم (تبعث رائدا يتعرف عليه)، وتعْلَمَ كيف مأتاه (كيف تدخل إليه). ولا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إلا في كَثَفٍ من الناس (في جماعة كافية عددا). وإياك وإلقاءَ المسلمين في الهَلَكة. وقد أبلاك الله بِي وأبلاني بك. فَغَمِّضْ بصرك عن الدنيا وألْهِ قلبك عنها. وإياك أن تُهْلِكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيتَ مصارِعَهم».

وأخرج ابنُ جرير أيضا أن عمر رضي الله عنه كتب كتابا لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه لما ولاه حرب العراق. قال فيه: «يا سعدُ ! سعدَ بني وُهَيْبٍ ! لا يَغُرَّنك من الله أن قيل: خَالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبُ رسول الله ! فإن الله عز وجل لا يمحو السيءَ بالسيء، لكنه يمحو السيءَ بالحَسَن. فإنَّ الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعتُه. فالناسُ شريفُهم ووضيعُهم في ذات الله سواءٌ. الله ربُّهم وهم عبادُه. يتفاضلون بالعافية (أي من المعاصي)، ويُدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيتَ النبي صلى الله عليه وسلم منذ بُعِثَ إلى أن فارَقَنا، فالزَمْهُ فإنه الأمرُ. هذه عِظَتِي إياك. وإن تركتها ورغبت عنها حبِطَ عملُك وكنت من الخاسرين».

ضمان الاستقرار

إن نجحت القومة في تجنيد الأمة، ورفعت في نفس الوقت من مُستواها الإيماني، ومن كفاءتها التدريبية، ومن يقظتها، فذلك أحرى أن يضَعَ حدّاً لدوامة عدم الاستقرار التي ترمي بنا من انقلاب عسكري لانقلاب مضاد. وإنما يخرج الجيش عن طاعة الحكام في البلاد المتخلفة سياسيا، مثلِ بلادنا حاليا، لأن الحكام زُمْرَةٌ منفصلة عن الشعب لا سَنَدَ لها. وما يلبث حكامُ الجبر في مناصبهم إلا لأنهم يَرْصُدونَ فِرَقَ الجيش والشرطة والحرس بعضَها ضِدَّ بعض. فإن عم التجنيدُ الصادق الملتزم المؤمن، أغرَقَتْ أعدادُه، وقوتُه، ويقظتُه، كل تلك النوايا والمغامرات، وساهم ذلك في انتشالنا من القلق الاجتماعي، والاضطراب الانقلابي.

الفصل الثالث

اختيار الرجال

- أهل القرآن
- أهل الدين والسابقة
- رجال عظام لمسؤوليات عظيمة
- الرحماء

أهل القرآن

ما ينبغي للقومة أن تكون رهينة في يد الجيش المحترف، ولا عُرْضَةً لفوضى الانتفاضات، ولا لقمة سائغة للهجوم الخارجي والمؤامرات. إنما يُؤْتَمن على دولة القرآن أهلُ القرآن. حَمَلَ طلائع الحق عِبْءَ الدعوة يوم كان الناس يظنون أن حكمَ الإسلام لن يعود، وأن المطالبَةَ به حُلم، والبذْلَ من أجله انتحارٌ. أولئك رجالٌ أعْطَوْا البرهانَ على أنهم أهلٌ للأمانة، فهم بسابقتهم أحقُّ أن يقودوا القومةَ، ويستمروا في تربية الأمة، ويتقلدوا أعباءَ الدولة. لكنَّ عدد الطلائع في كل عمل جليل خطير يقِلُّ، حتى ينحصر في أفراد. وتعميمُ الدعوة والتربية، وتأطير مناصِب الدولة ونشاطها، يتطلب أمناء كُثْراً. ولا يصح في دعوة القرآن ودولة القرآن، أن يُقَدَّمَ هذا لأنه خال هذا أو ابن عم هذا. وقد قرأنا منذ قليل تحذير عمر لسعد رضي الله عنهما من غرور الانتساب إلى العظماء. إنما ينبغي أن تُقَدِّمَ الرجلَ سابقتُه، فهي له أعظمُ الامتحان. فإن لم يكن ذا سابقة تُذكَر، فليكن التجنيد، والمشاركةُ فيه، والبروز بين رجاله، مِحَكّاً لاختيار الصفوة اللازمة لتأطير التجنيد والدعوة والدولة.

نعود إن شاء الله لمعيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فصل مقبل بتفصيل. لكنا نحتاج إليه منذ الآن لرسم معالم الشخصية القيادية. كان رضي الله عنه يقول: «الرجلُ وسابقته، والرجلُ وغناؤُه في الإسلام، والرجلُ وحظه من الله». ثلاثة شروط، من اكتملت فيه فقد وفَّى الاستحقاق، ومن فاتته أولاهما فيمكن تلافيها، لكنَّ قليل الغناء في الإسلام، أيْ الجدوَى والنفع والكفاءة والخبرة، لكنَّ قليلَ

الحظ من الله، أيْ قليل التقوى والاستقامة، لا يُتلافَى في نقصهما ولو كانت لهما سابقةٌ. ومعيارُ آخر نبوي هو حفظ القرآن.

نجد بعضَ الناس يحفَظ القرآن كلَّه أو جُلَّه، لكنه ميِّتُ العزيمة، خاملُ الفكر، وربَما تجده تاركا للصلاة. فمِثل هؤلاء حملة أسفار لا يُعْتَدُّ بهم. إنما يعتد بأهل القرآن، ويُعتبرُ حفظُهم للقرآن تلاوةً واستظهارا وتطبيقا، معيارَ الاختيار، إن كان مع القرآن تقوى. فيكون لزومُهم للقرآن علامةَ حظهم من الله. ويُبْنَى على ذلك أسبقيةُ أهل القرآن لدخول قاعة الامتحان. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الرجال لإمارة جنده من حفَظَة القرآن. وكانوا على نَمَطٍ عالٍ من الدين، فدخَلَ معيارُ حفظ سور القرآن للتمييز بين طَيِّبِينَ. وإنه لمعيار خالِدٌ مع ملاحظة الفرق بين أمثالِ الصحابة الذين برهنوا على صدقهم في حفظ كتاب الله تعالى ودينه بالجهاد المُرِّ، وبين أمثال الخوارج الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، وأنهم يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ. مع هذه الملاحظة وهذا الحَذَرِ من حَمَلَةِ الأسفار والقُراءِ المارقين يكون حِفظُ القرآنِ، بكل معاني الحفظ، مرشِّحاً معتبرا.

أخرج الطبراني رحمه الله عن عثمان رضي الله عنه قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم وفدا إلى اليمن، فأَمَّرَ عليهم أميراً منهم وهو أصغرُهم، فمَكَثَ أيَّاماً لم يَسِرْ. فلقيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلا منهم فقال: «**يا فلانُ ! مالك؟ أما انطلقت؟**» قال: يا رسول الله ! أميرُنا يشتكي رجلَه. فأتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ونفَثَ عليه: «**بسم الله وبالله، أعوذ بالله وقُدرته من شر ما فيه**» سبع مرات. فبَرَأَ الرجلُ. فقال له شيخٌ: يا رسول الله ! أتُؤَمِّرُهُ علينا وهو أصغرنا؟ فذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم قراءته القرآن. فقال الشيخ: يا رسول الله

! لولا أني أخاف أن أَتَوَسَّدَ (أنام) فلا أقومَ به لَتَعَلَّمْتُهُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فإنما مَثَلُ القرآن كجِرابٍ مَلأْتَهُ مِسكا مَوضُوعاً** (تضوع رائحته أي تفوح). **كذلك مثلُ القرآن إذا قرأته وكان في صدرك**».

أهل الدين والسابقة

كلُّ من يُدِلُّ بسابقته، ويمُنُّ بها، ويعتبرُها رأس ماله، فإنما هو وُصُولِيٌّ تُسقِطُه وُصوليته هذه إلى مهاوي السفهاء، ويقدَحُ في دينه استشرافُه للرئاسة. وقد يكون من أهل السابقة منْ لا تتوفر فيه شروط الغَنَاءِ والخِبْرَةِ والدرايةِ ولو كان متدينا خاشعا. فهذا أيضا إن صلُحَ للدعوة والوعظ والتربية لا يصلح لمهام الدولة. ربما يكون واعظا ممتازا مؤثرا بكاء، ويكون في نفس الوقت أعجزَ الناس عن ضبط نفسه، وتنظيم غيره، كما تقتضي الجنديةُ ويقتضي الجهاد.

الحكمة المطلوبة بهذا الصدد وضعُ الرجال مواضعَهم، واختيارُ الأصلح، والأوْثَق، والأقْدر على إنجاز مهمات بقوة وأمانة. وقد جمع الإمام عليٌّ كرم الله وجهه شروط الاستحقاق، وضبط الرجال، وأعْطَى للقَدَمِ في الإسلام مكانَها بين الاعتبارات الأخرى. كتب في عهده للأشتَر النَّخَعِيِّ رحمه الله: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضلَ رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تُمْحِكُه الخُصُوم (لا تُغضبه)، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصَر من الفيء إلى الحق إذا عرفه (لا يضيق صدْرُه من الرجوع للحق)، ولا تُشْرِفُ نفسُه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه (يتأمل ولا يتسرع في الحكم)، وأوقَفُهم في الشبهات، وآخَذُهم بالحُجج، وأقلُّهم تبرُّما بمراجعة الخصم،

وأصبَرُهم على تكشُّفِ الأمور، وأصرمُهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراءٌ، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليلٌ.

«ثم أكثِرْ تعاهدَ قضائه (أي راقب أعماله)، وافْسَحْ له في البذل ما يُزيلُ عِلته (ما لا يضطر معه إلى مد اليد لأموال المسلمين)، وتَقِلُّ معه حاجتُه إلى الناس، وأعْطه من المنـزلة لديك ما لا يطمع فيه غيرُه من خاصتك، لتأمَنَ بذلك اغتيالَ الرجال لهُ عندك (أي وشايتهم به عندك). فانظر في ذلك نظرا بليغا. فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار، يُعْمَلُ فيه بالهوى، وتُطْلَبُ به الدنيا.

«ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا (امتحنهم)، ولا تُوَلِّهم محاباةً وأثَرَةً، فإنهما جماع من شُعَبِ الجَوْر والخيانة. وتَوَخَّ منهم أهلَ التجربة والحياء، من أهل البيوتات الصالحة، والقَدَم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرمُ أخلاقا، وأصحُّ أعراضا، وأقلُّ في المطامع إشرافا، وأبلغُ في عواقب الأمور نظرا».[1]

ما أشبه إسار الدين في قبضة الحكم الجائر في كل زمان! ولا يتغير الطبعُ البشريُّ في المطامع والجور والخيانة والمحاباة بتغير المجتمع. بيد أن أزماننا هذه الدينُ فيها أكثَرُ غربة، ومعادنُ الرجال أكثرُ نُدْرَةً. فيتعين أن يكون الاختيار أدقَّ، والاستصلاحُ والمراقبةُ أدومَ وأشدَّ إلحاحا.

رجال عظام لمسؤوليات عظيمة

يفتقر هذا الشبابُ المتطلع لحكم القرآن، الناهضُ بأعباء الدعوة إلى كثير من الرجال ذوي الخبرات والتجربة، ليملأوا فراغاً يَتْرُكه

(1) «نهج البلاغة»، ج3، ص: 94-95.

الأشرارُ بعد انسحابهم، وفكاكِ الدين من إسارهم. فيحتاجون لاستصلاح بقايا الناس بعد نجاح القومة وإعادة تربية من يُعلن توبته وَوَلايته للمؤمنين. وفي مخيمات الدعوة، ومحاضِنِ الدعوة، ورباطات الدعوة، وسياحات الدعوة، وأنشطة التجنيد العام، تصاغ الشخصية الإيمانية التي لا يزدهيها الإطراء، ولا يستميلها الإغراء، وتقاسِمُ جند الله مصيرهم في السراء والضراء. تصاغ شخصيةٌ جهادية تَقْوى على تحمل المسؤوليات العظام بروح الإخلاص لله عز وجل، وبباعث الشوق إلى الله، وبوازع الخشية من الله. شخصيةُ المؤمن القويِّ الأمين الذي يرعى حقوق الله، ويَقْدُرُ المسؤوليةَ أمامه عز وجل حق قدرها. وفي المواقف الخطيرة لن يثبُتَ إلا الرجالُ ذوو الخطَرِ والقَدْرِ عند الله. روى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي أمامةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك، إلا أتى الله عز وجل مغلولا يومَ القيامة يدُه إلى عُنُقه، فَكَّهُ بِرُّهُ، أو أوبقَه إثمُه**». وفي إفراد مسلم رحمه الله من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ! ألا تستعملني؟ فضرب بيده على مَنْكِبي، ثم قال: «**يا أبا ذر ! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خِزيٌ وندامة. إلاَّ مَن أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**».

هاك مشهداً لرجل من عظماء الأمة يقْدُرُ المسؤولية حق قدرها. بذَلَ الجهد، وأوفَى بالحق، ثم لم يثق بنفسه، ولا يطمئن إلى أدائه. روى الطبراني رحمه الله عن أبي وائل رحمه الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل بِشْرَ بنِ عاصم على صدقات هوازن، فتخلَّف بِشْرٌ، فلقيه عمر، فقال: ما خلَّفك؟ أما لنا سمع وطاعة؟ قال: بلى ! ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَنْ وَلِيَ شيئا من أمر المسلمين أُتِيَ به يوم القيامة حتى يُوقَفَ على جَسْرِ جهنم، فإن كان محسنا**

نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر، فهَوَى فيه سبعين خريفا». قال: فخرج عمر رضي الله عنه كئيبا محزونا. فلقيه أبو ذر، فروى له عمر الحديث، فشهد أبو ذر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد في آخره «**وهي سوداءُ مظلمةٌ**» (أي جهنم أعاذنا الله منها)، ثم سأل أبو ذر عمر قائلا: أيُّ الحديثين أوجعُ لقلبك؟ قال: كلاهما قد أوجع قلبي ! فمن يَأخذُها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من سَلَتَ الله أنفَهُ، وألصق خدَّهُ بالأرض (أي لا يأخذها إلاَّ ذو الحظ البئيس). أمَا إنا لا نعلم إلا خيرا، وعسى إنْ وَلَّيْتَها من لا يعدل فيها ألاَّ تَنْجُوَ مِنْ إثمها !».

الرحماء

من العبارات المعهودة في قاموس الثورات قولُهم «العنف الثوري». وتعني الكلمة أن الثورة تأتي صاعقَةً مُدمِّرة على الطبقة الساقطة من الحكم، فتقضي عليها قضاء مُبْرَماً، بلا شفقة ولا رحمة. ويرْوي التاريخُ شراسَة رجال الثورة الفرنسية الذين بثُّوا الرعب بالإعدامات الجماعية، والمحاكمات الدموية، وشراسة ستالين وزمرته وشرطه. ولنحن أشدُّ حاجة لتعبيرٍ جامع بين الرفق الإسلامي وضرورة تغيير المنكر وإبادته، لكيلا تستحيل القومةُ ثورةً، ولكيلا يغلِبَ العسرُ اليُسْر، والنقمةُ الرحمة. فإذا قلنا «رفق القومة» فلا تناقُضَ. وإن أسلوب كسر كل ما في البيت لإعادة تأثيثه يُحمِّلُ الساكنين مؤونةً ما كان أغناهم عنها لو وُفِّقوا لاستصلاح ما كان فَسَدَ، وتنظيف ما كان تلَوَّثَ. وهذا لا يمنعُ من طرح ما لا خير يرجى منه طرحا جميلا.

«العنف الثوري» مقدمة منطقية تواتي الجاهلية في أخص خصائصها وهو العنف المخرب. وما للإنسان عندهم من قيمة بعد أن يَسِمُوهُ في

وجهه بأنه عدوٌّ طبقي، أو من أنصار الثورة المضادة، أو من عصابات تخريب الثورة. أما القومةُ فتقع في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يحب الله عز وجل من يخرج على هذه الأمة المرحومةِ، يضربُ بَرَّها وفاجرَها، ولا يتحاشَى من مؤمنها. ويجيء يوم القيامة كلُّ من وَلِيَ عشرةً فما فوق مغلولةً يدُه إلى عُنقه، فكَّهُ بِره أو أوْبقه إثمه. فلِلْمُسْلمين حُرْمَةٌ لا ينبغي أن تُقتحم، وكرامةٌ لا ينبغي أن تُداس. ولئن كان الفاجرُ المجرم، الطاغية المفسدُ، جديرا أن تَجْرِيَ عليه حدودُ الله، فالمُخطئ التائبُ، والرعيَّةُ الضحية، لا ينبغي أن تأتيهم القومةُ إلا كما يأتي المُحَرِّرُ من العدو.

إن العنف الثوري لَجَنونٌ يعتري الثوار فيتجاوزون الحد، ويصبحون حيوانات مفترسة. ولِلْقومةِ الإسلامية قواعدُها ليتحكم جند الله في مَسار التغيير، دون أن تستفزَّهم صعابُ الحاضر فتراوِدَهم على كسْرِ الإنسان، ودون أن يضيقوا بمُخَلَّفات الماضي ومسؤولياته فيرتكبوا الشطط. أولُ هذه القواعد وأهمُّها ألاَّ يُوَلّوا على أمورهم من الرجال إلا من امتحن الله قلوبهم للتقوى، يخافون ربهم من فوقهم، ويتقونَهُ في عباده في السر والنجوى. إنَّ هذه الأمة منا ونحن منها، فلا تنبغي الشدةُ على من تَسَمَّى مسلما وانتسب لله ولرسوله إلا بقدر ما زاغ عن الطريق، وتنكر للحق الحقيق. فإن بقي على أصله من كونه مسلما لم يرتَدَّ عن دينه بقول ولا فعل، لم تَضِرْهُ الغلطةُ الماضيةُ، ما لم يحادَّ الله ورسوله ويتآمرْ علينا. وتسَعُهُ رحمةُ الجماعة الرحماء بينهم.

على محكِّ التجنيد العام، والتجربة والاختبار، يكون من معايير اختيار الصالحين للوِلاية دَماثَةُ الخُلُقِ، ورحمةُ القلب، اللذانِ لا يتنافيان مع الصَلابَةِ في الحق. وإنما تَسَعُ العواطفَ الكبيرة القلوبُ الكبيرةُ التي لا تنحط للأحقاد، ولا تتلوث بصغائر الانتقام.

أخرج البيهقي رحمه الله عن أبي عثمان النَّهدي رحمه الله قال: استعمل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من بني أسد على عمل. فجاء يأخذُ عَهْدَه. قال: فأتِي عمرُ ببعض وَلدِهِ فقبله. فقال الأسديُّ: أتُقَبِّلُ هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبَّلْتُ ولدا قطُّ ! قال عمر رضي الله عنه: «فأنت والله بالناس أقلُّ رحمة ! هاتِ عهدَنا. لا تعملُ لِي عملا أبدا !» فردَّ عهده.

الفصل الرابع

التغيير



- إن الله لا يغير...
- ثقل العادات والماضي
- مقاومة التغيير
- ساس يسوس
- دولةُ القرآن تقود التغيير

إن الله لا يغير...

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾ (الرعد، 11). جاء في القرآن اقْتِرانُ تغيير الأحوال بتغيير ما بالنفس هنا في سورة الرعد، وفي الآية الثالثة والخمسين من سورة الأنفال. قال المفسرون بأن الآيتين تُخبران عن تغيير الله عز وجل نعمته نقمة على قوم جحدوا دينه. والآيتان دالتان أيضا على حصول العكس في حق مَن غيَّر نفسه من جحود وكُفران لاعتراف وإيمان جريا على أن العبرة بعموم اللفظ.

ها هم أولاء أهلُ الدعوة خاضوا معارك القومة حتى نصرهم الله عز وجل، وتقدموا رابطة منظمةً ليتسلَّموا مقاليدَ الحكم، والتفوا حول قيادتهم، وتغلغلوا في الأمة، وجندوا الرجال، واختاروا ذوي الكفاءات والغناء، فما هو التغيير المرجوّ، وما هو طريقُه، وما هي العقباتُ دونه؟ سنعرض إن شاء الله لمهمات التغيير بالتفصيل فيما بقي من أبواب هذا الكتاب وفصوله. هنا نذكر مُجملاتِ شروطه.

في طريقنا إلى دولة القرآن، وفي خَطَوات دولة القرآن نحو مجد الإسلام، لا دليل لنا في المهمات، وفي تحديد الأهداف والغاية، إلا كتاب الله عز وجل كما طبقته سنة رسوله عليه من الله الصلاة والسلام. غيرُنا يهدف من الثورات إلى تغيير بنيات المجتمع، وبناء اقتصاده، وإصلاح نظامه السياسي. ثم لا شيء بعد ذلك إلا هذه الثقافةُ الثوريةُ، والفنُّ الثوريُّ، وما يواكب الثورة من عنف، واستبدال طبقة بطبقة، ومادية اشتراكية بمادية رأسمالية. يشير القرآن

إلى تغيير المجتمع، بنياتِه واقتصادِه وسياستِه، ويُشَرِّعُ لذلك شرائع، ويرسُم له منهاجا. لكن ذلك التغيير لا يدور حول نفسه، ولا ينتهي عند مقدماته، بل يدور حول الإنسان، ويخدُم غاية تحرير الإنسان من كل عبودية، ليدخل في العبودية لله عز وجل.

يريد التغيير الثوري الاشتراكي، كما كانت تريد الثورة البرجوازية من قبل، تحرير طبقة مستعبدة من نِيرِ الظلم الطبقي، لكنها لا تتحدث عن الإنسان ولا عن معناه وغاية وجوده في الأرض باعتباره فردا يولد ويحيى ويموت ويبعث ويحاسب ويجازى. إنما يتحدث التغيير الثوري عن الإنسان باعتباره أداة إنتاج، تُغَرِّبُه الرأسمالية عن ذاته المنتجة، وتَحْرِمُه نتائج عمله. فإذا جاءت الثورة ردت إليه كل الاعتبارات السامية بأن تُمَلِّكه نتائجَ جُهده، وتدله على ذاته وأسرارِها، من حيثُ كونُه عاملا كادحا يتناول المادة بيديه و بفكره فيصنع ويخترع ويُطَوِّرُ. عن تلك الدابَّة الصانعة المنتجة تتحدث الإديولوجيات، وحولها تفور الثورات. وعن معنى وجود الإنسان لا سؤال ولا خبر.

لا خبرٌ عند الجاهليين ولا كتابٌ منيرٌ. وفي موكب الصُّمِّ البكم الذين لا يعقلون عن الله، ولا يرجون لقاء الله، بل يجحدون وجوده، يتقدم الثوار إلى الأمام. تقدميَّة الحيوان الصانع، له في كل يوم ابتكار، وله طموح أن يرتفع مُعدَّلُ النمو كل عام، وأن تتسارع وتائِر إنتاج البضائع، وأن تستقيم الخطوط البيانية وتميل نحو الوضع العمودي الصاعد. تلك السعادةُ وذاك التغييرُ. وعن الإنسان والموت ومصير ما بعد الموت لا تسألْ ! فلا خبرَ.

لا يتنكب القرآن حقائق الاقتصاد، والعدل في القسمة، والجد في العمل المنتج، بل يعطيها حقها باعتبارها شروطا مادية لحياة الإنسان العابر المسافر لا بد له من زاد، ولا بد من إنتاج هذا الزاد، والسهر

على حسن قسمته، لئلا يمضي العمر في النـزاع حول الوسائل، ولئلا تحجُبَ عن الإنسان أهدافُ المعاش غايةَ المعاد.

ولا تتنكب دولةُ القرآن ضرورات الابتكار، والتصنيع، والتنمية الاقتصادية، ومنافسة بضائع الآخرين، وأسلحتهم، وتنظيماتهم المالية، والإدارية، والعسكرية. ولا تتنكب مهمات تغيير البُنَى الفاسدة، وتركيب جهاز الدولة تركيبا يساعد على الفعالية والجدوى، ويساعد عل توحيد الأمة، وجمعِها، وتحصينها من القلق والاضطراب. بل تهدف دولة القرآن إلى كل ذلك التغيير، وتعتبره واجبا من آكد واجباتها. لكن الدعوة إلى الله، وإنقاذ الإنسان من ظلام الكفر، وقتامة النفاق، وقذارة معصية الله، وغبش الغفلة عنه، المؤدية إلى بؤس الدنيا وعذاب الآخرة، هي الهدفُ الأسمَى، ومحورُ الحركة، ومحطُّ الطموح.

نزل القرآن على رجل يوحى إليه بين قوم يصدقون الرسول، ففصَّل لهم القرآن أوامر الله عز وجل فيما يخص طريق الإنسان وسلوكَه من الجاهلية للإسلام، من دار الكفر إلى دار الهجرة، من عادات القعود إلى تشمير الجهاد، من حياة الحيوان الاجتماعي الذي يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، إلى حياة المؤمن يأكل من الطيبات ويعمل صالحا، ليلقى به الله تعالى يوم القيامة. نقلهم القرآن من سجن الجهل بكنه الخالق وغاية المخلوق إلى معرفة أن لهم ربا خالقا بارئا مصورا، ومن آفاق الدنيا المغلقة إلى آفاق الأبد في دار الخلود.

هذا التغيير الجذريُّ في تصور الإنسان لنفسه، وللعالمين الدنيويِّ والأخروي، وللمسؤولية بين يدي الله بعد الموت، هو رسالة القرآن الخالدة إلينا. ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه، فإن ضيعوا هذه الغاية فكل تغيير دونها لا حساب به، ولا وزن له في حياة البشرية. ليست القومة الإسلامية ثورة قطرية إقليمية تنتهي مهمتُها عند تغيير بُنى

المجتمع، وتنشيط اقتصاده، وتطوير وسائله، بل هي رسالة القرآن إلى الإنسان أن يغير موقفه، وينتبه لمصيره، ويُقْبِل على نفسه يُغَيِّرُ ما بها لتُقْبِلَ على ربها.

وكل تغيير في السياسية والاقتصاد فإنما هو تبَعٌ لهذا التغيير الكلي الجوهري للإنسان، ونفسيته، وعقيدته، وأخلاقه، وإرادته، وحركته كلها على الأرض، لتكون حركةً لها غاية، ومعنى، وارتباط بمصيره بعد الموت، وبمصير أمته في التاريخ.

في كتاب الله عز وجل وحدَه علمُ هذا التغيير الإسلامي، وفي قلوب العلماء العارفين بالله نور الإيمان، وفي السيرة النبوية الشريفة النموذج. فما تُشْبِهُ القومة الإسلامية ثورات العالم إلا في المظهر والتحوُّل الظاهر الذي يمكن إحصاؤه ومراقبته. ولسنا بحاجة أن نعْكُفَ على أصنام الإديولوجية ومبادئها وبرامجها ونماذجها، فما عندها خبرٌ بالهجرة النفسية التي تحول المسلم من دار الخمول إلى دار الجهاد، ولا خبر عندها بذكر الله الذي تبْرَأ به الأنفس من شُحها، ولا خبر عندها بصحبة المؤمنين وتوادِّهم وتراحمهم في الله حتى يصبحوا كالجسد الواحد، ملتحماً بولاية الإيمان.

ثقل العادات والماضي

إن كان مع جند الله الطليعةِ سرُّ تربية الإيمان، وكانوا هم أنفسُهم هاجروا تلك الهجرةَ المعنوية في النيات والجهاد، وأشرفت أرواحُهم على مقامات الإحسان، فبوُسعهم أن يدفعوا الأمة، ويتقدموا بها، ويقودوها في هجرتها، من الخرافة، والنفاق في العقيدة، والنفاق الاجتماعي، و«دين الانقياد» للحاكم، والاستقالة من الاهتمام

بأمر الأمة، والسكوت والإمساك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكسل عن العمل، واستهلاك ما لا نُنْتِجُ، إلى غير هذا من الأمراض الموروثة عن فتنتنا الداخلية، أو المعدية بواسطة الاستعمار والغزو الثقافي الاقتصادي الحضاري.

إن مبادرات التغيير التي تتخذها القيادةُ تبقى مولوداً ميتا، أو تعيش كائنا هزيلا، إن اصطدت بأرضية الخمول، ووُكِلَ تنفيذُها «للروتين» الإداري، ولم يَتَبَنَّها الشعب. هنالك البُنَى الموروثةُ، والذهنياتُ العتيقةُ، إلى جانب العقلانية المادية، والتجمعات النخبوية المفرنجة. هنالك من احتل منصبا اجتماعيا، وجمع مالا وعدَّده. فلن يقبل هؤلاء التغييرَ، لأن التغييرَ يعني في حقهم الانزعاج عن عادتهم، وتطليقَ طموحاتهم، وإعادةَ قسمة ما جُمِع من أموال بغير حق. هنالك الشح الفردي، والأنانية، والتقليد، والركود الفكري، وهي أمراض توالدت فينا منذ قرون. هنالك الطبقية المقيتة، وهي حديثة فينا بصورتها هذه التي تسربت إلينا مع الرأسمالية المستعمرة.

مقاومة التغيير

كتبنا في فصول سابقة أن بناء دولة القرآن لن يأتي عفوا، ولن يُقبَلَ بارتياح من جانب من لا تستفيد أنانيته من القومة الإسلامية. كتبنا أن حمل الناس على ما يكرهون واجبُ جند الله. ثم تعرضنا لضرورة الرفق. فيبدو لأول نظرة أن ثمة تناقضا بين داعيين: داعي الإكراه وداعي الرفق. إننا نتصور عملية التغيير تعاونا وتناوبا بين يدين اثنتين: يدِ الدعوة الرحيمة، ويدِ الدولة الصارمة. نتصورها تراوُحا بين آيتين من كتاب الله تعالى، ووجهين من السيرة النبوية، ومرحلتين تُقابلان

الآيتين. نتصور التغييرَ رفقاً ورحمة من قوله عز وجل: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل، 125). ونتصوره بأساً وصرامة من قوله عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ (التوبة، 73).

بين الرحمة الرفيقة الدعوية، والصرامة التنفيذية، وفي جو التجنيد العام، وتعبئة المستضعفين، وتولِّي القواعد مهامَّها بيدها، تُذابُ التجمعات المصلحية، والمقاومات المنظمةُ. ومعنى هذا أن يد الدولة وسلطانها لا يملكان أن يغيرا مما بنا شيئا، لأن التغييرَ لا يُمْلَى من فوق، بل لا يكون للإملاء أثرٌ عملي إن كانت القيادةُ معزولة عن القواعد، وكانت الدعوةُ لم تمهد لتغيير ظاهر الحياة بتغيير أنفس الناس، وكان جهاز الدولة يدور في فلَكِهِ السُّلْطويِّ لا يُسْنده الاقتناع الشعبيُّ، والمشاركة المتحمسة الراغبة من جانب السواد الأعظم.

ساس يسوس

«لعنَ الله ساس يسوس وما تصرف منها !» هذه كلمة مأثورة في الأوساط الخاملة، بل هي دستورُ الاستقالة من الاهتمام بشؤون الأمة. وتحت الكلم يقبع الجُبْنُ من الحاكم، ويتخفى «دين الانقياد»، وتعشش عادة الطاعة العمياء السلبية لحامل الهِراوة. ويتبرأ لك مَنْ تخاطبه من دهماء الناس وسَرَاتِهم من جريمة السياسَة كما يتبرأون من العيب العائب. لا جَرَمَ أن يُصَدِّقَ الناس بعضُهم بعضا في هذه الاستقالة والتبري، وأن يهرُبوا من مسؤوليات التصدي للحكام تحت هذه المِظَلَّةِ بدافع الخوف تحت الاستعمار وأثناء المطالبة بالاستقلال. ولا غرابة أن تجدَ هذه المقالةُ الاستقاليَّةُ ما يبررها تحت حكم النخبة

المفرنجة في فساد ضمائر الساسة، وتعفُّنِ ساحتهم، وذَنَبِيَّةُ تَلْمَذَتِهِمْ للكفار، وخِدْمتهم للاستعمار. وإن التغيير الإسلامي متوقفٌ على مشاركة المسلمين عامة في الاهتمام بمصير أمتهم بعد نجاح القومة الإسلامية، وإلا ضَمُرَتْ وذَبُلَتْ، ثم ماتت معانيها، بتدني طموحاتها المخذولة، وفشل محاولاتها من فوقُ.

إننا بحاجة أن تنبعث هذه الإرادة المغيرة الفاعلة من داخل صدور الملايين، وقد أَلِفَتْ الملايين قرونا أن تضع أمرَها بين يدي الحاكم، وتتواكل إليه، وتسكت عنه. فيا من يبيع الأمةَ غَيْرَةً، ويا من يُهْدِيهَا علما، ويا من يأخذ بتلابيبها زَجْراً، لتنبذَ ذهنية الخنوع التي صيرتنا مفعولا به في التاريخ منصوبا لكل ذل بعد أن كنا فاعلا مرفوعا عزيزا !

دولةُ القرآن تقود التغيير

أين تلك الشهامةُ، وذلك التوثبُ، وتلك الرغبةُ في الاستشهاد في سبيل الله، وذلك الإيمان الذي بعث الله به من قبائل العرب الخاملة المتفرقة المتحاربة خير أمة أخرجت للناس؟ أصبحنا أمة متفرجة مستهلكة قاعدة. غيرُنا يكتب الرواية، ويُرَتِّبُ المسرح، ويمثل الأدوار، غيرنا ينتج ويبيع، ويشترط، ويرتهن ما شاء من حريتنا، وكرامتنا، وخيرات بلادنا، ومصيرنا، ونحن نقبلُ، ونُمْضِي العقودَ، وندفع الثمن أضعافا، ونتوسل لكرم الأمم وسخائها أن تطعمنا وتتصدق علينا. غيرُنا يحرك السياسة العالمية، والدبلوماسية الدولية، والاقتصاد، والحرب والسلم، وتوازن العالم، وصناعة السلاح، ونحن يُخطَبُ فينا على الجماهير المهيَّجَةِ، ويُكذَب علينا، وتُسَلَّم أرض فلسطين للعدو خلف ظهرنا، وتُمْضَى المُؤامرات، ويُصنع سلام الأذلاء.

مهمة دعوة القرآن ودولة القرآن أن تغير كل هذا البؤس الأسود، والموت الأصفر، بسعادة الجهاد، وحياة الهجرة المتحركة ظاهرا وباطنا نحو موعود الله. الدنيا غِلابٌ فلا نامت أعينُ الجبناء ! الدنيا حركة وتجديد ونشاط دائب، فلا أَمِنَ الخاملون ! الدنيا منافسة اقتصادية تكنولوجية، فلا عاش الجهَلَةُ العالَة المتكفِّفون ! الدنيا صِراع وحيلة ومدافعة بالتي هي أحسن تارة والتي هي أخشنُ إن اقتضى الحال، فلا كان الحالمون المثاليون العاجزون ! المستقبل للكتل البشرية الكثيرة العدد، المنظمة الدولة، الموحدة الاقتصاد، المسلحة بالعلم والصناعة، وبالنَّاب والمِخْلَبِ والذَّرة، فقاتل الله التمزق والغثائية والوهْنَ، وتطفل الصنائع على موائد السادة ! الدنيا دار الكسب والاختبار والعبور لدار البقاء، فحيى الله أهل الإيمان، أهل الهجرة والجهاد !

الفصل الخامس

الكرامة الآدمية



- الإنسان
- الإنسان والفتنة
- لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرا
- المجتمع الأُخويُّ
- حقوق المسلم
- النساءَ وما ملكت أيمانكم !

الإنسان

يُطرحُ على المسلمين سؤال حقوق الإنسان في الحكم الإسلامي بحِدَّة. ويتخذ أعداؤُنا من محاكمات المنافقين بإيران مناسَبَةً لتشويه سُمعة الإسلام، ووصفِه بالهمجية والدموية. وإن عدد أربعة آلاف حُكْم بالإعدام في مدى ثلاث سنوات بعد ثورة عارمة لدليلٌ على أن ثورةٍ إيران أرفقُ بها لا يُقارَن من جميع الثورات التي سجلها التاريخ. دع ذَا ولننظر إلى الإنسان.

إن الله عز وجل خلق الإنسان وهيأه لكرامته في الدنيا باعتباره من بني آدم، كما هيأه للخلود في النعيم، أو العذاب في دار الخلود جزاء كسبه هنا. ومن عناية ربنا جل وعلا بالإنسان، وحدبِه عليه، أن بعث إليه رسلا بلغوه أنَّ له ربا، وأنَّ ربه لا يريد له أن يُشرك به شيئا، ولا أن يظلمَ الناس، ولا أن تستفزه الدنيا فينسى الآخرةَ، ولا أن تغرَّه قوَّتُه فيستعبدَ الضعيف، ولا أن تأخذَه الشهوةُ والحِسُّ والمتاعُ فينسى أنَّ له قلبا على صلاحه مدارُ سعادته في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء، 70). فالأرض وخيراتُها لبني آدم خُلِقَتْ. وخُلقَ ابن آدم للكرامة عند الله إن لم تستعبده شهواتُه، ولم تَفْتِنْه الدنيا. في سورة البلد يصف الله عز وجل كَبَدَ الإنسان وتعبه وسط فتنة الدنيا، ثم يحُثُّه على التخلص من فتنتها: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ**﴾ (البلد، 11-20).

ها هو الإنسان في دار مُتسعة الأرجاء بَرا وبحرا، كثير الأرزاق، وها هو مُنَعَّمٌ بحواسه وكمال جسمه وصحته، وها هو تُبْعَثُ إليه الرسل، وها هو تخبره الرسل أنه مدعُوٌّ لدار النعيم المقيم في الجنة، لكنه موحول في الدنيا، مُعلَّق بها بواسطة غرائزه، مفتون فيها بتربيته، بأسرته، بمجتمعه، بمكانته في هذا المجتمع، بأفكاره، بغرائزه، بطموحه الدنيوي، بما يقع عليه من ظلم، بما يظلم هو الناس. وحقُّ الإنسان في التحرر من كل هذا الذي يصرفه عن ربه، يلهيه عن مصيره إليه في دار البقاء، هو مَجْمَعُ حقوقه في الإسلام ومدارُها.

في مذاهب الجاهلية تراد حقوق الإنسان لرفع الظلم عن الإنسان، وهذا مطلبٌ إسلاميٌّ. تراد لإنصافه في المعاملة، وهذا يدعو إليه الإسلام. تراد للعدل في القسمة وحد الاستغلال، وهذا يأمر به الله عز وجل. تراد لرفع إرهاب الحكام عنه والقمع والتعذيب، وهذا واجب الحاكم المسلم. تراد لإفشاء الرخاء، والأمن، وحرية الاعتقاد، والتحرك، والتنقل، وكل هذا تضمنه الشريعة الإسلامية. تراد حقوق الإنسان في مذاهب الرأسمالية لتطلق حرية الإنسان في ممارسة غرائزه بصفة منظمة، وتُكْبَتُ هذه الحقوق في مذاهب الاشتراكية ليُقْسَرَ الإنسانُ على حياة حيوانية أقل تهتكا في زعمها. وتقف الكرامة الإنسانية المطلوبة هنا وهناك في شِقي الجاهلية عند ضمان المعاش، ورفع مستواه، وتوفير البضائع والأسلحة اللازمة للدفاع عن هذا المستوى. حقوق للمتعة، حضارة بلا غاية.

الإنسان والفتنة

مدار حقوق الإنسان في الإسلام وهدفُها تحريره من فتنة الدنيا ليخلُص إلى الآخرة في أحسن حالة تُرضي عنه ربه عز وجل. وكل

ما يضمنه الإسلام من حقوق، فإنما يضمنه ليجنب الإنسان فتنة الاشتغال عن ربه بآلام الوحشة إن لم يجد أخوة تؤنسه، وبآلام التمييز العنصري والظلم الطبقي، وبهم الرزق، والعمل، وتعسف الحاكم، وبالحرمان من أسرة تسعِدُ أيامه، وقانون يحمي أمنه وراحته، وبالكبت إن لم يُسمح له بالتعبير عن رأيه، واعتناق الدين الذي يرتضيه، وبهم الغد إن لم تَحُطْهُ عنايةُ المجتمع. إلى آخر هذه الحقوق.

شرف الإنسان وكرامته وحريته تأتي من كونه مخلوقا سماويا بروحه، يُثقله الجسمُ الأرضي بحاجاته، وظروفه الحيوية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، عن الصعود من سجنه الأرضيِّ إلى سعادة الأبد. فيريد له الإسلام أن تُعَبَّدَ له الطريقُ، وتُوَفَّرَ له وسائلُ رحلة ناجحة، فيما بين نقطة ميلاده ولحظة موته، من حيوانيته لروحانيته، من غفلته عن الله عز وجل لذكره، من كبَده في الدنيا لارتياحه بلقاء ربه وهو عنه راض.

الفكرُ اللبرالي يربط حقوق الإنسان بسعادة الفرد، يتصورها مزيدا من المتعة واللذة. والفكر الشيوعيُّ يسعى لنفس السعادة المادية وإن كان يُقَدِّم في الاعتبار حقوقَ المجموع على حقوق الفرد. في كلا الجانبين وَلُوعٌ شديد، بل انحباسٌ تامٌّ، باللذة المادية، والقوة الحسية، وثقافةٍ تدور حول ذلك، وفنٍّ يُصوره، واقتصاد يخدمه، وحُكْم يدبره. لندَع الحديث عن هذه السعادة الدوابِّيَّةِ هل أسعدت الإنسان أَم أشقته، هل عوضته ببضائعها ووسائلها ما فقده من معنى وجوده. نستغني عن ذلك الحديث هنا لنبسط حقوق الإنسان في أن تُوَفَّرَ له شروطُ الرحلة الكريمة إلى الآخرة، والعرض الإلهي والدعوة الرسالية الموجهة إليه أن يقتحم العقبة إلى ربه سبحانه الكريم الوهاب غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير.

رتب الشيخ وليُّ الله الدهلوي رحمه الله الفتن التي تعترض الإنسان، وتَعوقُه عن بلوغ مرامه من الدنيا، وهو التَّزَوُّد للآخرة، حسَبَ خطواتها. قال: «اعلم أن الفتن على أقسام:

1- فتنة الرجل في نفسه بأن يقسُوَ قلبُه فلا يجدُ حلاوةَ الطاعة ولا لذةَ المناجاة. (...) فالقلب مهما غلب عليه البهيمية فكانَ قبضُه وبسطُه نحو قبض البهائم وبسطِها الحاصلين من طبيعةٍ ووهمٍ كان قلبا بهيميّاً (...). ومهما غَلب عليه خصالُ المَلَكِيَّةِ يُسَمَّى قلبا إنسانيا (...). ومهما قوِيَ صفاؤُه كان روحا».

أقول: حق الإنسان الأسمى هو أن ينتقل من بهيميته إلى إنسانيته، ومن قبضِ البهيمة وبسطها، أي انفعالاتها الغضبية والفرحية بالمتعة أو انعدامها، إلى سعادة الإيمان بالمصير الخالد عند الله.

قال رحمه الله: 2- «فتنة الرجل في أهله، وهي فساد تدبير المنـزل».

أقول من حقوقه الأساسية الاستقرار في أسرة، والتمتع برعاية الأبُوة والأمومة، ثم الزوجية والبنوة وَوَلاية الرحم في حالة شيخوخته ومرضه وفاقته.

قال رحمه الله: 3- «فتنةٌ تموجُ كموج البحر، وهي فسادُ تدبير المدينة وطمع الناس في الخلافة من غير حق».

أقول: للمسلم حق يضمنه الشرع في الأمن والعدل، تحت حكمٍ من اختيار جماعة المسلمين، وبشوراهم ومشاركتهم. وهذا يغطي جميع الحقوق السياسية، وجميع مقاصد الشريعة. وأمهاتُها حفظُ الدين، وحفظُ النفس، وحفظُ المال، وحفظُ النسل، وحفظُ العقل. هذه المقاصد الشرعية تلبي رغبة الإنسان وحاجته في كل المجالات النفسية، والأمنية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية. وبفساد

الحكم، ومَوَجان الاستبداد والعنف، تضيع جلُّها أو كلُّها، بتعطيل الشريعة، وارتكاب شطَطِ الحكم الجائر.

قال رحمه الله: 4- «فتنة مِلِّيَّةٌ، وهي أن يموت الحواريون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ويُسنَدَ الأمرُ إلى غير أهله. فيتعمقَ رهبانُهم وأحبارُهم، ويتهاونَ ملوكهم وجهالهم. ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، فيصيرُ الزمان زمانَ الجاهلية».

أقول: يتحدث الشيخ هنا بمصطلح «الرهبان والأحبار» على مستوى تاريخ البشرية، وتاريخ بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتاريخ عودة الجاهلية بعد ذهاب العلماء العاملين، وفساد الخَلْقِ «المتَعَمِّقين»، أي المبتدعين في الرأي، المُتَمَحِّلين. هنا حقٌّ أساسي من حقوق الإنسان، وهو حق سماع كلمة الحق التي جاء به الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، وحق الاهتداء بهديهم. هذا الحق لاحقٌ مُلْتَفِتٌ إلى الحق الأول في انتقاله من بهيميته إلى إنسانية. هذا شرط لذاك.

قال رحمه الله: 5- «فتنةٌ مُستطيرة، وهي تغيُّر الناس من الإنسانية ومقتضاها. فأزكاهم وأزهدهم (يميل) إلى الانسلاخ من مقتضيات الطبع (...)، وعامتهم (تميل) إلى البهيمية الخالصة. ويكون ناس بين الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».

قلت: كتب الشيخ رحمه الله لزمانه ومكانه، وقد عاش في الهند على رأس القرن الحادي عشر الهجريِّ. فهو يصف طوائف الناس: الزهادُ المتشبهون بالمتجردين من الدنيا المترَهِّبين المُوغِلين في أنواع الرياضات على نَمَطِ الرُهبان، والعامةُ المنْكَبُّون على اللذات، وطائفةٌ عائمةٌ بين هؤلاء وهؤلاء. مجتمع مُنفك منحلّ تلعب فيه رياح الفساد. هنا حقٌّ آخر أساسيٌّ للإنسان في أن يعيش في مجتمع فاضل تحكمه قوانينُ أخلاقية، لأن حق الإنسان الأول الأسمى، وهو انتقاله من

بهيميته إلى إنسانيته، لا يناله الإنسان إن كان المجتمع فاسدا، تعيث فيه حرية الغرائز البهيمية، ويبتعد فيه الربانيون عن الجادة وعن المجتمع بالترهب، وإنكار حق الجسم والطبع. وهذا حق ضائع، بل غير معترَفٍ به أصلا في المجتمعات الجاهلية التي تبني فلسفتها على أن الإنسان قرد متطور، فلا معنى لحرمانه من اللذة البهيمية. يكفي تنظيمُها لكيلا تتصادم الشهوات. وفي الهامش حقُّ كلِّ واحد في الترهب في الأديرة، والتنسك في المعابد، في انفصال تام بين حياة المجتمع العامة وبين الدين.

الإسلام ينكر التطرفَ الرهبانيَّ المحاربَ للغريزة كما يحارب التطرف البهيميَّ. وتعترف الشريعة السمحة بكل ما في الإنسان من نزَعَاتٍ فطرية، فتعطيها حقها. على مائدة الرب الكريم الطيباتُ من الرزق، خلقت للإنسان، فله حق التمتع بالحلال منها من أكل وشرب ولباس ونظر وسماع ونكاح وسكن، بشرط أن يكسب حلالا، ولا يُسْرِفَ، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يؤذي الناس، ولا يعصى الله في أمر.

قال رحمه الله: 6- «فتنة الوقائع الجويَّةِ المنذرة بالإهلاك العام كالطوفانات العظيمة من الوباء، والخسف، والنار المنتشرة في الأقطار، ونحو ذلك».

قلت: يستدعي ذكرُ فتن الزلازل والصواعق في ذهن المؤمن أوَّلَ ما يستدعي أن هذه الظواهر آياتٌ إلهيةٌ يُنبه الله عز وجل بها عباده إلى أن هذه الأرض ليست دَار قرار. ثم بعد ذلك يستدعي ذكرُها ضرورَة التضامُن بين البشر، ووجوبَ المسارعة إلى إغاثة الملهوف والمنكوب، والمُصاب من أيِّ ملة كان. فمن حق الآدمي، كرامةً لآدميته، أن يتمتع بمواساة إخوانه الآدميين طِبْقا لمقتضيات الرحِم الإنسانية التي يوصي بها الشرع.

في عصرنا هذا الذي يسودُ فيه الكرةَ الأرضيَّةَ فكرُ الجاهلية، وعلومُها، وإعلامها، ووسائلها، هذه الظواهر تُنْسَبُ إلى الطبيعة كما يُنسب الإنسان إليها. وفي دولة القرآن وقلوب المؤمنين تعبر هذه الأحداث عن غضب الله وعذابه. فكل ما ورد في القرآن من ذكر الخسف، والمسخ، والصاعقة، والصيحة، والريح الصرصر العاتية، تنبيه إلى أنك يا إنسان في قبضة رب قدير جبار، يأخذُ القُرَى إذا ظلم أهلُها بتلك المهلكات، كما يأخذها إن شاء بالأسباب الأخرى الجوية، من جفاف، وقحط، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، وبالمَوَتان والأوبئة الطاعونية. كما يأخذها إن شاء بالأسباب التاريخية بأن يسلط عليها عدوها، وأن يجعلَ بأسَها بين أهلها شديدا. فإذا اكتشف الإنسان المفتونُ بعقله أن كل سَنَةٍ يحدُث عشرةُ آلاف زلزال، ووضع سُلَّما لقياس الزلازل، ومراصدَ لمراقبة ميلاد الصواعق وتطوُّرِها، والجوِّ وتقلباتِه، وأرسل في الجو أقمارا صناعية تخبره بما يجري فوق الأرض وتحتها، ظن أنه قادر على تسيير الأرض، فسقط في مكر الله، وألهَتْه الأسباب عن خالق الأسباب، وإذا اكتشف الأمصال الواقية من الأوبئة، والأدوية القاتلة للجراثيم التي يُنْسَبُ إليها الفعل، ظن أنه سيدُ مصيره.

وبإعراض الإنسان عن الله عز وجل وجحوده ألوهيتَه، يفوته الاعتبار بالآيات الإلهية، ويفوته الشعورُ بعظمة محرك الكون سبحانه، ذلك الشعورُ الذي يرده لعبوديته ويهيئه للإيمان، فهو مَغْموطٌ من هذا الحق، حقِّ الاعتبار والخوفِ من الخالق الجبار. قلبُه الذي هو مقر الفهم عن الله مطَوَّقٌ بإفرازات عقله الذي هو آلة لتعامل الإنسان مع الآيات. طغيان العقلانية الملحدة على روحانية الإنسان وقلبه يَحْرِمه من حقه الأسمى، من آدميته التي لا تتحقق إلا بمعرفة الله عز وجل.

وتعطيلُ العقل عن وظيفته في تلقي الشريعة وتلقي آيات الله في النفس البشرية، وفي الجسم البشري، وفي الآفاق، يؤدِّي إلى ضُمور القلب، وتطرُّفِ الروحانية، وخُرافية التفكير، ومن ثم إلى الجهل والجاهلية. فمن حق المسلم أن لا يَنْطَمِس نُورُ قلبه بتألق عقله، وأنْ لا يُطفأ مصباحُ عقله بأوهامه النفسية.

قال رحمه الله: 7- «وقد بين النبيُّ صلى الله عليه وسلم أكثر الفتن، قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب لتبعتموهم**».

قلت: هذا حديث رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وتتمته عندهما: «قلنا: يا رسول الله ! اليهودَ والنصارى؟ قال : فمن؟ !» وروى هذا الحديثَ أيضا الحاكمُ رحمه الله وصححه عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لتركبُنَّ سُنَنَ من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامَعَ امرأته بالطريق لفعلتموه**».

ويرحم الله هذا الإمام فإنه هنا يشير إلى أن المسخ الكليَّ لشخصية المسلمين يَجُرُّ معه كل الفتن، ويحرِمُ من كل الحقوق. لا سيما إن كان المقلِّد، بكسر اللام، ضعيفا مغلوبا جاهلا مفقرا، وكان المقلَّد، بفتحها، متعلما مسلحا بالتكنولوجيا والدبابات والطيارات والصواريخ، محتلا للأرض، قادراً على الإنتاج الفلاحي والصناعي، مسيطرا على أموال الدنيا وخيراتها وسياستها وثقافتها.

فحق المسلم في دولة القرآن ودعوة القرآن أن يحرَّرَ من التبعية للكفار وتقليدِهم. وقد انحط المسلمون إلى خسَّةِ اتباع الجاهلية المسيطرة في أحط بهيميتها. وفي التشبيه النبوي لبلادة التابع المقلد بدخول جحر الضّب على آثار أستاذه ما يصور لك الغمَّاضات التي

وضعها على أعيننا الغزوُ الحضاريُّ، حتى أصبحنا لا نُبصِرُ إلا في اتجاه واحد، اتجاهِ الغُزاة الأقوياء. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه كما رواه الحاكم رحمه الله إخبارٌ بما نعرفه اليومَ من ذهاب الحياء من الرجال والنساء، وما عمنا من بلاء العُرْي، والسِّفادِ العلنيِّ في الشوارع، والمسرح، والسينما، وأشرطة الخلاعة التي غزت أسواقنا، ودَفَعَ أموالَنا فيها السفهاءُ، وشجعها حكامُ الجبر، ليتفرغ الناس إلى بهيميتهم ويشتغلوا بتلك «الثقافة» عن السياسة ومصير الأمة.

ومن حق أمة الإسلام ودولة الإسلام أن تُحتَرم شريعتُها، وأسلوبُها في معالجة مشاكل المجتمع، وأن تحترَمَ على مستوى العالم، وفي المحافل الدولية، أحكامُ الإسلام فيما يَخُص حياتنا السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، داخلَ بلادنا، وفي علاقاتنا بالعالم. هذا الحقُّ لا تعترف به الجاهلية اليوم، ولا تُقر لأيِّ قانون يخالف قانُونَها بالمشروعية الدُّوَلِيَّة، وتَنْعَتُ قضاءنا وشريعتنا بأنهما همجية متخلفة. وليس بالمطالبة تُنالُ الحقوق. ومتى عُدنا كما كنا أُمَّةً موحدة مجندة مجاهدة فرضنا ذلك الاحترام، وانتزعنا تلك الحقوق، ومهدنا ليسودَ العالمَ دينُ الله وشريعتُه وكلمتُه. لا يعترفون بنا لأننا في حكم الحقيقة هبطنا إلى مستوى الغثائية، وهي تفكك الأواصر الإيمانية، وهبطنا إلى مستوى البهيمية. ولو كنا إنسانا لقدرونا وخافونا واحترمونا. فيأيها المتخفي بدينك، والذليلُ بتبعيتك. الله الله !

لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرا

هذا العنوان كلمة مأثورة عن الإمام علي كرم الله وجهه. وأُختها كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !».

أولئك الأحرارُ العظماءُ رُبُّوا على إباء الضيم، ولا يعرفون غير الله ربّا. لا جرم أن داسوا الطاغوتَ تحت الأقدام. وتتحدث إلينا تلك الأصواتُ المُنَعَّمَةُ في رضى الله عز وجل ونحن اليوم قطيعٌ ترعاه الذئاب. لو كنا أسودا لما قبلْنَا بغير الحرية بديلا. لكنَّ طباع النعاج فينا، وبلادتها، وخضوعها، أَهَّلَتْنَا أن نُخَوَّفَ بالعصا فنخافَ، وأن نُقادَ فننقادَ، لا نَسْأَلُ عن الوِجهة والهدفِ، وأن تُجَزَّ أصوافُنا، وتُجْزَرَ ذواتُنا.

الفردُ منا عبدُ شهوته، فهذه أصلُ العبوديات لغير الله. ومن هذا الأصل يُمْسَكُ الفردُ، يمسكه الشيطانُ ذئبُ الإنسان، ويمسكه الطمعُ، ويمسكه الخوفُ، فيخضع للمال وإغرائه، والجاهِ وسلطانه، والحاكم واستبداده، والمجتمعِ وتقاليده، والفكر السائد واستطالته. يُنسيه الطمعُ في المنصب كرامتَه الآدمية، ويبيع دينه بالأبيض والأصفر، ويستسلم للتهديد، قَشَّةٌ من غُثاء.

والمجتمع عندنا عبْدٌ بعضُه لبعض. المعروف ما عرَّفَه سيف الحاكم، وسلطانُ الطبقة المتسلطة، وما عرفته الأعرافُ الحضاريَّة. عند قوم تراثٌ وقومية، وعند قوم قومية واشتراكية. تبعية هناك وتقليد، وتبعية هنا. والمنكرُ ما تجيء به أنت مخالفا للتيار السائد. إن كنت مسلما فالمقلدون لا يَرَوْنَكَ إلا من الخوارج إن لم تشاركهم الثُّغَاءَ في قطيع الحاكم. وإن كنت ثوريا تبشر بإسلام المستضعفين فالتقدميون، الملحدون منهم والمنافقون والمُغَرَّرون، لا يرونك إلا دخيلا ملَفِّقاً.

الفكرُ الحرُّ مكبوتٌ إلا إن اكتسبَ الحُرمة من إعلان ولائِهِ للحضارة السيدة، وإرادةُ الأمة مصادَرَةٌ، والإنسان عبدُ الإنسان.

وغداً في دولة القرآن، يواجه جندُ الله الأحرارُ مهمةَ صياغَةِ الشخصيةِ الأبِيَّة وتربيتها التي لا يُجْدي فيها مجرد الإخبار بأن الله خلقك حرا، ولا يجدي فيها الاستفهام الإنكاريُّ الذي ورد في قولة

الفاروق رضي الله عنه. عاش الفاروق عمر وسيدُ الرجال عليٌّ بين أحرار، فلما طال بهما العهدُ حتى رَأَيَا من يتعبد لغير الله، ومن يستعبِدُ غيرَه، أنكرا. وعلى جند الله أن يُعَلِّمُوا الناس حقهم الشرعيَّ الإلهي في الإنسانية والكرامة وإباء الضيم، ويُربوهم على ذلك حتى يروا ذلك معروفا وغيره منكرا. وإنها لصياغةٌ كليةٌ للشخصية الإسلامية بواسطة التهجير من نفسية البوار، وذهنية البوار، إلى حب الله ورسوله، وحب الموت في سبيله، والوقوف مع الحق ضد الباطل، مهما كان للباطل من بأس يُخْشَى، وسطوة تُهَدِّدُ. ما هذه الحرية تحفةٌ تهدى، ولا نومةٌ حتى الضحى. يرحم الله أحمد شوقي قال:

وللحريـة الحمـراء بـاب ... بـكل يد مـضرجة تُدَق

أستغفر الله العظيم. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «ما ترك قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل».

المجتمع الأُخوِيُّ

علاقات الناس بعضِهم مع بعض، وعلاقاتهم بالحاكم في بلاد الحضارة المادية المصنعة الغربية علاقات قانونية محضة. انمحت فيها أو كادت كل عاطفة إنسانية. حتى الأمهات والآباء لا يجدون من البنات والأبناء الرعايةَ التي تُعْتَبَرُ في بلاد المستضعفين، لا سيما في بلاد المسلمين، حقا مقدسا. الأسرة مفككة، ولا يكادُ البنونَ والبناتُ يبلغون سن الثامنة عشرة حتى يُدفعوا خارج الأسرة أو يندفعوا. فتنفصم عرى الرحِمِ كما انفصمت عُرَى الزوجية. ويبلغ الآباءُ والأمهاتُ سن الكِبَر فتُؤويهم دارُ العجزة، الجرداء من العطف والحنان، أحوجَ ما يكون الناس إلى العطف والحنان. ومن المألوف في

تلك المجتمعات القانونية أن يرفع الوالدان قضية ضد أبنائهما ليتقاضيا النفقة. في مجتمعاتنا أيضا دخل الانحلال علاقات المسلمين بعضِهم مع بعض، لكن لا تزال هنالك مُسْكَةٌ من الرحمة، خاصة في الأوساط الشعبية التي لم تُبْتَلَ بالعَدْوَى الجاهلية من قريب.

وبما أن حقوق الناس موكولة للقانون والمحاكم لا إلى الضمائر الإنسانية، فإن الحقوقَ في بلاد الغرب تباع لمن يدفع أجرَ المحامي الأحذق، الأقدر على الاحتيال على القانون. وفي بلاد الاشتراكيات حقوق صورية ومحاكمات صورية تعطي حرمة صورية لقبضة الحزب الحاكم والطبقة المستبدة.

من داخل تلك الأسوار يبلُغُنا حنينُ الإنسان المعذَّبِ ببهيميته وعلاقاته الجافة، وحقوقه القانونية الآلية المتوفرة لمن يدفع ومن يحكم. هذا صاحبُنَا رجاء جارودي يبسط لقارئه أرجاء الأخوة الإسلامية كما يتصورها ويشتاق إليها. نقرأ ما وراء البسط من شكوى لما عاناه الفيلسوف المُهْتَدِي حين كان مواطنا في ذلك المجتمع، وباحثا ومناضلا. قال: «إن تعليمَ القرآن يخالف فرديتنا الغابَوية، فهو لا يعتبر الإنسان حقيقةً منفردة منعزلة، لكن يعتبره جزءا من كلٍّ أكبرَ، هو المجتمع الأخويُّ. ويعتبر في نفس الوقت هذا المجتمعَ الأخوي راميا إلى غايات أعلى منه.

«عندما نقول إن الإنسان جزء من كل أكبرَ فإن هذا لا يعني من وِجهة النظر الإسلامية ما يمكن أن يُفهم منها في الغرب حيث لا نتصور بديلا للفردية إلا الاستبدادَ الشموليَّ. هذا الكلُّ الذي يعتبر المسلم جزءا منه ليس «الكل العضويَّ» الذي حدده هيجل، لا ولا هو المعنى الذي يقصده الفاشيون الذين يعتبرون أن الإنسان الفردَ لا معنى له ولا قيمة، بل ولا حقيقة، إلا بنسبته للدولة. ليست هذه

العلاقةُ بين الإنسان وبين هذا «الكل» الأكْبر، كلِّ المجتمع الأخوي، علاقة بيولوجية دنيا بين الخلية والجسم العضويِّ الذي هو جزء منه. لا ولا هي العلاقة الوظيفية الاجتماعية المفروضة على كل فرد بواسطة توزيع العمل توزيعا يجعل هذا الفرد مخلوقا جزئيا محبوسا في دائرة تقنية أو اقتصادية أو سياسية تغربه عن ذاته وعن قدرته.

«مثل تلك العلاقات (يقصد علاقات مجتمعات الغرب كما وصفها) لا يمكن أن تتكون إلا في أحضان مجتمع وجودُه هو الغايةُ في حد ذاته. أعني المجتمع الذي لا يحمل أيَّ مشروع غير مشروع تنميته وقوته.

«لكن المجتمع الأخويَّ الإسلاميَّ يخدم أهدافا تتجاوز وجودَه، حددَها الله (عز وجل). هاتان العلاقتان الساميتان، علاقةُ الإنسان بأسْمَى منه وهو المجتمع الأخوي، وعلاقة هذا المجتمع بأسمى منه وهو الله (عز وجل)، لا تؤسِّسان سلما سلطويا واضطهاد الإنسان للإنسان.

«إن المساواة والحرية (في الإسلام) لهما أسس مختلفة اختلافا جذريا عن أسسنا. إنهما ليسا وصفين للفرد المنعزل، لكنهما التعبير والنتيجة لتعلق كل الناس بالمطلق (يعني الله تعالى)، لتعلقهم بالجانب الربانيِّ من حياتهم الباطنية تعلقا يمكنهم من التعالي على المؤسسات البشرية وعن الاستكبار والتعسف استعلاء لا نهاية له».[1]

لاحِظْ تكرار الشكوَى من الفردية المنعزلة. فمن خصائص المجتمعات الجافة من التراحم البشري، المتماسكة فقط بالعلاقات القانونية، أن يعْزَل الفرد في وظيفته التقنية، ودوره الاقتصاديِّ،

(1) «وعود الإسلام»، ص: 65.

موكولا إلى حيلته وماله، أو إلى الدولة التي تعتبره قطعة من جهازها، ومادة أولية من موادها.

كانت علاقات المسلمين بعضِهم ببعضٍ دائما علاقاتِ تراحم، باستثناء علاقة الحاكم بالرعية التي فسدت في وقت مبكر. لكن منذُ هجم علينا الاستعمار داخلَتْنَا فرديةُ الجاهليين الأنانيةُ، فنَزَعَ منا الاستعمار حريتنا باعتبارنا أمة، ونزع منا حرياتنا أفرادا أثناء حكمه المباشر، وبعد انْسِحَابه وحكم أذنابه. كان التفاوت الطبقي بيننا قبل الاستعمار، في أوساط الرعية، في حدود معقولة. لكن بعد انسحابه الصوريِّ وحكم الطبقات المفرنجة، ظهرت الطبقية الفاحشة. وانزوت علاقات التراحم بين المستضعفين نتيجة لبؤسهم، فإن الفقر يكاد يكون كفرا، وإنَّ العُدْمَ والفاقَةَ يُقسيان القلوب.

إن الفردية الجافة تهددنا بفساد العلاقات الإنسانية أكثرَ مما هي فاسدة. ومن شأن التصنيع على النمط الغربي، والتنمية عليه، والحكم، والتنظيم الاجتماعي، أن يشجع الفردية الأنانية أو الجزئية كقِطَع الغيار. وباتباعنا لديننا وتعاليمه فقط، وبابتكارنا لنمط التصنيع والتنمية، والحكم والتنظيم الاجتماعي، على ضوء كتاب الله وسنة نبيه، لا نكون رأسماليين أنانيين، ولا قطع غيار في آلة الدولة الشيوعية، ولا أدوات فارغة لا معنى لها في دولة فاشية.

حقوق المسلم

نُطلق كلمة حق المسلم على واجب فرضه الله عز وجل أو استحبه، وأوصى به المسلمين بعضَهم تُجاهَ بَعض. إذا قلنا حق المسلم على المسلم كذا وكذا فإننا لا نُحيلُ على قانون تدعمه القوة التنفيذية، وتقضي به

المحكمة فقط، لكن نحيل على دَيْنٍ ترتب في ذمة المسلمين، يؤدونه لأخيهم كما يؤدون فرائض العبادات الأخرى ومستحباتِها. القانونُ، وقضاء المحكمة، ودعم القوة التنفيذية، ووسائلُ لفض النـزاع. فإذا كان كلُّ ما يربط الناس هو هذه الوسائل فمعناه أن هناك احتكاكا دائما ونزاعا. أما إذا كانت الغاية الساميةُ ملتقى الناس، ومصدر علاقاتهم، فإن الوسائل القانونية القضائية التنفيذية لا تعدو أن تكون سياجا أدنى يمنع المجتمع أن يسقط إلى مستوى الفوضى. في المجتمع الإسلامي الأخوي الإيماني الأول، كانت الذمم المؤمنة ضمانةَ الوفاء الأولى، ثمَّ التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر الضمانة الثانية، فلم يبق للقضاء والتنفيذ إلا الحالات الاستثنائية. وقد لبث عمر بن الخطاب بعد أن عينه أبو بكر رضي الله عنه قاضيا مدة سنة لا تُرْفَعُ إليه قضية.

نذكر هنا بإيجاز مُجمل حقوق المسلم في المجتمع الأخوي الإيماني، تتراوح بين فرض مفروض وسنة مستحبة. ويرفع المستحبُّ في حالة خوف الفتنة ونشوبِ البغضاء والنـزاع إلى مرتبة الفرض. لأنَّ تلافي الفتنة والبغضاء والنـزاع واجب. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

تعَرَّضَ الإمام الغزالي رحمه الله تحت عنوان «حقوق المسلم» لواجباتِ المسلمين بعضِهم تُجاه بعض. انظر تفاصيلها هناك والأحاديث التي يستند إليها. وهذه بعض الأحاديث:

1- روى الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**». وزاد مسلم في رواية: «**وإذا استنصحك فانصح له**».

2- روى الشيخان وغيرهما رحمهما الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**».

3- روى أبو داود رحمه الله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مِن إجلال الله إكرامُ ذِي الشَّيْبَةِ المسلم**». قال العراقي رحمه الله: إسناده حسن.

4- روى البخاريُّ رحمه الله في الأدب، وأبو داود رحمه الله عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس منا من لم يُوَقِّرْ كبيرنا ويرحمْ صغيرَنا**». قال العراقي رحمه الله: سنده حسن.

5- روى الترمذي رحمه الله، وقال: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أتدرون على من حُرِّمَتْ النارُ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال: «الهيِّنُ السهل القريب**».

6- روى مسلم وأبو داود والترمذي رحمهم الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من نَفَّس عن مؤمن كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. والله في عَوْنِ العبد ما دام العبدُ في عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله، له به طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة،**

وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».[1]

لا غروَ مجتمعٌ كانت تنـزل عليه السكينة بتمسكه بالقرآن، وتغشاه الرحمة، وتحفه الملائكة، ويذكره الله فيمن عنده أن يكون خير أمة، وأرحمها بالخلق، وأسرعها لعون الضعيف، وكشف كربته، وتيسير عسرته.

نترك لكتب الفقه تفصيل حقوق المسلم في المال والدم والعِرضِ، فمقاصدُ الشريعة تدور كلها حول تلك الحقوق، فتحوطُ العنايةُ المؤمنَ بوَلاَيَةِ المحبة، والبذل، وقضاء الحاجة، والنُّصرة، وحُسن الجوار، والعدل والإحسان. وتُحرِّم ترويعَه، وظلمه، وسبَّه، واحتقاره، وهجره بغير حق. ناهيك بالتشديد الكبير في بِرِّ الوالدين وذوي القربى، والمرأة، واليتيم، والمسكين، والأسير.

النساءَ وما ملكت أيمانكم !

كان من آخر ما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبيل موته وصيتُه: «**النساءَ وما ملكت أيمانكم**». وإنْ دل ذلك على شيء فإنما يدل على عنايته صلى الله عليه وسلم الكبيرةِ بالمستضعفين النموذجيَّيْنِ: المملوكِ والمرأة. وتؤكد هذه الوصيةُ الأخيرةُ ما جاء من توصيات كثيرة بهذين الصنفين في المجتمع في كتاب الله وسنة رسوله.

ولا يزال الطعن في الإسلام يستهدف الرِّقَّ وحقوقَ المرأة وينسب إلى الإسلام ما فعله ويفعله المسلمون من تفريط في حق المرأة ومن استعباد الناس بغير حق.

---

(1) الإحياء، ج2، ص: 170 وما بعدها.

لن نطيل في الحديث عن المرأة وحقوقها في الإسلام، ومساواتها الاجتماعية والاقتصادية بالرجل، وحقها في التصرف بمالها، فهي شقيقةُ الرجل في الأحكام إلا فيما يخصها من حيث أنوثَتُها. يكفي ما أكرمَ الله به الأمهاتِ من أن الجنة تحت أقدامهنّ، وأنهنَّ أحق، ثم أحق، ثم أحقُّ، بـبِر البنين والبنات. يا من يرمي الأمهات في ملاجئ العجزة !

ومن تعدد الزوجات يسخَرُ الأغبياءُ. إن ذلك التعددَ المشروعَ المشروطَ بشروط المساواة بين الأزواج، والإحسانِ إليهن، بديلٌ عن السِّفادِ المنظم. اسمع جارودي يُحدثك عن بني وطنه. قال «إن وحدة الزوجية كما تُقَنِّنُها مدونة نابوليون كان هدفُها الأساسيُّ الحفاظَ على نوع ما من أنواع الملكية والوراثة. هذه الوحدة ليست لها إلا علاقة بعيدة جدا بالواقع. في تقاليدنا الغربية تجد وحدة الزوجية مُسَطَّرَةً في القانون لكن التعدديةَ هي المعمولُ بها. والدليل على ذلك أن أدبياتِ الغرام، في الغرب وفي غيره، إنما تُمَجِّدُ الحب خارج الرباط الزوجي».[1]

يجب إعادة حق المرأة المغصوب كما حده شرعُ الله، وحمايتُها من العدوان، ومن جملة العدوان وأشنعِه العدوان على كرامتِها باسم الحرية. يجب أن تحرر المرأة من العجز والتبعية الاقتصادية فيعطاها حقُّ النفقة زوجةً وأما، ويعطاها حق المَتاع مطلقةً، وأجرةٌ كريمةٌ عاملةً، وأن تُهيأ لها ظروفُ الاستقرار في بيتها، لأن عليه يتوقف استقرارُ المجتمع والدولة.

(1) «وعود الإسلام»، ص: 69.

الفصل السادس

أفحسبتم...

- العبث والباطل
- العقلانية
- الفطرة
- «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»
- السلوك إلى الله
- معرفة الله عز وجل
- العارف يُعْطى نُورا
- يَقظةُ القلب
- أنت قَفَصٌ بلا طائر !
- حب الرياسة
- اقْلبْ دَوْلَةَ نَفْسِك
- الكتاب والسنة
- بئر الغفلة
- ارفع الهمة
- أحبَّ مَن يحبك
- اصحب شيخا مرشدا

في هذا الفصل نذكر إن شاء الله قمة حقوق الإنسان، حقَّه في بلوغ كماله، حقَّه في تسنم ذروة كرامته الآدمية. لمن سبقت له من الله الحسنى فاتخذ إلى ربه سبيلا.

العبث والباطل

قال الله تبارك وتعالى: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾** (المؤمنون، 115). وقال عز من قائل: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** (آل عمران، 190-191).

بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم دهريين، نظرتهم إلى الدنيا والحياة كما قال الله تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** (الجاثية، 24). وجاهليتُنا المعاصرة مادية تجحد وجودَ الله، تنكره، وتفلسف العبثية. حضارة بلا غاية، سفينةٌ تعصف بها الرياح. وتهبُ علينا تلك الرياح الهوجاء، رياح الثقافة «المتقدمة» والإعجابِ بالأوربيِّ، المخترع الصانع، فيتقلصُ في ذهننا معنى الإسلام في حدود عبادة سطحية، ونظام اجتماعي وسياسي، ندافع عنه، ونُنَظِّرُ له لنضاهيَ وننافس ما عندهم من نُظم. وتكونُ العبادة في هذا القطارِ عربةً مجرورة.

ننسَى الإيمان، والقلب، وسر الخلق، والمبدأ والمعاد، والخلود في الآخرة.أو نمرُّ على كل ذلك مرَّ الخجول من هذه «الغيبيات». ننسى

الإحسان، وكمال الإنسان، وجوهر الإنسان، وهو روحه الخالدة. وبذلك النسيان أو التناسي، أو الإضافة في مؤخرة القطار للغاية العليا من الدين، ندَعُ أنفسنا في تخوم مُعَتَّمَةٍ بين الحق والباطل. ولا معنى لدولة القرآن، ودعوة القرآن، وإمامة الأمة، وتنظيم الجماعة، وتجنيد العامة، وتربية الطليعة، إن لم يكن إحقاقُ الحق في صورته وروحه، وإبلاغُ الإنسان كرامته الآدمية وكماله الأبدي، لب الحركة، وثمرة الجهاد، وغاية الدعوة، وشأن الدولة.

العقلانية

لطالما قرعَ آذانَنا اتهامُ أعدائنا الإسلامَ أنه دينُ اللاعقل. ففي الحضارة المادية التي تؤله العقل، وتَدِينُ بالعقلانية، ويُوسَمُ ما لا تدركه الحواس، وهي منافذ العقل وأبوابُه وأساتذتُه،بأنه لا عقلي، أي لا وجود له. ويسود الإرهابُ الفكريُّ الذي يمارسه المغربون، فيتحاشى المسلمون الحديث عن الغيب، وعن غاية الإنسان، وعن حياته الأبدية، وعن النعيم في الجنة، وعن العذاب في النار، وعن أحوال البعث والنشور، وعن القبر وفتنته، وعن الملائكة.

ما من إنسان يريد أن يكون «على مستوى العصر» يرضى أن يوسم باللاعقلانية. ومما يزيدُ المتفرنجين والملحدين جرأةً على الدين، وَوَلُوعاً بالسخرية من الغيب، وممن يؤمن بالغيب، أنه نشأت بين المسلمين في عصور انحطاطهم خرافاتٌ هي عينُ التنكر للدين، مثلُ عبادة القبور، ونسبةُ التأثير للعزائم، والشعوذةُ، والحجُّ للمغارات، والكهانةُ، وما إلى ذلك. فيبدو المؤمن بالغيب الحق من جِنٍّ، ومعجزة للأنبياء، وكرامةٍ للأولياء وكأنه من جملة المخرفين. ويتقدم الدهريُّ

الماديُّ إلى الناس بقاعدته العقلانية، وهي أن كل ما لا يثبته العقل لا وجود له. ويتسطَّحُ أمام هذا الرفض كلُّ ما يتجاوز العقلَ من وجود الله عز وجل، ووجود ملائكته، ووجود البرزخ، والجنة، والنار، مع ما يتجاوز الحس والأسباب المعروفة من حياة الجن، وحصول المعجزة والكرامة على نفس المستوى الذي تحتله الخرافة.

فإذا فرغ الدهريُّ من وسْم الغيب باللاعقلانية، أي بالخرافية والعدم، جلس إلى جانب العقل، وخاطبك كما يُخَاطَبُ القاصرُ والطفلُ والمجنونُ. وباسم العقل والعقلانية يعزِّزُ أوهام فلسفته، وخرافةَ حضارته العابثة، وبهيميةَ الإنسان، وسائرَ ما أفرزه العقل الفلسفي الطائش مع تيار الهوَسِ الجاهليِّ منذ فَطَمَ هذا العقل نفسه عن تعاليم الدين، وأنكر في أوربا مع شعوذة الكنيسة ما كان بقي من آثار النصرانية. فإذا نازعْتَ الدهريَّ في شيء من فلسفته، وأُسُسِ حضارته، وفراغ حياته من كل معنى، وعبث سعيه وضلاله، جاءك بالشاهد الذي لا تُرَدُّ شهادتُه، وهو العقل العلميُّ الصانعُ المخترِعُ. ها هي الحجج التي لا تذَرُ الشك في صواب الفلسفة، والعبثية، وبهيمية الإنسان، ودين اللذة: صَرْحٌ عال من الأمجاد العلمية، الصناعية، الابتكارية، التنظيمية، شيده هذا العقل الجبار. قدرة العقل الفائقة على استنباط أسرار المادة واستكناه خبايا الكون. صواريخُ تجول حول الكواكب وتروم النجوم. الإنسان وصل القمر ويتطلع إلى المريخ.

حق وباطل، باطل يحتج بحق، وما هذا العقل إلا كخُفَّاش جيِّدِ الإبصار في ظلمات الكون المادي وما أودع الله فيه من أسباب. حتى إذا خرج من كهفه ذاك إلى حيث تسطع شمس حقائق الغيب عَمِيَ عَمىً مُطْبَقا، وأنكر أن يكون في الوجود غيرُ ما وقع عليه حسُّه الكليلُ.

يقول بعض من يكتب عن الإسلام، يدافع من مواقع انهزامية: إن الوحيَ معقول، وما آمن المؤمنون بالوحي إلا من خلال عقولهم. ويستدل مثلُ هؤلاء الكتَّاب بما ورد من إثبات مزايا العقل في القرآن. ولو قرأوا القرآن لعلموا أن الله عز وجل حين أمرنا بالتفكر في خلق السماوات والأرض، ما دفعنا إلى حَلَبَةِ الاستنتاج العقليِّ. إنما دفعنا لننبهر بعظمة آيات الله فنخضَع، فإذا جاءنا رسولٌ مُؤَيَّد بالمعجزات وبالوحي جلسنا مجلس التلميذ لنسمع. وما هلك من هلك من مكذبي الرسل إلا لأنهم وزنوا بعقولهم الكليلة ما جاء به الوحيُ.

هذا آثار الإرهاب الفكريِّ. ومع العقلانية الفلسفية العبثية الباطلة مستنداتُ الإثبات، ووثائقُ الصدق التي سلمَتْها حقائقُ العلوم الكونية للعقل العلميِّ. تستشهد بها العقلانية الباطلة زورا وبهتانا. ومما لا بد لنا منه أن نحرر عقولنا من خرافية المخرفين، سواءٌ منهم المكذبون بالدين من السذَّجِ وعبَدةِ الشيطان، والعابثون من الفلاسفة العقلانيين. ولا تضارُبَ بين العلم والإيمان، إنما يتضارب مع العلم استعمالُ العقل في غير ما خلق له، فإن صرفتَ العقل إلى ما تقع عليه حواسُّه ووسائله ورتبتَ له مهماته التجريبية الاختراعية، وسددته بالمنهاج الصالح جاء بالنتائج الباهرة، وإن أنت تركته يتخطى عتبة اختصاصه دخل في حُمَّى الهَذَيان، وأخذ يهرف بما لا يعرف، وجاءك بالطوامِّ.

الفطرة

ما وَعَى الوحْيَ إلا قلوبُ الأنبياء، وما وعى الإيمانَ إلا قلوبُ المؤمنين. والعقل إذ ذاك تابع خاضع، يسمع ويتعلم، ويتلقى الأوامر فيترجمها عملا. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ**

عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة، 97). نزله، أي القرآن. على قلبك، ما قال على عقلك وفكرك. وقال عز من قائل: **﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَان﴾** (المجادلة، 22). ما قال كتبه في عقولهم.

الترتيبُ الفطري للإنسان يرفع القلبَ إلى مقام الإمارة، ويجعل العقل وزيرا له، والحواسَّ خَدَمَةً. فإذا فسدت الفطرة تأمَّرَ العقل، وتمرد على القلب ومعانيه، وهذا فساد العقل الفلسفي العبثي. فإن فسدت الفطرةُ الفسادَ التاليَ للفساد الأول، المُلازمَ له، الناتِجَ عنه، تأمَّرَ الهوى بشهواته، وسخَّر العقل لأغراضه، وطرد معانيَ القلب.

قال الله تعالى: **﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾** (الروم، 30). قال عكرمة رحمه الله: «فطرةُ الله التي فطر الناس عليها: الإسلام». وقال مجاهد رحمه الله: «فطرةُ الله التي فطر الناس عليها: دين الإسلام. لا تبديل لخلق الله: لدين الله». وجاء مثلُ هذا القول عن الضحاك رحمه الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما. وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الفطرةَ الإخلاصُ، وأخرج الحكيم الترمذيُّ عن مكحول رحمهما الله، الفطرة: معرفةُ الله.

أخرج مسلم رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كل إنسان تلده أمُّه على الفطرة، وأبواه بعدُ يُهوِّدانه ويُنصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم**». الحديث.

وروى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**كل مولود يولَد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنتَجُ البهيمة. هل تحسون فيها من**

جدعاء؟ ثم يقول: واقرأوا إن شئتم: فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ».

يتضح من الآية الكريمة والحديثين وكلام المفسرين أن الفطرة التي خلق الله الناس عليها هي قَبولُ ألوهيته سبحانه والخضوعُ له، وهو معنى الدين. ويتضح أن هذه الفطرة تفسُد بتأثير التربية من كون الأبوين، إذا لم يكونا مسلمين فينشأ المولود في حجرهما على الفطرة، يهودان ويُنصران ويمجسان. هذا التحريفُ عن الدين الحنيف إفسادٌ للفطرة.

للفطرة في القرآن مفهوم خاص كما وضحنا، مخالف للمعنى الدارج للكلمة. المعنى الدارج يجعل الفطرة مرادفة للسذاجة والغفلة. والمعنى القرآنيُّ يعطيها مدلول استواء الخِلقة الباطنية للإنسان، المجبولةِ على الإيمان بالله جل وعلا ومعرفته. فمعنى سلامةِ الفطرة سلامةُ هذه الخلقة الباطنية، المعبَّرِ عنها بالقلب، واستعدادُها لتلقي الإيمان بالله عز وجل وبغيبه، وكفاءتُها لمعرفته سبحانه وتعالى على ما يتجلى لها ويعلمها.

فإذا شهد الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ووفَّى بحق هذه الشهادة، فقد دخل في الدين وكان مسلما، ثم إن عبد الله عز وجل وفتح الله قلبه للإيمان انتقل من مراتب الإسلام إلى مراتب الإيمان، ثم إن نوَّر الله ذلك القلب وحلاه بمعرفته ارتفع الإنسان إلى مقامات الإحسان والإيقان والكمال.

على هذه الدرجات الثلاث، إسلام فإيمان فإحسان، تترقى الفطرة من دركات الباطل والعبث إلى معارج الحق واليقين، من ظلمات المادية والشهوانية النفسية إلى نور الروحانية، من الجهل بالله جلت

عظمته إلى العلم به. هذا إن تنازل العقل المتفلسف الماديُّ الدهريُّ عن أنانيته، وقال مع القلب: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران، 191)، وزاح عن الطريق ليقوده القلبُ في مِعراجه، ونشِطَ فيما خُلِقَ له، يتلقى أوامر الشرع فينفذها، ويجتهد في الاستدلال والاستنباط، ويمهد أسباب المعاش، ويتفرج في خلق السماوات والأرض، ويستخرج كنوز السماوات والأرض، ويسخرها لخدمة الغاية التي من أجلها خُلق الإنسان.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

قال ابن عباس في شرح هذه الآية: إلا ليعبدوني: إلا ليعرفوني. ولا يغيب عن ذهن من له إلمام بالدين أن عبادَة المسلم دون عبادة المؤمن، وأن عبادة المحسن الذي يعبد الله كأنه يراه فوق عبادة المؤمن. وحديث جبريل في الموضوع مشهور.

عن معرفة الله تحدثْ يا طالبَ الحق. ظلام المادية دامسٌ، ووجه هذه الحضارة الصاخبة كالحٌ عابس. تقرأ سيرةَ سلفِنا الطاهر الذين حلَّقَتْ بهم العنايةُ الإلهية في سماء الوِلاية والأنوار، من جاهد منهم في الله حق جهاده لحق بالمهاجرين والأنصار، ومن جاهد نفسه وهواها تبوأ مقاعد المكرمين الأبرار. وأنت يا غريب المطلب في زمن يُتْلى فيه القرآن كبعض الآثار، يُتَّهَمُ طالبُ معرفة الله الآيسُ من نفسه تطلعاً إلى طريق الله بالبدعة والخرافة، أو الزندقة والسخافة. هل من يُسعفُكَ بنصيحة؟ هل من يدلك على بَلْسَمٍ لنفسك الجريحة؟

إن الدعوة إلى الله عز وجل هي لبُّ الأمر كله، هي وراثة النبوَّة. والدعوة إلى الله غير الدعوة إلى الإسلام وإن كانت الدعوة

إلى الإسلام بدايتها. وهي غير الدعوة للحل الإسلاميِّ في الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وإن كان الحل الإسلاميُّ والجهاد لفرضه ونصرته بعضَ مُهماتِها، حين تكون دعوةً على المنهاج النبويِّ، وحين يكون الدعاةُ ورثةً جامعين. وهي غيرُ الدعوة إلى الإيمان وحلاوته، والذكر وتلاوته، والروحانية وكرامتِها، وإن كان كل ذلك بعضَ خصائصها.

الدعوة إلى الله، الطريق إلى الله، السلوك إلى الله، الدَّلالة على الله. هذه عبارات تروج على ألسنة عوامِّ القلب لا مدلولَ لها. وكيف يثبت لها مدلول مع الغفلة عن الله. تعالى الله.

إن لب الأمر كله الدعوةُ إلى الله، وما خلق الله من سماوات وأرض، وبر وبحر، وجن وإنس، ودنيا وآخرة، وما بعث من رسل وأنبياء، وما اصطفى من أصفياء وأولياء، فإنما خلق وبعث، واصطفى الهداة، ليعبده خلقه، ويعرفه على ما ينبغي لكماله من سبقت له العناية. وإن لب هذا الكتاب هو هذا الفصل الذي نعرض فيه لهذه القضية الضائعة بين سيل الكتابة السطحية عن الإسلام والحل الإسلاميِّ.

السلوك إلى الله

بدأتْ هذه الصحوة الإسلامية، كما يعبِّرُ العالم كله، بانتشار الفكر الإسلاميِّ، وتوبة الشباب، وتربية محاضن الإيمان. هذه بركة عظيمة باركَنا الله عز وجل بها، تُؤْذِنُ بعودة المسلمين إلى عزة الخلافة في الأرض. وقد انتشر الحِسُّ الجهادي، والوعيُ الحركي، والخبرة السياسية بين هذا الشباب الصالح، وأقبلت هذه الأجيالُ من أشبال الإسلام تحفظ القرآن، وتلتهم بشوق كل حديث عن الإسلام ومجده،

والنبوءة وخبرها، والشريعة وضوابطها. لكن إن تحدثت عن معرفة الله، والسلوك إلى الله، حَمْلَقَتْ الأعينُ، وارتابت القلوب، وأحجمت العقول. ويشكو علماءُ الدعوة، وشباب الدعوة من الأزمة الإيمانية والفراغ الروحي. وفي ركن من أركان الزوايا أو على منبر المشيخة رجال يعلمون «علم السلوك» و«قواعد التصوف». ولا صلة بين هذين العالمين، ولا تُمْكِنُ، ولا تُفِيدُ. لأنَّ من يعيشُ «أزمة إيمان» و«فراغ روح» لن يجد في «علم السلوك» و«قواعد التصوف» علاجا، لأن السلوك عملٌ لا كلام. لا تفيد الصلةُ ولا تُمْكنُ، لأن المجاهد الناهض من هذا الشباب يسمع شيئا نُكُراً إذْ يراوده الشيخُ المُنـزَوي على ترك السياسة، والاشتغال بما يعنيه. ويفر الشباب، وتاراتٍ ينفُضُونَ أيديَهم من الدعوة المجاهدة ليقبَعوا في زهادة الخاملين مستجيبين لشيخ الزاوية.

فهل من مرجع إلى السنة المحمدية الجامعة بين الجهاد الأكبر جهادِ النفس، وبين الجهاد الأوسع جهادِ نُصرة الله في الأرض؟ «**المجاهد من جاهد نفسه**»[1] كما جاء في الحديث النبوي، فهل من سبيل لتتويج جهاد النفس بجهاد يُحيي الأمة ويمكن لدين الله في الأرض؟

هل من الممكن أن نخوض معارك إقامة الدولة الإسلاميَّة دون أن يفوتَنا السلوكُ إلى الله جل وعلا ومعرفته والتقرب إليه؟ فإننا نقرأ أن الصالحين كانوا في أزمان الفتنة يشتغلون بأنفسهم عن الناس، بل عن العالم أجمع.

فريق من الناس انتهى إلى تكفير كلِّ من تَحَدَّثَ عن معرفة الله، وعن عجائب القلب، وعن أنوار الذكر، وعن آداب السلوك، وفريق

(1) رواه الإمام أحمد والإمام الترمذي رحمهما الله عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن.

بَدَّع. وتُرادِفُ كلمةُ «صوفية» عند فريق كلمة «زندقة» و«فلسفة» و«شعوذة». وحَيْرةُ الصادقين بين رَغبةٍ في القلب مُتأجِّجَةٍ ونار النقد والتكفير التي تُصْلِي السابقين واللاحقين حُمَمَها لا تنتهي.

ليس هذا كتابَ جدلٍ ولا يتسع له. لكنْ دَعْ عنك تلك المصطلحات المفَرِّقَةَ، واتْرُكْ إلى المولى حسابَ أمة قد خلت من الخصام. فإنَّ السلوك إلى الله جلت عظمته لا يمر عن طريق انتصابك قاضيا على الناس، ولا عن طريق تعمقك في دراسة «علم السلوك»، ولا عن طريق دفاعك الذي لا يجدي ولا يليق بما ابتدعه أصحاب الأحوال باسم التصوف، وما جناهُ المتفلسفون على الطريق باسم التصوف، وما كفر وتزَنْدقَ أصحابُ الحلول والاتحاد والسحر والشعوذة.

دعْ المصطلحات، وتعال يشْكُ بعضُنا إلى بعض لواعجَ الشوق إلى الله، ونتواص بالحق وهو الله، ونتواص بالصبر مع الذين يريدون وجه الله. فإن لم تكن لي ولك إرادة، ولا شوق، ولا تعلق بالحق، فيا خُسْراه! وإن لم يكن لي ولك تصديق بأن من لم يجعل الله له نورا فماله من نور، وأن لله عبادا يتولاهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ويجعل لهم نورا، ويجعلهم نورا، وأن النور يقتبس من قلوب العارفين بالله بالصحبة، ومن ذكر الله عكوفا على بابه، ومن صدق الإرادة والطلب، ودوام الحضور والوقوف بالباب: إن لم يكن لي ولك شيء من ذلك فيا حسرة على العباد!

تعال أذكُرْ لك حديث القلب، علَّ الله عز وجل يجعلها كلمة غيث تصيب قلبا ناشفا متعطشا فتحصل في ميزاني ألقى الله بك في صحيفتي. فإنما يكتُب أمثالُنا إن كتبوا، ويتحدثون إن تحدثوا، لتبليغ كلمة الدعوة إلى الله، والسعي على بابه، واللحاق بأحبابه.

ارجعْ إلى كتاب الله وسنة رسوله، واقرأ حديث القلب ونورِه، والنفسِ وتزكيتِها، ومقام المقرَّبين من الله المحبوبين أوليائِه، وكون المرء على دين خليله، وكون الأعرابِ مسلمين لَمّا يَدخل الإيمان في قلوبهم، وكون المؤمنين أصحاب الميمنة لاحقين بالسابقين متخلفين عنهم.

قف عند هذا الحديث الذي رواه البخاري وغيرُه رحمهم الله وناطحه وطعن فيه، يا سبحانَ الله ! بعضُ الحفَّاظ المحدثين. استغربوه واستعجموه. ثم انظر هل يطير بك جناحُ التصديق ولهفةُ الشوق إلى تلك الآفاق. أم تتبلد النفس وكأنَّ حَلَبَةَ ﴿ **سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ (آل عمران، 133) و﴿ **سَابِقُوا** ﴾ الواردَ ذكرُها في القرآن، وُصِفَتْ لِلْخَبَرِ البارد يسقط بعد تِلاوَتِه، لاَ عَيْنٌ بَكَتْ ولا هِمَّةٌ انبعثت.

روى البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضتُه عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يَبْطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذَنَّه. وما تَرَدَّدْتُ عن شيء أنا فاعِلُه تَرَدُّدِي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مَسَاءتَهُ**».

فازت والله الرجالُ، صدَّقُوا فاقتحموا إلى الله العقبة، فوجدوا ما وعَدَ ربُّنا حقا. جلَّ الله وتبارك وتقدس.

معرفة الله عز وجل

ما يقعُ كلام الرجال من كلام رب العباد، ومن كلام النبوة؟ لكنَّ هذه النفوسَ البشرية يحركها التنافس مع الأقران ما لا يحركها

الخبرُ السماوي. لذلك أحمل إليك باقة من حديث القلب، وأنفاسا من أنفاس الطيبين، عسى يتحرك منا الساكن. أستدعي لوعظي ووعظك، وتبشيري وتبشيرك، وصيَّةَ عالِمَيْنِ جليلين عارِفَيْن مربِّيَيْن: الغزالي والجيلاني رحمهما الله.

قال حجة الإسلام رحمه الله: «فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمرٌ ربانيٌّ شريف، فارَقَ سائرَ جواهر العالم بهذه الخاصِّيَّة والشرف. وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾. إشارة إلى أن له خاصِّيةً تميَّزَ بها عن السماوات والأرض والجبال، وصار مُطيقا لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانةُ هي المعرفة والتوحيد. وقلبُ كل آدمي مستعدٌّ لحمل الأمانة ومُطيقٌ لها في الأصل. ولكن يُثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسبابُ التي ذكرناها».

قلت رحمني الله وإياك: مرجعُ الأسباب التي يذكرها أطباءُ القلوب، مثالُ الغزالي رحمه الله، هِيَ هوى النفس، والعبودية له، العائقة عن العبودية لله رب العالمين. تصفُ لك الكتب هذه الأمراضَ العائقة. لكن إن لم تلق طبيبا يعالجُك من صيدلية الكتاب والسنة حتى يُشْفَى قلبُك، زدت إلى الأسباب سبباً بالجَوَلان بين الأوراق، يُوهمك تكديس النصوص والاطلاعُ أنك في غِنَى عن الولي المرشد الذي ذكره الله في القرآن. قال عز من قائل: ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾ (الكهف، 17). وكيفما قلَّبْتَ هذه الآية، وقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين، فلن تجد مهرباً من فهم أنَّ الله عز وجل قَرَنَ هداية من شاء هدايتَه بإرشاد ولي.

ما تُغني الطروسُ ! إنما يُتَقَرَّبُ إلى الله عز وجل بالفرض والنفل، ومجاهدة الهوى، بتوجيه قلب نير. قال أبو حامد رحمه الله: «اعلم أنَّ ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنَّفَه المصنفون، والبحثِ عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريقُ تقديم المجاهدة، ومحوُ الصفات المذمومة، وقطعُ العلائق كلِّها، والإقبال بكُنْهِ الهمَّة على الله تعالى. ومهما حصل ذلك كان الله هو المتوليِّ لقلب عبده، والمتكفلَ له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النورُ في القلب، وانشرح الصدرُ، وانكشف له سرُّ الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجابُ الغِرَّةِ بلُطفِ الرحمة، وتلألأت فيه حقائقُ الأمورِ الإلهية. فليس على العبد إلا الاستعدادُ بالتصفية المجردة، وإحضارُ الهمة، مع الإرادة الصادقة، والتعطُّشِ التام، والترَصُّدِ بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة. فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النورُ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهدِ في الدنيا، والتبري من علائقها (قلت: لا يعني هذا الهروب من ساحة الجهاد، لكن يعني إخلاء القلب من كلِّ ما سوى الله والهجرة التامة إليه)، وتفريغ القلب من شواغلها (قلت: لا يعني تركَ السعي على العيال والكد من أجل صلاح البلاد والعباد)، والإقبال بكُنْهِ الهمة على الله تعالى».

جعلني الله وإياك ممن تولاهم، وأفاض على قلوبهم رحمته. اسمع حديث الإمام حجة الإسلام رحمه الله عن فتح الله عز وجل لأوليائه كيف يكون. لم ينْسُبْ ذلك إلى نفسه، لكنَّ إخبارَه إخبارُ مجرِّب، ومن خَلْف الأسْطارِ تقرأ شكر أبي حامد وتحدُّثَهُ بنعمة مولاه. قال: «إذا صدقت إرادتُه (يعني السالكَ إلى الله) وصفَتْ هِمتُه، وحسُنَتْ

مواظبتُه، فلمْ تجاذبْه شهواتُه، ولم يشْغَلْه حديثُ النفس بعلائق الدنيا، تلمعُ لوامع الحق في قلبه. ويكون في ابتدائه كالبرْقِ الخاطف لا يثْبُتُ، ثم يعود. وقد يتأخر. وإن عاد فقد يثْبُتُ. وقد يكون مختطَفاً. وإن ثبت قد يطولُ ثباتُه، وقد لا يطول. وقد يتظاهر أمثالُه على التلاحق. وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله فيه لا تُحصَرُ. كما لا يُحْصَى تفاوُت خَلْقهم وأخلاقهم». [1]

واقرأ الشواهد الشرعية على ما قدمه الإمام الحجة ليطمئن قلبُك فتكون من المسدَّدين الذين لا يقبلون تزكيةً إلا بشاهدين من الكتاب والسنة.

العارف يُعْطَى نُورا

قال شيخ المشايخ عبد القادر الجيلاني قدّس الله سره: «والعارفُ المقرَّبُ يُعطَى أيضا نوراً يرى به قُرْبَه من ربه عز وجل، ويرى قربَ ربه عز وجل من قلبه. يرى أرواح الملائكة والنبيئين، وقلوبَ الصديقين وأرواحَهم. يرى أحوالَهم ومقاماتِهم. كلُّ هذا في سُوَيْداءِ قلبه وصفاء سِرِّهِ. هو أبدا في فرحه مع ربه عز وجل». [2]

الشيخ عبد القادر رحمه الله إمامٌ أجمعتْ الأمةُ على جلالة قدره. ولِمَنْ يتفرج على معارك الجدل، لا يدري ما وراء النقاش، نشير أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أعطى شهادة عاطرة بحسن السلوك لهذا الإمام. اقرأ مديحه إياه بما لا ينتهي من التعظيم في الجزء العاشر من الفتاوي. يا مقلدين !

(1) الإحياء، ج 3.
(2) «الفتح الرباني»، المجلس 59.

يَقظةُ القلب

قال عبد القادر رحمه الله: «فإذا ترقت درجة هذا العبد من الإسلام إلى الإيمان، من الإيمان إلى الإيقان، من الإيقان إلى المعرفة، من المعرفة إلى العلم، من العلم إلى المحبة، من المحبة إلى المحبوبية، من طلبه (أي الله عز وجل) إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفَلَ لم يُتْرَكْ، وإذا نسيَ ذُكِّرَ، وإذا نام نُبِّهَ، وإذا غَفَلَ أُوقِظَ، وإذا وَلَّى أُقْبِلَ (به)، وإذا سكتَ نُطِّق. فلا يزال أبدا مستيقظا صافيا لأنه قد صفت آنيةُ قلبه، يرى من ظاهرها باطنها. ورِثَ اليقظةَ من نبيِّه صلى الله عليه وسلم: كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان يرى من ورائه كما يرى من أمامه. كُلُّ أحد يقظتُه على قدر حاله». [3]

«هذا القلب إذا وصل إلى الحق عز وجل صار مُمكَّناً من قربه ومناجاته، آمنا عنده، فلا يتمنى الرجوع عنه إلى غيره. ووصولُ القلب إلى هذا المقام بأداء الفرائِض، والصبر عن الحرام والشهوات، لا بالهوى والشهوة. باستعمال الورع الشافي، والزُّهد الكامل، وهو تركُ ما سِوى الله عز وجل، ومخالفةُ النفس والهوى والشيطان، وطهارةُ القلب من الخلق في الجملة (أي بالكلية)، واستواءُ الحمد والذم، والعطاءِ والمنع، والهَجْر والمدحِ. أولُ هذا الأمر شهادةُ أن لا إله إلا الله، وانتهاؤُه استواءُ الحَجَرِ والمَدَرِ، والحَمْدِ والذَّم، والسَّقَم والعافية، والغِنى والفقر، وإقبالِ الدنيا وإدبارها. من صح له هذا ماتت نفسُه وهواه، وانخمدت ثائرةُ طبعه، وذَلَّ شيطانُه له. تُحتَقَرُ الدنيا وأربابُها عند

(3) «الفتح الرباني»، المجلس 45.

قلبه، وتَعْظُمُ الآخرةُ وأربابُها عنده. ثم يُعرِض عنهما ويُقبل على مولاه عز وجل. يصيرُ لقلبه درْبٌ في وسط الخلق، يجوز فيه إلى الحق».[1]

اهْدَأْ أخي. فإنَّ الشيخ رحمه الله عندما يخبر بحال القلب المتعلِّقِ بمولاه، المعرضِ عن الدنيا والآخرة معا، لا يقصدُ تصغير هذه الدارِ دارِ الأعمال، ولا تلكَ الآخرةِ دارِ الجزاء. إنما يقصد أنَّ همة العبد تخرِق الدنيا والآخرةَ لا يحجبها شيء من أمرهما دون الله تبارك وتعالى. وتأمَّلْ لو أنَّ جند الله المجاهدين لإعلاء كلمة الله كانت الدنيا عندَهم مُحتقَرَةً كما كانت عند سادة العارفين الأئمةِ وهم الصحابةُ رضي الله عنهم كيف تحلو لهم الشهادةُ في سبيل الله، وكيف يساعدُ اطمئنانُ قلوبهم، وهدوءُ ثائرةِ طبعهم، على خوض معارك القومة، وجهادِ البناء، وإمامةِ الأمة، وتربيتها، وقيادتها. لا تعْكِسْ القضيةَ فتجعل معرفة العبد ربه وسيلة وهي غاية الغايات. لكنَّ مصير المؤمنين من حيثُ ارتفاعُ الهمة والتجردُ لله عز وجل مرتبط ارتباطا وثيقا باستجلاب نُصرةِ الله عز وجل الذي يحارِبُ من آذى أولياءه، مرتبط بنجاح القومة وما قبلها وما بعدها.

أنت قَفَصٌ بلا طائر !

استعملَ الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أسلوبَ التقريع في مواعظه، وهو أسلوب انفردَ به، وكأنَّهُ رحمه الله من شدة حرصه على إيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين لم يجِدْ أجْدى وأبلغَ من الكلمة القارعة المُؤْلمة تَتلوها الكلمةُ المبشرة. وهذا هو الأسلوبُ القرآني النّبويُّ بجانبيه، جانب النِّذارة، وجانب البِشارة. نورد هنا هذه

(1) «الفتح الرباني»، المجلس 60.

الصيحاتِ عل الله الهادي الكريم الوهاب يُجَلِّي بها عن قلوبنا ما يضعه الهوى والشيطان، وفتنةُ العصر وصَخَبُه، وهوَسُ الناس ولَجَاجُهم، من حواجِزَ بيننا وبينَ ربنا القريب المُجيب. نوردها لأنها تصف الفراغَ الروحيَّ، والأزمَة الإيمانية، التي تعاني منها الصحوةُ الإسلامية، ثم تعطي العلاج.

قال رحمه الله: «يا غُلام ! أراك قليل المعرفة بالله عز وجل وبرسوله! قليل المعرفةِ بأولياء الله عز وجل وأبدالِ أنبيائه وخلفائه في خلقه! أنتَ خالٍ من مَعْنىً! أنت قفَصٌ بلا طائر! بيْتٌ فارغٌ خَرابٌ! شجرة قد يَبِسَتْ وتناثَرَ وَرَقُها! عمارةُ قلب العبد بالإسلام، ثم بالتحقيق في حقيقته وهو الاستسلام. سَلِّمْ كلك إلى الحق عز وجل يُسَلِّمْ لك نفسَك وغيرَك. تَخرُجْ بقلبك منك ومن الخلق. تقفْ بين يديه عُريانا عنك وعنهم.(...) كل من تجرد عما سوى الحق عز وجل، ووقف بين يده على أقدام قلبه وسِرِّه، فقد قال بلسانِ الحال كما قال موسى عليه السلام: ﴿**وعَجِلْتُ إليك رب لِتَرضى**﴾. عَزَلتُ دنياي وآخرتي، وجميعَ الخلق. قطعتُ الأسبابَ، وخلعتُ الأربابَ، وجئتُ إليكَ مستعجلا لِتَرْضَى عني، وتغفِرَ لي وُقوفي معهم من قبلُ. يا جاهلُ، ما لك ولهذا ! أنتَ عبدُ نفسِك ودنياكَ وهواك ! أنت عبدُ الخلق مُشْرِكٌ بهم ! لأنك تراهم في الضَّرِّ والنفع، وأنت عبدُ الجنة ترجو دخولَها (يعني بعملك)، وأنتَ عبدُ النار تخافُ من دخولها (يعني معتمدا على طاعتك). أينَ أنتم كلّكم من مقلب القلوب والأبصار القائِل للشيء ﴿**كنْ فيَكُون**﴾؟[2]

«أينَ أنت من عباد الله عز وجل الذين تحققت لهم العبوديةُ والرضا بأفعاله ! الآفاتُ تنزل عليهم وهم قُعودٌ كالجبال الرواسي.(...)

(2) «الفتح الرباني» المجلس 17.

تركوا الأجسادَ لِلْبلايا، وطاروا إلى الحق عز وجل بقلوبهم. فهم خِيَمٌ بلا رجال، أقفاصٌ بلا طيور (طيورهم حلقت إلى مولاها وطير ذاك الغافل مات فشتان بين الطيور). أرواحهم عنده، وأجسادُهم بين يديه. يا معرضين عن ربهم عز وجل ! يا مستوحشين منه ! تقدموا إلَيَّ حتى أصْلِحَ بينكم وبينه ! أسألهُ فيكم ! آخذُ لكم الأمْنَ منه ! أتضرعُ بين يديه حتى يَهَبَ لكم حقوقَه التي له عليكم. اللهم رُدَّنَا إليك، وأوقِفْنا على بابك، اجعلنا لك وفيك ومعك. أرْضِنا بخدمتك. اجعل أخذَنا وعطاءنا لك. طهِّرْ بواطننا عن غيرك. لا تَرَنا حيثُ نهيتَنا. لا تفْقِدْنا حيثُ أمرتَنا. لا تجعل ظواهرنا في معاصيك وبواطننا في الشِّرْك بك. خُذنا من نفوسنا إليك. اجعلْ كلَّنا لك، أغْنيَاءَ بك عن غيرك. نبهنا من الغفلة عنك. أرِدْنا بطاعتك ومناجاتك. لَذِّذْ قلوبنا وأسْرارنا بقُربك».[1]

حب الرياسة

«القَدَمُ الأول ما صَحَّت لك، كيف تصل إلى الثانية؟ الإسلام ما صح لك، فكيف تصل إلى الإيمان؟ الإيمان ما صح لك، فكيف تصل إلى الإيقان؟ الإيقان ما صح لك، فكيف تصل إلى المعرفة والوِلاية؟ كُنْ عاقلا! ما أنت على شيء! كلُّ منكم يطلُب الريَاسَةَ على الخلق بلا آلةٍ فيه ! إنما تصح الرياسةُ على الخلق بعد الزُّهْدِ فيهم، وفي الدنيا، والنفس، والهوى، والطبع، والإرادة. الرياسة من السماءِ تنـزلُ لا من الأرض. (يخاطبُ هنا المتمشيخين المتصدرين لتربية المريدين بهوى أنفسهم). الوِلاية من الحق عز وجل لا من الخلق. كنْ أبدا تابعا لا متبوعا، صاحبا لا مصحوبا (أيةُ نصائح هذه لنا في

(1) «الفتح الرباني»، المجلس 49.

تنافُسنا على القيادة وزمامُ أنفسنا لا نملِكُه !). ارْضَ بالذل والخمول (يقصد الذلة على المؤمنين وعدم حب الظهور)، فإن كان لك عند الحق عز وجل ضدُّ ذلك فهو يجيئك في وقته. عليك بالتسليم والتفويض، وترْكِ حَوْلِك وقوتك، واعتراضِك، وشرْكِكَ بالخلق وبنفسك. عليك بصحبة العبودية، وهي امتثالُ الأمر، والانتهاءُ عن النهي، والصبرُ على الآفاتِ. أساس هذا الأمر التوحيدُ والثباتُ على الأعمال الصالحة!

«الأساسُ ما أحكمتَه، فكيف تبني! النية ما صحت لك، كيف تتكلم! سكوتُك ما تمَّ لك، كيف تنطق! (...) يا جُهَّالاً بنفوسهم وطباعهم ودنياهم وأُخْراهم! ويْحكم اخْرَسوا واسكتوا حتى تُنْطَقُوا وتُنْعَشُوا وتُقاموا أو تجيئوا! مَن غلب علمُه هواه فذاك العلمُ النافعُ. كيف لا يكون نافعاً وقد أغلَقَ بابَ الخلق، وفتح باب الحق عز وجل الذي هو البابُ الأكبرُ! إذا صح هذا الغَلْق والفتح لعبدٍ ذهبت عنه الزَّحْمَةُ، وجاءتْه الخَلوة. جاءت الخِلَعُ إلى قلبه والنُّثارُ عليه. جاءته المفاتيحُ. تناثر عنه القُشور وبَقِيَ اللُّبُّ. انسد طريق الهوة وانغلب وانقهر، وانفتحت الطريقُ إلى الحق عز وجل، وظهرت الجادَّةُ عليه، جادَّةُ مُرادِهِ التي هي جادةُ من تقدم من الأنبياء والمرسلين والأولياء.

«ما تلك الجادَّةُ؟ جادةُ الصفاء بلا كَدر، جادةُ التوحيد بلا شِرك، جادةُ الاستسلام (يعني للقدر) بلا مُنازعة، جادةُ الصدقِ بلا كذب، جادةُ الحق عز وجل بلا خلق، جادةُ المسبِّب بلا سبب. هذه الجادَّةُ التي عليها أُمَراءُ الدين وسلاطينُ المعرفة الذين هم رجالُ الحق عز وجل وأصفياؤُه ونجباؤُه الناصرون لدينه المعادُون فيه والمحِبُّون فيه.

«ويحك ! كيف تدَّعي طريقَ هؤلاء القوم وأنت مشرك بك وبغيرك من الخلق؟ لا إيمان لك وعلى وجه الأرض من تخافه وترجوه ! لا زهدَ لك وفي الدنيا شيء تريده (من الشهوات) ! لا توحيد لك وأنْتَ ترى

غيره (سبحانه) في طريقك إليه ! العارِفُ غريبٌ في الدنيا والآخرة وزاهدٌ فيهما وفيما سوى الحق عز وجل في الجُملة (أي بالكلية) لا رغْبَة لهُ في غيره».[1]

اقْلِبْ دَوْلَةَ نَفْسِك

«توبوا بقلوبكم وبألسنتكم. التوبةُ قلبُ دولة! تقْلِبُ دَوْلَةَ نفسك، وهواك، وشيطانك، وأقرانِك السوءِ. إذا تبت قلَبْتَ سمعك وبصرك ولسانك وقلبك وجميعَ جوارحك. وتُصَفِّي طعامَك وشرابَك من كدر الحرام والشُّبْهة، وتتورَّعُ في معيشتك وبَيْعك وشرائك. وتجعل كلَّ همك مولاك عز وجل. تُزيلُ العادةَ، وتترك مكانها العبادَة. تُزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة. ثم تتحقق في الحقيقة مع صحة الشريعة، لأنَّ كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة. فإذا تحقق لك هذا جاءك الفَناءُ عن الأخلاق المذمومة، عن رؤية سائر الخلق. فحينئذ يكون ظاهرُك محفوظا، وباطنُك بربك مشغولا. فإذا تم لك هذا فلو جاءتك الدنيا بحذافيرها، ومكَّنَتْكَ منها، وتبِعكَ الخلقُ بأجمعهم، مَنْ تقدم ومن تأخر، لم يضرك ذلك، ولم يغَيِّرْك عن باب مولاك عز وجل، لأنك قائم معه، مُقبلٌ عليه، مشغولٌ به، ناظرٌ إلى جلاله وجماله».[2]

الكتاب والسنة

«طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحَيْ الكتاب والسنة. ادخل عليه ويدُك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم. اجعله وزيرَك ومعلِّمك. دع يده

(1) «الفتح الرباني» المجلس 54.
(2) نفس المصدر المجلس 23.

تُزَيِّنُكَ وتُمَشِّطُكَ وتعرِضك عليه. هو الحاكمُ بين الأرواح، المُربي للمريدين، جَهْبَذُ المُرادين، أميرُ الصالحين، قَسَّامُ الأحوال والمقامات بينهم. لأن الحق عز وجل فوَّضَ ذلك إليه، جعله أميرَ الكل».[3]

«لا تبتدعْ وتُحْدِثْ في دين الله عز وجل شيئا لم يَكُنْ. اتبَعْ الشاهدين العدلين: الكتاب والسنةَ. فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل. وأما إن كنتَ مبتدعا فشاهداك عقلُك وهواك. فلا جَرَمَ يوصلانك إلى النار، ويُلحقانك بفرعون وهامانَ وجنودِهما».[4]

«إذا لم يبق بينك وبين الله حجابٌ من حيثُ قلبُك قدَّرَكَ على التكوين، وأطْلَعَكَ عل خزائِن سره، وأطعَمَكَ طعام فضله، وسقاك شرابَ الأنسِ، وأقعَدَكَ على مائدة القُرْبِ. وكلُّ هذا ثمرةُ العمل بالكتاب والسنة. اعمل بهما، ولا تخرُجْ عنهما حتى يأتِيَك صاحبُ العلم الله عز وجل فيأخُذَك إليه».[5]

بئر الغفلة

«وأنت يا غافلُ! تبارزُ الحق عز وجل بالمعصية والمخالفة، ثم تأمَنُهُ! عن قريب ينقلب أمنُك خوفا، سَعَتُك ضِيقاً، عافيتُك مَرَضاً، عزُّك ذُلا، رَفْعُك وَضعا، غِناك فقرا. اعلم أن أمنَك يومَ القيامة من عذاب الله عز وجل على قدر خوفك منه في الدنيا. وخوفُك في الآخرة على قدر أمنِك في الدنيا. ولكنكم غائصون في بحر الدنيا، ساكنون في قعر بئر الغفلة. فلا جرم عيشُكم كعيش البهائم. لا تعرفون سوى الأكلِ والشُّرْب، والنكاح والنوم. أحوالُكم ظاهرةٌ (أي مخالفة) عن أربابِ

(3) «الفتح الرباني» المجلس 44.
(4) نفس المصدر المجلس 47.
(5) نفس المصدر المجلس 51.

القلوب. الحرصُ على الدنيا وجمعُها، وطلب الأرزاق، قد حجبكم عن طريق الحق عز وجل وعن بابه».[1]

ارفع الهمة

«غايةُ همة المؤمن العارفِ العالم بابُ قربه من الحق عز وجل، وأنْ يصلَ قلبُه إلى الله في الدنيا قبل الآخرة. القرب من الحق عز وجل غايةُ خطواتِ القلب ومَسَارَةِ السِّرِّ. إني أراك في قيامٍ وقعودٍ، وركوعٍ وسجودٍ، وسهرٍ وتعَبٍ، وقلبُكَ لا يَبْرَحُ من مكانه، ولا يخْرُجُ من بيت وجوده، ولا يتحول عن عادته. اصدُق في طلَب مولاك عز وجل، وقد أغناك صدقُك عن كثيرٍ من التعب. انْقُرْ بيضةَ وُجودك بمنقار صِدقك، وانقُضْ حيطانَ رؤيتِك للخلق والتَقَيُّدِ بهم بمعاول الإخلاص وتوحيدك. اكسِرْ قفص طلبك للأشياء بِيَدِ زُهْدِكَ فيها. وطِر بقلبك حتى تقعَ على ساحل بحر قُربِك من ربك عز وجل. فحينئذ يأتيك مَلاَّحُ السابقة، ومعه سفينةُ العِناية، فيأخذك ويُعَبِّرُكَ إلى ربك عز وجل. هذه الدنيا بحرٌ وإيمانك سفينتها».[2]

«إن الله عز وجل يُعطيك على قدر همتك وصدقك وإخلاصك. اجتهد وتعَرَّضْ واطلُب، فإنَّ منك لا يجيء شيء، ولا بد منك. تكلَّفْ في تحصيل الأعمال الصالحة كما تتكلفُ في الرزق. الشيطانُ يلعب بعوامِّ الناس كما يلعب الفارِسُ بكرته، يديرُ أحدَهُم فيما يشاء كما يدير أحدُكُم دابَّتَهُ فيما يشاء».[3]

(1) «الفتح الرباني»، المجلس 49.
(2) نفس المصدر المجلس 15.
(3) نفس المصدر المجلس 40.

أَحِبَّ مَن يحبك

«كيف تُفْلح وقد تركتَ يد نفسك وهواك وطبعك وشيطانك على عينيْ قلبك ! نَحِّ هذه الأيديَ وقد رأيت الأشياءَ كما هي. نحِّ نَفْسَكَ بمجاهدتك لها ومخالفتك. نحِّ يد هواك وطبعِك وشيطانِك فإنك تجِدُه. نحِّ هذه الأيْديَ وقد ارتفعت الحُجُبُ بينك وبين ربك عز وجل،فتنظر به ما سواه.ترى نفسك وترى غيرَك. ترى عيوبَك فتَجْتنِبُها، وترى عيوب غيرك فتهرُبُ منها. فإذا تم لك هذا قرَّبَكَ وأعطاك ما لا عينٌ رأت، ولا أذْنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر. يُجَدِّدُ سَمْعَ قلبك وسِرِّكَ وبَصَرَهما، ويُصَحِّحُهُما، ويكْسوهما، ويخلَعُ عليهما خِلَعَ كرامته. يُولِيكَ ولايته، ويُعينك، ويُسَلْطِنُكَ، ويُمَلكك في سائر خلقه. يُسَرِّحُكَ، يجعلُكَ حارسَ قلبك. ويُخْدِمُ لَك ملائكتَه. ويُريكَ أرواحَ أنبيائِه ورُسُلِه، فلا يخفَى عليك من الخلق خافيةٌ. يا غلام ! اطلُب هذا المقامَ واجعلْه همَّك. ودَعْ الاشتغال بطلب الدنيا، فإنها لا تُشْبِعُك. وما سِوى الحق عز وجل لا يُشبعك. فاشتغل به فإنه يشبعك. إذا حصلَ لك حصَل الغنى دنيا وآخرة. يا غافلا رِدْ مَنْ يريدك ! اطلب مَن يطلبك ! أحِبَّ مَن يُحبك ! اشتَقْ إلى من يشتاق إليك ! أما سمعت قوله عز وجل: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾؟».[4]

اصحب شيخا مرشدا

مفتاح الطريق وضمانُ السلوك صحبةُ رجل، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «فاعلم أنه ينبغي للسالك شَيخٌ مرشد مرب ليُخْرِج الأخلاقَ

(4) «الفتح الرباني» المجلس 37.

السيئةَ منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقا حسنا. ومعنَى التربية يُشبه فعل الفَلاَّح الذي يَقْلَعُ الشوك.(...) ولا بد للسالك من شَيْخ يؤدِّبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلَّف الخلفاء في مكانه حتى يُرشدوا إلى الله تعالى».[1]

جزى الله هؤلاء الأئمة خيرا، فما تركوا من النصح شيئا إذ نصحونا بإلحاح على هذا الذي تأباه النفس وتنفِرُ منه أشدَّ النفور، وهو أن تتْبَعَ رجلا وتُحَكِّمَه في نفسك ليربِّيَك. النفسُ لا تَرضى لكبريائها. لكن من تداركه الله عز وجل بالشوق إليه، حتى تهونَ الدنيا في عينه، وتذِلَّ نفسه، يفعلُ كما فعلوا، كما فعل الغزاليُّ رحمه الله حين انخلع عن المنصب والجاه وخرج يبحث عن رجل. اقرأ كتابه «المنقذ من الضلال».

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «اصحبوا شيخا عالما بحكم الله عز وجل وعلمه، يدلكم عليه. من لا يَرَى المفلحَ لا يُفلح. من لا يَصْحَبُ العلماءَ العُمَّالَ فهو من نَبْضِ التراب. لا دليلَ له! لا أُمَّ له! اصحبوا من له صحبة مع الحق عز وجل. كلُّ واحد منكم إذا جنَّه الليل فليَقُمْ وليتوضأ وليُصَلِّ ركعتين ويقُلْ: يا رَبِّ دُلَّني على عبد من عبادك الصالحين المقرَّبين، حتى يدُلَّني عليك، ويُعَرِّفَني طريقَك. السببُ لا بدَّ منه. كان الله عز وجل قادرا على أن يَهْديَ إليه بلا أنبياءَ. (...) فتِّشْ على من يكون مرآةً لوجه دينك.(...) إيشْ هذا الهَوَسُ! تقول: ما أحتاج إلى مَنْ يُعَلِّمُني!».[2]

«أنت ميِّتُ القلب وصحبتُكَ أيْضاً لموتى القلوب! عليك بالأحياء النجباءِ البُدَلاءِ! أنتَ قَبْرٌ تأتي قبراً مَثَلَك! مَيِّتٌ تأتي ميتا مَثَلَك! أَنْتَ

(1) «أيها الولد المحب»، ص: 63.

(2) «الفتح الرباني»، المجلس 61.

زَمِنٌ يقودُك زَمِنٌ مثلُك! أعمى يقودُك أعْمَى مثلُك! اصحب المؤمنين الموقنين الصالحين. واصبر على كلامهم، واقبله، واعمل به وقد أفلحت. اسمع قولَ الشيوخ واعْمَلْ به، واحترمهم إن أردت الفلاح. كان لي شيخٌ كلَّما أشكل عليَّ وخطر بقلبي يُحَدِّثُني به ولا يُحْوجُني إلى الكلام، فكان ذلك لاحترامي وحُسْن أدَبي معه، ما صحبت قط الشيوخَ إلا بالاحترام وحسن الأدب».[3]

(3) «الفتح الرباني»، المجلس 57.

الفصل السابع

التربية والتعليم

- تربية تثمر معرفةَ الله عز وجل
- شرفُ المعرفة
- إعادة تنظيم التربية والتعليم
- القرآن هو العلم
- جيل قرآني
- تعليم القرآن
- أعظم شعائر الدين
- السنة بنت القرآن
- حِلَقُ المَسْجِدِ
- مدارس لتربية الشخصية الإسلامية
- مدارس حية بالعلم والعمل
- بُناةٌ خبراء
- اللغة العربية الشريفة
- آداب التعلم
- التربية الجمالية

تربية تثمر معرفةَ الله عز وجل

التربية في عُرف الثقافة المادِّية لا يعدو هدفُها إعدادَ «المواطن الصالح، والعامل المنتج، والاختصاصيَّ الكفء». لا تعدو آفاقَ الدنيا، ولا تَخرجُ من بئر الغفلة عن الله. تربيةٌ خُلُقِيَّةٌ ليكونَ المواطن مسالما فلا تحدث الفوضى في المجتمع. تربيةٌ علمية أدبية لتنمية «الثروة» الفكرية والقدرة التكنولوجية في المجتمع. تربيةٌ بدنية وفنية لازدهار الشخصية البشرية. ولا خبرَ عن الآخرة والقلب ومعنى الإنسان وغايته.

نُجْمِلُ في بداية هذا الفصل الغايةَ من التربية في دولة القرآن في كلمةٍ وهي: إيقاظ قلب الإنسان وعقله بالعلم والإيمان ليكون عبدا لله. تفتُّح العقل على علم الشريعة وعلوم الكون وسيلةٌ لمعرفة الواجب الديني والتعامل مع الخلق ومع الأشياء، لكنَّ التعاملَ مع الخالق، ونَيْلَ مواهبه ورضاه، لا يصحُّ إلا بسلوك وتربية ينفتح القلب على إثْرِهِما لمعرفة الله عز وجل. وإن الله تعالى جعل الناس أصنافا، ورفع بعضَهم فوق بعض درجاتٍ. فمِن الناس من لا استعداد له أن يجاوز عتَبَةَ الإسلام، فانشراح صدره للإسلام يَكفي في حقه، لكنَّ من له استعداد للإيمان وتطلُّعٌ للإحسان ثم لا يجد تشجيعا لطلبه يكون حرمانُه ضياعا له في الدنيا والآخرة، وفقرا لأمته المحتاجة إلى صفوة من المؤمنين الموقنين احتياجها، بل أشدَّ، إلى صفوة من العلماء حملة الشريعة والخبراءِ فرسان العلوم الكونية.

في دولة القرآن ينبغي أن يُحْسَبُ ربحُ الأمة وفوزُها بحساب من فيها من العلماء العاملين المحسنين أصحاب القلوب النيرة. ثم

بعد ذلك يُحْسَبُ من معها من رجال الخبرة العملية. فإن اجتمعت في الرجل الواحد كفاءتا القلب والعقل، كفاءتا الإيمان والعلم فذاك هو المطلوب: أقوياءُ أمناء.

يتحدث الإمام الغزاليُّ عن العالمِ العامِل النيِّر القلبِ فيقول: «يكون أكثرَ اهتمامه بعلم الباطِن ومُراقبةَ القلب، ومعرفةِ طريق الآخرة، وسلوكه، وصدقِ الرجاء في انكشاف ذلك من المُجَاهدة والمراقبة. فإن المجاهدة تُفضي إلى المشاهدة. ودقائقُ علوم القلب تتفجر بها ينابيعُ الحكمة من القلب. وأما الكتُبُ والتعليم فلا تَفِي بذلك. بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدةِ والمراقبةِ ومباشرةِ الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوسِ مع الله عز وجل في الخلوة، مع حضور القلب بصافي الفكرة، والانقطاعِ إلى الله تعالى عما سواه. فذلك مفتاحُ الإلهام ومنبعُ الكشف. فكم من متعلم طال تعلُّمُه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة».[1]

في دولة القرآن نحتاج إلى علماءَ مجتهدين في الشريعة، نحتاجُ إلى قضاة فقهاء، نحتاج إلى مُفتين نزهاء، نحتاج إلى مهندسين خبراء، نحتاج إلى تقنيين صانعين، نحتاج إلى أطباء لعلاج الأجسام. لكن حاجتَنا إلى أطبَّاءِ النفوس، إلى الربانيين رجال الدعوة، إلى اختصاصيين في أمراض القلوب المعنوية لا تقل عن تلك الحاجات. وكما أُهْمِلَ علماءُ الشريعة، وأُنْزلوا إلى مراتبِ الأعوان في دول العض والجبر، أُقْصِيَ الربانيون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، القائمون بالقسط، العارفون بالله، عن الساحة. كان كلٌّ منهم يفتح عيادةً يداوي فيها مَن جُرِحَ قلبُه انكساراً من ذنوبه وذلة لربه، بعيدا عن المجتمع، وعن

(1) الإحياء، ج1، ص: 63.

السلطان، وعن مؤسسات الدولة. ففي دولة القرآن ودعوة القرآن تُعطاهم الصدارة جنبا لجنب: العارف المربي والعالم المجتهد شقيقان، يؤديان نفس المهمة، معترفاً بهما، بل مرفوعَيْنِ فوق الرأس، مفتحة لهما الأبوابُ. في بيوت الله، ومدارسِ الأمة، ومعاهدِها، وجامعاتِها، تكونُ مصحَّةُ التربية القلبية وصيدلية الشريعة متجاورتين متكاملتين.

مكان الواعظ الرقيق القلب، المؤثر بالقُدوة، الدائِم الذكر، لا يمكن أن يشغله الفقيه، ولا الخطيبُ، ولا المنظم. الكمالُ يتمثل في جمع الرجل الواحِد كلَّ هذه الخصالِ، فيكونُ عندئذ أحقَّ من غيره بالإمارة في تنظيم الجماعة، وإدارة المدرسة، والمعهد، والكلية، والجامعة، والمسجد، وكلِّ مرافق الدعوة. فإن لم يكن الرجلُ الجامعُ فالمربي الواعظ له الأحقية بربانيته مع مراعاة الحد الأدنى من الفقه والقدرة على التنظيم.

شرفُ المعرفة

للعارفين عند الله عز وجل الشرفُ. وبمعرفته عز وجل استحقوا التشريف. عِلْمُهُمْ هو العلم، ووِراثتُهم للنبوة تتجاوز روايةَ النصوص والأخبار إلى التخلق بخلُق الأبرار، والتحلِّي بالأسرارِ والأنوار. ليس ثمةَ شهادةٌ بشريةٌ تُدْفَعُ لهم، لكنَّ حَمَلَةَ الدبلومات، والدكتوراتِ، والإجازات، بالنسبة إليهم هواءٌ. فهذا الشرفُ العظيمُ المخوِّلُ لرئاسةٍ كبيرة، وهيْبَةٍ عظيمة في النفوس لا تزال تشرئب إليه أعناقُ الأدْعياء، يُمَوِّهون على الناس برياء المظهر، وانتفاخِ الكلمة، ومَضْغ المصطلحات. إيَّاهم عنى الشيخ عبد القادر بالقفص الفارغ، وإياهم حذَّرَ وأنذر.

لذا فيُحْتَرَزُ من الدعوَى الكاذبة المُنْدَسَّةِ بين صفوف جند الله، وفي مؤسسات الجماعة والتربية. وبما أنَّ العارف لا يَعْرِفه إلا عارفٌ مثلُه، فليكن ميزانُ الجماعة في اختيار الربانيين لصدارة الإمارة والتربية ميزانَ الشرع، من التزام الكتاب والسنة، والتخلقِ بأخلاق النبوة. وكما تضوعُ رائحةُ المسك لا يَحبِس عبيرَهُ الصُّرَّةُ تصُرُّه فيها، فكذلك قلوبُ الربانيين تستنير بالقرب منها ومصاحبتها النفوسُ المظلمة، وتحيى بمعاشرتها النفوسُ الميتة المقبورة، فمن هذا العبير يُعرف بائع المسك من نافخ الكير.

ولا نغترَّنَّ بالكرامة والكشف والحال، فإن ذلك كلَّه لا يؤْمَنُ أنْ يكون استدراجا، ولا نضعُ من أيدينا لحظةً مِعيارَ الشريعة لرؤيا منام أو حديثِ غلام. فبين الرؤيا والتعبير تنـزلق الأقدامُ، ويدخل الشيطان.

فإذا ظهر العارفُ المربي بفضل صحبته على من صحبه من المؤمنين، بنورانية أحواله، وصدقِ فراسته، فهو معدنُ الربانية، المُشَرَّفُ في الحضرة الإلهية. إن شاء الله عز وجل أن ينفع به أهلَ عصره هيأه وهيأ له، فما يُجْدِي أن نكتب كيف تصحبه الجماعة وكيف يجب توظيفه في الجماعة. لكننا نرجو الله عز وجل أن يجمع المؤمنين من بعد الشتات، فتكون جماع المسلمين هي جماعة العارفين بالله، يرعونها، ويربونها بمنهاج واحد، وعلى كلمة واحدة، ولغاية تسليك العباد، وعزّ الأمة وتوحيدِها. فإنَّ من لوازم التشتت، كما أظهرَه الله بذنوبنا في تاريخ العض والجبر، أن انعزل العارفون عن المجتمع، فكان لكلٍّ منهم مدرسة وأسلوب. لا يعنيهم، وهم المُلْهَمُون، بعد إيصال العباد إلى ربهم فردا فردا، ما تعانيه الأمة من قدَرِ الله القوي العزيز.

وكيف يعاكسون القدَرَ وهم بين يدي رب العزة خاضعون أذلة لا حول لهم ولا قوة؟

إن شَرَفَ العلم بِشَرَفِ المعلوم. فإن كانت مجتمعاتُ الكفار والغافلين تمَجِّدُ وتعظم وترفع إلى مراتب القيادة والتعليم والتربية حاملي الشهادات في علوم الأفكار، والحيوان، والنبات، والجماد، ونواميس الكون، وقواعد السياسة والاقتصاد، فإنَّ أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تُشَرِّفَ وتُصَدِّرَ وتُعَظِّمَ حاملي العلم الشريف: حملة القرآن والسنة، وجهابذة الفقه والاجتهاد، وعلى رأس هؤلاء جميعا الربانيون العارفون بالله عز وجل. اسمع معي نبذة قصيرة عَلَّنا نميِّزُ بين تحصيل العقل للعلوم وبين انكشافها للقلب فندركَ متعلَّقَ التحصيل ومتعلَّقَ المعرفة بالله سبحانه. قال أبو حامد رحمه الله: «إن ألذَّ المعارف أشرَفُها. وشرَفُهَا بحسب شرف المعلوم. فإن كان في المعلومات ما هو الأجَلّ والأكملُ والأشرفُ والأعظمُ فالعلمُ به ألذُّ العلوم لا محالة وأشرفُها وأطيبُها. وليت شعري هل في الوجود شيء أجلُّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها، ومكمِّلِها، ومزيِّنِها، ومُبْدئِها، ومعيدِها، ومدَبِّرِها، ومرتِّبِها ! وهل يُتَصوَّر أن تكون حضرةٌ في الملك، والكمال، والجمال، والبهاء، والجلال، أعظمَ من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصفُ الواصفين ! فإذا كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أنَّ الاطلاع على أسرار الربوبية، والعلم بترتيب الأمور الإلهية المُحيطة بكل الموجودات، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذُّها وأطيبُها».[1]

(1) الإحياء، ج4، ص: 264–265.

إعادة تنظيم التربية والتعليم

مِن ظاهرات هذا العصر تعميمُ التعليم. فرضَتْهُ الضرورةُ الاقتصادية والاجتماعية، فيتسابق الناس لتعليم أبنائهم وبناتهم ليحصلوا على مؤهل فكريٍّ و مهارة صناعية تضمَن المعاش. فالغاية دنيوية محضة. وما يتخلل هذا التعليم من «تربية وطنية» وأخلاقٍ ودين فهو تبع غيرُ مقصود في المقام الأول. في دولة القرآن ينبغي قلبُ هذا السُّلَّم القِيَمِي رأسا على عقب، فتجيء تربيةُ الإيمان في المرتبة الأولى وتكونُ لها الأسبقية.

يجب إدخالُ الجامعة والمعهد والمدرسة إلى الإسلام، بكلمة شهادة تُثْبِتُ هُوِيَّتَها الإسلامية. يجب أن تكون أجهزةُ التربية والتعليم محاضِنَ للتربية الإيمانية في الاعتبار الأول، وأن تُبْسَط يدُ الدعوة فيها بسطا كاملا على مستوى وضع البرامج، وتأليف الكتب، والإدارة، والتفتيش، ورعايةِ النشء، وضمِّه لأُسَرِ الجماعة، وتهييئه لقيادة الأمة. ينبغي أن نسير إلى هدف تطهير أجهزة التربية والتعليم من جراثيم الإلحاد، وإلى اعتبار الإيمان مؤهلا أساسيا في اختيار المعلمين والأساتذة ورجال الإدارة. هدفٌ نرمي عليه عبر مراحل لا نستطيع فيها الاستغناء عن ذوي الكفاآت العلمية من الأجانب لحما ودما وجنسية، أو الأجانب عقيدة وفكرا من بني جلدتنا المتفرنجين.

على أنَّ القومة التربوية التعليمية لخطورتها وبالغ أهميتها ينبغي أن تُحْشَرَ إليها جهود الأمة مع أسبقيات الأسبقيات، فكلما تحرر قطر كان أولَ واجباته فتحُ باب الهجرة إليه، يستدعي علماءَ الأمة من حيث شتَّتَهم الاضطهادُ، ويَجْمَعُ الربانيين ليحتضنوا مصير الأجيال، ويعيدُ

إلى الأوطان المحرَّرَة صفوةَ أدْمغتنا الهاربةِ من جَوْر الحكم أو كساد البضاعة إلى أوربا وأمريكا.

وليس أسبقَ ولا ألَحَّ من أن يَجتمع أطباءُ القلوب، وحمَلَةُ الشريعة، وخبراءُ العلوم الكونية ليقودوا معركة تحرير النفوس والعقول بعد انتهاء معركة الإطاحة بأهل الباطل. مباشرةً، وبلا تلكؤ. ومن واجب علماء الإسلام، وفُضلاء الخبرة، وجهابذةِ الفنون الصناعية أن يُلَبُّوا النداء، ويُهاجروا إلى الأقطار المحررة للمساهمة في بناء الأمة.

القرآن هو العلم

هذه الحضارة الماديةُ سفينة تائهة على وجهها، لا قبلَةَ لها ولا غايةَ. والمجتمعات المسلمةُ في ذلك التيار تسيرُ، وعلى أمواجه تضطرب بها الفتن. والعلم الغائب غيابا مُطلقا في مجتمعات الجاهلية، المكسوفَة شمسُه في مجتمعاتنا هو علمُ الحق، علمُ الغاية، علمُ مصير الإنسان، علمُ الشريعة التي عليها يُسلك لسعادة الأبد، علمُ المنهاج النبوي الذي تُرَتَّبُ به الشريعة في المكان والزمان والأقضية وتُطَبَّقُ. ذلك العلم مكسوفةٌ شمسُه في سماء غفلتنا لا في حقيقه وجوده وحفظه من لدن حكيم خبير حفيظ عليم، حاش لله!

فتوبتُنا إلى الرحمن، وتسميتنا لدولة القرآن، لا يصحان لنا إلا بهدي القرآن، علوم القرآن. منه نبطلق، وإليه ننتهي. به تُطَبُّ القلوبُ، وبه تهذَّبُ الأخلاقُ، وفي مدرستِه تُطْبَعُ كلُّ العلوم لتأخُذَ صبغةَ الله، وتجَنَّدَ لخدمة دين الله. الحق الذي جاء به القرآن هو معيارُ كل القيم، به نعرفُ نسبة الإنسان للإنسان، ونسبةَ الإنسان للكون، ونسبة الدنيا للآخرة، ونسبة الحق للباطل، في إطار نسبة العبد لربه.

وأنصعُ ما تكون النسبة بين العبيد ومولاهم الحقِّ حين يتلون كتابَه المنـزَّل عليهم رحمةً وحكمة، وحين يشمرون لتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي. فإذا صحت هذه النسبةُ بين العبد ومولاه، بين الأمة وربِّها وسيدها، اتخذَتْ كلُّ مَلَكات الإنسانِ وطاقاته الظاهرة والباطنة من قلب، وعقل، وجسم، وأشياءَ صنعتها المهارة، وعلاقاتٍ نسجتها الأعراف، وتاريخٍ أَلَّفتْهُ الأقدارُ، مكانَها الحقيقيَّ بالنسبة للغاية التي كشف عنها الربُّ جل وعلا لعباده.

الوضعُ معكوس في النمط التربويّ التعليمي السائدِ في بلاد الجاهلية، المستورَدِ إلينا، بل المفروضِ علينا. في هذا النمط إنسان بالصورة والشكل، فارغٌ من إنسانيته، ممتلئٌ بهواه وبهيميته، يدور حول فلَك شهواته. وكلُّ إفرازات ذهنه، وهواجِس نفسه، وصناعةِ يده، وابتكارِ حِذقه، مُسَخَّرَةٌ لإسعاف هواه.

يَصعُب على الغافلين عن ربهم أن يتصوروا نظاما تربويا تعليميا برنامجه القرآن، ومضمونه القرآن، وأهدافه القرآن، ومنهاجُه السنة وعمل النبوة. كيف نُدْخِل في الإسلام لغة ملوثة بمعاشَرة اللغات؟ كيف ندخل للإسلام علوم الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والتكنولوجيا، والتاريخ؟ كيف وكل هذه العلوم طُوِّرَتْ في حظيرةٍ لا تدين لله بدين، ولا ترجو له حسابا؟ ثم كيف نربطها بالقرآن ونفرعها عنه، وقد شبَّت وشاخت في أحضان قوم لا يؤمنون بالقرآن، ولا برسالة القرآن، فهي في ذاتها الأصلُ في تقدير الفكر المادي العريق في معرفة الوسائل المُبْعَدِ عن معرفة الغاية؟

يصعُب ربطُ العلوم الكونية بعلم الحق على مَن له فكرٌ وقلبُه مطموسٌ مطبوعٌ عليه من الكافرين، وعلى مَن إسلامُه الفرديُّ في واد، وهمومُه وفكرُه وأهدافُه في واد. إنما يتم ربطُ الوسائل بالغاية،

ربطُ علوم الكون بالقرآن، ربطُ استنباط العقل بالوحي المنْزل، على يد، وفي كيان الشخصية المؤمنة التي انجمع لها وفيها أشواقُ القلب ومحابُّه مع قدرات العقل واليد في محجة واحدة، على صراط الله المستقيم، دليلها المكتوب القرآن، وحجتها سنة النبي الهادي عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ما كان على سَلِيمي الفطرةِ من الصحابة ومن سَلَفِنا الصالِح وعلمائِنا الأئمة مِن حَرَجٍ في اكتمال النظرة وتكاملها إلى القرآن وسائر العلوم، إذ كان المخلوقُ عندهم والخالقُ، الرب المعبودُ والعبد المطيعُ، الدنيا والآخرة، القلبُ والعقلُ، حقائقَ متلازمةً لا معنى لواحد منها دون مقابله. فلما فسدت الفطرةُ انشطر العلمُ، فانفصلت في معرفة الإنسان المفتونِ والجاهليِّ الدنيا عن الآخرة، والعلومُ النقليةُ عن العقلية، والدولةُ عن الدين. انبسط الناسُ في هذه النظرة، وفي واقع حياتهم، سطحاً بلا عمق، حرفا بلا معنى، قفصا بلا طائر. وعلى صورة هذا الانبساط تسطحت معارف الإنسان الجاهلي، فأبصر في أوهام عَمايَتِهِ أصلَهُ القِرْدي، وانبثاقَه من الطبيعة حيوانا من الحيوان، وحريتَه، بعد جُحوده الوراثةَ الفطريَّةَ من كل مراقبة.

إنّ عودتَنا إلى حظيرة الإيمان تقتضي أن نجلس عبيدا يستمعون القولَ فيتبعون أحسنَه. ومَن أحسنُ من الله حديثا، وأوثقُ سَنداً، وأوْهبُ للعلم؟ نجلس إلى القرآن نذكُرُ ربنا فنكون جلساءَه. ومن هذه الجلسة والاستماع والتلمذة لرب العالمين تستقيم لنا النظرةُ، فنُمسكُ بالعقل نَزْجُرُه عن تشرد العقلانية الفلسفية وتسيُّبِها، ونجيء به طائعا لله رب العالمين تحت مراقبة القلب ونجنده ليطوِّع آيات الله في الكون لآيات الله المتلوة المنَزَّلة المقدَّسة.

كان القرآن عند سليمي الفطرة سَلفنا الصالح هو العلم: هو مرجعُ المتعلم، ومدوَّنةُ القاضِي، ودليلُ المجتهد، ووثيقةُ المؤرخ، ودستور الحاكم، وقانونُ الأخلاق، ومحاسبةُ الاقتصاد، وضابطُ العلاقات البشرية، وعقدُ السلم، وإعلان الحرب. وعلى حواشيه المقدسة الشرحُ النبويُّ، وحيٌ من الوحي، وقبَسٌ من السماء.

قال الله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام، 38). وقال عز من قائل: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ (النحل، 89). **وقال صلى الله عليه وسلم**: «**ستكون فتن**» قيل: وما المخرج منها؟ قال: «**كتابُ الله. فيه نبأ ما بعدكم، وخبرُ ما قبلكم، وحكمُ ما بينكم**» أخرجه الترمذي وغيره رحمهم الله. وأخرج سعيد بن منصور رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن: فإنَّ فيه خبرَ الأولين والآخرين». قال البيهقي رحمه الله: يعني أُصولَ العلم. وأخرج البيهقيُّ رحمه الله عن الحسن رضي الله عنه قال: «أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة، منها التوراة والإنجيل والفرقان. ثم أودع علوم الثلاثة القرآن». وقال الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه: «جميع ما تقوله الأمة شرحٌ للسنة، وجميعُ ما تقوله السنة شرح للقرآن». وقال أيضا: «جميعُ ما حكم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم فهو مما فهِمَه من القرآن».

جيلٌ قرآني

كانت تلك الأجيالُ أجيالا قرآنية، أولُ ما دخل جوفَها القرآنُ، وأولُ كتاب تناولتْه القرآنُ، وأعزُّ كتاب عندها في سويداء القلب القرآنُ. لا جرم أن يكون لِكتاب الله وكلامه في تلك القلوب الطاهرة

المكانةُ الأولى، ولسنة رسوله وكلامه مكانةٌ تسامتها. وقد أخذت تنقشع ولله الحمد فتنةٌ كان عامة المسلمين فيها يقرأون القرآن، إن قرأوه، كما يَنظُرون في بعض الكتب. عاد ولله الحمد هذا الشباب الصالح إلى كتاب الله. وهذا يبشر أن دولة القرآن تتهيأ ليحتل القرآن في الأجيال القادمة إن شاء الله مكانة الشمس يسطع نُوره يُضيء الأرجاءَ، ومكانةَ الغيث يُرْوي أراضيَ القلوب المتعطشة، ومكانةَ المرجع المقدس، حول معانيه، وفي خدمة أهدافه وغايته، تتبارى العقول. ننتظر أن يُجيزنا الله عز وجل إجازة الطالبين الراغبين فيجعلَ القرآنَ ربيعَ القلوب، ولِقاحَ العُقول، وحياةَ النفوس، ودستور الحركات والسكنات. بذلك نكون أجيالاً قرآنية كما كان الأولون رضي الله عنهم، وألحقنا بهم في دار النعيم، دار يقال فيها لقارئ القرآن: «**اقرأ وارق**» في معارج السابقين. ذلك لمن كان القرآنُ في اعتقاده، وفي علمه وتصرفه، وفي حياته ومماته، هو الكتاب.

تعليم القرآن

بعد صحبة المؤمنين، بعد لقاء رجال الدعوة والاستئناس بهم ومحبتهم التي تجر إلى الإيمان، يأتي ذكرُ الله عز وجل، فيتمُّ التفاعل بين عامِلَيْ التربية الإيمانية الأساسيين. ويتجدد إيمان العبد الصادق بالإكثار من ذكر لا إله إلا الله حتى يستنير القلب، وتزولَ قساوتُه، ويوقى شُحَّه، فيتأهلُ لتلقي كلام الله عز وجل بالسماع الخاشع والنية التنفيذية. كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول لمُسْلِمَةِ الجيل التابع: «أوتينا الإيمان قبلَ القرآن، وأنتم أوتيتم القرآن قبل الإيمان، فأنتم تنثرونه نثر الدقل». أي ترمونه رمي التمر الحشف اليابس. رواه الحاكم رحمه الله وصححه. واختصرناه.

من يقرأ القرآن بدون استعداد إيماني قلبيٍّ فإنه لا يجد إلا كلاما كالكلام. إن كان عربيا قُحّاً أخذته فصاحةُ القرآن المعجزة، وبلاغته وبيانُه. فإن كان من أعجام اللسان والقلب فإنما هو جرْيٌ على سطح الحَرْفِ القرآني. ويَهدي الله من شاء أن يشرَح صدره للإسلام حتى بهذه القراءة. إن الله على كل شيء قدير.

فإذا قرأ المؤمن كتابَ الله عز وجل بالتعظيم اللازم، والتعرُّضِ للرحمة بالإقبال على الله عز وجل تقربا إليه بتلاوة كتابه وتدارُسِه، غَنِمَ مزيدا من الإيمان، ومزيدا من النور. روى أبو داود رحمه الله بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

لاحظ الشروط الأربعة:

1- الاجتماع، وهو صحبة المؤمنين والكينونة معهم.

2- في بيت من بيوت الله، حُرمة المكان ليتم الاحتفال والاهتبال والتعظيم.

3- التلاوة، وهو التعبد المحض بترديد كلام الله تعالى.

4- التدارسُ، وهو إشراك العقل في العملية لننتقل من التعبد بالحرف المقدس إلى تنفيذ الأمر على جَسر التعليم والتعلم والتواصي بالحق والصبر.

إذا استُكمِلَتْ هذه الشروطُ كان فضلُ الله على الجماعة الملْتفين حول كلام ربهم أكرم الجزاء: يذكرهم الله فيمن عنده كما اجتمعوا على كلامه، وتَحُفُّهم الملائكة الطوافون على مجالس الذكر جزاءَ تلاوتهم،

وتنـزل عليهم سكينة العلماء جزاءَ تدارسهم، وتغشاهم الرحمة جزاء تعظيمهم.

جاءت الآيات والأحاديث في حث الأمة على التعلق بحبل الله المتين، والتمسك بالحق الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، واتباعِ النور الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

وأحاديثُ تحث على تعلُّم القرآن وحفظه. روى الشيخان والترمذي والنسائي رحمهم الله عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الماهر بالقرآن مع السَّفَرَةِ الكرام البَرَرَةِ. والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران**».

الماهر، الحاذق العارف، مع الملائكة الكرام. أكرِم بها من معية. والمتتعتع هو المتردد الذي لا يُتقن القراءة، فيجتهد. له أجران، أجر نيته وتعظيمه، وأجرُ اجتهاده.

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي رحمهم الله عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**خيرُكم من تعلم القرآن وعلمه**».

لكلِّ هذا الفضل الوارد في حق من تعلم القرآن، وقرأه وتلاه، واجتمع عليه، كان أهلُ القرآن هم أهلَ الله وخاصَّتَه كما جاء في الحديث. فمن كان أساسُ بنائه القلبيِّ والفكريِّ كتابَ الله عز وجل خليقٌ أن ينعكس فضلُ القرآن ونورهُ على حياته. ولن تزال هذه الأمة بخير ما اتخذت القرآن عُمدةَ التعليم والتربية وقِوامَهُما. ففي مدارس الصبيان واليافعين والشباب والكبار ينبغي أن تُعاد للقرآن حرمتُه ومكانتُه بحيث يكون صُلْبَ دروس اللغة والفقه والأخلاق والعقيدة. في حلقات الدعوة، في المسجد، في برامج التعليم المدرسي والجامعي.

وإنَّ إبعاد القرآن عن المدارس والمعاهد والجامعات، وتقليصَ حصصه، وعدمَ اعتبار حِفظه، وتجويده، وفهمه، في الامتحانات لَمحاربة لِواحدة من شعائر الإسلام العظمى.

أعظم شعائر الدين

يقول ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله: «اعلم أنَّ تعليم القرآن للوِلْدَانِ شعارٌ من شعائر الدين، أخذ بِهِ أهلُ المِلة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لِمَا يسبِق فيه إلى القلوب من رُسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعضِ متون الأحاديث. وصار القرآنُ أصلَ التعليم الذي ينبني عليه ما يحصُل بعدَه من المَلكات. وسببُ ذلك أنَّ تعليم الصِّغَرِ أشدُّ رسوخا. وهو أصلٌ لما بعده. لأنّ السابقَ الأولَ للقلوب كالأساسِ للملكات. وعلى حسَب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه».

ويشرح مؤرخُنا أساليب تدريس القرآن فيقول: «فأما أهلُ المغرب فمذهبُهم في الوِلْدان الاقتصارُ على تعليم القرآن فقطُّ، وأخذُهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حَمَلَةِ القرآن فيه. لا يخلِطُون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم.(...) وأما أهلُ الأندلس فمذهبُهم تعليم القرآن والكتابِ من حيث هو، (...) فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلِطون في تعليمهم للولدان روايَة الشعر في الغالب، والترسُّلَ، وأخذَهم بقوانين العربية، وحفظِها، وتجويدِ الخط والكتاب (...). وأما أهل إفريقية فيخلِطون في تعليمهم للولدان القرآنَ بالحديث في الغالب، ومُدارَسَةِ قوانين العلوم، وتلقينِ بعض مسائلها (...). وأما أهلُ المشرق فيخلِطون في التعليم كذلك (...).

والذي يُنْقَلُ إلينا أنَّ عِنايتَهم بدراسة القرآن، وصُحُفِ العلم، وقوانينه في زمن الشبيبة». [1]

ويأتي المؤرخ المسلم بنقد لهذه المذاهب في التعليم جدٍّ مفيدٍ. فليراجعه هناك المتخصص في وضع البرامج.

كان لسلفنا الصالح العنايةُ التامةُ بتعليم القرآن. فكان من صالحي هذه الأمة وخيارِها مَنْ حَبَسَ نفسه لتعليم الوِلدان كتابَ الله تعالى الخمْسينَ والستينَ سنةً احتساباً لثواب الله تعالى. وكان من موسري الأمة من أوْقَفَ أموالا لتعليم القرآن. وكان من هذه الأجيال الماضية علماءُ تخصصوا في روايات القراآت وتجويد القرآن، ونشروا هذه العلوم الشريفة.

كان إكرامُ التلميذِ، والاحتفالُ به لدى ختم القرآن وحفظِه، مناسبةً اجتماعيةً سعيدة تفتخر الأسَرُ بها. وكان إكرامُ أستاذ القرآن سُنةً مُتبعة. وقد جاء من الآثار ما يُبيح العطاءَ من بيت المال على تعليم القرآن، كما جاءت آثارٌ تنكر ذلك، وتنـزِّهُ كتاب الله أن يكون لتعليمه عوضٌ ماديٌّ. روى أبو القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى بعض عُماله: «أنْ أعْطِ الناس على تعليم القرآن». فكتب إليه: «إنك كتَبت إليَّ أن أُعطي الناس على تعليم القرآن. فتعَلَّمَهُ من ليست له فيه رغبةٌ إلا رغبةُ الجُعْلِ (الجائزة)». فكتب إليه: «أن أعط الناسَ على المروءة والصحابة». وروى أيضا ابن سلام عن أسير بن عمر رحمهم الله قال: «بلَغ عمرَ أنَّ سعدا قال: «من قرأ القرآن ألْحَقْتُه في ألْفين (أي جعلته ممن يتقاضى ألفيْ درهم)». فقال عمر: أفٍّ أفٍّ ! أيُعْطَى على كتاب الله؟ !».

(1) المقدمة، ص: 1038 وما بعدها.

أيكون من أهل الله وخاصته المرتزقُ المحترفُ الذي يَرْضَى بعوضِ الدنيا عن ذلك الفضل الإلهي الموعود به للتالي والدارس والمعلم والمتعلم؟ أف أف ! كما قال أميرُ المؤمنين رضي الله عنه.

لا ندخل في الخلاف الذي يجعل منه بعضُ الناس مهنةً، ولا نريد أن نقارع النصوص بعضَها ببعض، فإنَّ في أثناء ما تنبري للجدل تتصرم الأعمارُ ولا طائلَ. والأمة تنتظر جوابا عمليا لتَحْيى من مَوات وتُفيقَ من سُبات.

الأصلُ أن لكل مسلم الحقَّ في بيت مال المسلمين. والمرءُ في ذلك، حسب قول الإمام عمر بن الخطاب، وسابقتُه وغَناؤُه وحظُّه من الله. أيْ أن السابقين إلى نصرة دين الله والنافعين للأمة، والقريبين من الخير، المظنونُ بهم أن يكونوا أتقياءَ بررَةً، أوْلى بالعطاء من غيرهم. وليس أنفعَ للأمة ولا أقربَ للخير من حَمَلَة القرآن ومعلميه. فيُعْطَوْنَ بسخاء لذلك، وأجرُهم في تعليم القرآن على الله. فإن كان منهم من يُفْسِدُ عمله بنِيَّتِه الفاسدة، فلا مدخلَ للفقه في ذلك، ولا مدعاةَ للجدل. ولمُعَلِّمُو القرآن أجدرُ وأوْلَى بالتكريم والعطاء من هذه الجيوش من معلمي «الفنون» المستحدثة الغريبةِ عنا، المخربةِ لديننا وأبنائِنا، الذين تعُجُّ بهم مدارس الفتنة يُنْفَقُ عليهم مِن أموالنا. أستغفرُ الله العظيم أن أقارنَ، ولو بالتفضيل، حَمَلَةَ كتاب الله مع معلم الرقص والغناء وما إلى هذا البلاء !

أما الصِّبْيَةُ والوِلدانُ فتشجيعُهم بالجوائز على حفظ القرآن لا لَبْسَ فيه. فهم دون سن التكليف لا يؤخذون بالنية، ولا يُحْسَبُ عليهم في سجلات الملائكة الكرام الكاتبين. ويُرجى للنفوس الناشئة في جَوِّ القرآن، المتمرسةِ به، أن تُشْفَى من سَقامها، فيَعْبُرَ الناشئُ عتبَةَ الرجولة وقد تجاوز الزهْوَ بالتفوق، والاستكبارَ على الأقران. على أنَّ

التنافس في الخيرات من الدين، لا أتصورُ مَهرجاناتٍ تقام لمباريات الحفظ والتجويد إلا مجالسَ للسكينةِ والرحمةِ إن اتُّخِذَ الاحتياطُ اللازمُ لتجري في بيت من بيوت الله، يحضرُها الصالحون، ويحتفل بها الآباء والأمهات.

السنة بنت القرآن

قال الله تبارك وتعالى مُخبرا عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (النجم، 3-4). وما كان للمعصوم صلى الله عليه وسلم أن يأتي بشيء من عنده. قال الله تعالى عن عبده ورسوله: (﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ (الحاقة، 44-46).

ما هو حظ القلب من السنة، وما هو نصيب العقل؟ المخذولون يأخذون الآثار النبوية مجردةً عن صاحب الآثار صلى الله عليه وسلم. فإذا استعرضوا رجالَ الإسنادِ وأجازوا شهادتَهم رشحوا النَّص للاستدلال، وأخذوا منه الحكمَ كما تُؤْخذ الرسالة من ساعي البريد. ومنهم من يستعمل، والعياذُ بالله، هذا اللقب في حق من أمر الله بإعزازه وتوقيره ومَحَبَّتِه. والفجرةُ الكفرةُ يَعْمِدون إلى السنة فيَنْفُونَ ثبوتَها ويزعمون أنَّ القرآن أغنانا عن البحث عن آثار، لا يوثَق بشيء منها.

شهد الله عز وجل في مُحْكَم كتابه لرسوله وصفيه من خلقه بأنه صادق لاَ ينطق عن الهوى، وبأنه ما كان ليتقوَّل على الله، وبأنه الشاهدُ البشيرُ النذيرُ، وبأنه الرؤوفُ الرحيمُ، وبأنه رحمةٌ للعالمين، إلى أمثال هذه الشهادات، ليحبّب إلينا ذلك الشخص الكريمَ عليه، وليوَثِّقَهُ

لدينا. فإن أحْسَنّا صحبتَه صلى الله عليه وسلم بالمَحبة والتعلق القلبيِّ، وأحسَنَّا الاستماع والتلقِّيَ لما جاء به من رسالة الحق لحِقْنَا بأصحابه الذين كانوا يفْدُونَه بالآباء والأمهات والمُهَج، يعتبرونه أبا رحيما أحبَّ إليهم من الآباء والأبناء. وإن نحنُ تلقينا الآثار بجَفْوَةِ بعضهم، وقانا الله، ممن يمُدُّ يده من وراء ظهره مُعرِضا عن الشخصِ الكريم، لحقنا بالأعراب الذين رفعوا أصواتهم فوق صوت النبيء، ونادَوْهُ من وراءِ الحُجُرات. أما منكرو السنة فهم في صف أبي جهل ولو زعموا أنهم آمنوا بالقرآن.

جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تؤكد ما أمر الله به من نُصرة الرسول في قلوبنا ومحبته. عَبْدٌ قَرَن الله عز وجل طاعتَه بطاعته، واسمَه باسمه، وبَيْعته ببيعته، وجعل الشهادةَ التي تفتح بابَ الإسلام لا يُطبَع لَهَا بطابَع الصحة إن لم يُعْقِب الاعترافُ بألوهية الرب الاعترافَ برسالة العبد النبي الرسول صلى الله عليه وسلم. روى الشيخان وغيرهما رحمهم الله عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون الله ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأنْ يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكرَهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النار**».

فمَنْ لم يُحْبِبْهُ صلى الله عليه وسلم من أين يدخلُ الإيمان قلبَه؟ يُرجَى له أن يلْحَقَ بالأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلبه. لكن إن بلغَتْ به الجفوةُ في الجانب الكريم أن ينطق أو يعتقدَ أنَّ حامل رسالة الله نوعٌ من سعاة البريد فهو في تخوم الحِرْمانِ. عافانا الله. ومِنهم من يجتهد في التقليل من شأن النبوة مخافةَ أن يُشرك الناسُ بالله شيئا من خلقه في زعمهم. وكأنَّ أولئك ما قرأوا القرآن، وما وقفوا عند آيات: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ (الحجرات،1)،

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (الفتح، 8-10). لاحظ الضمائر في «تعزروه وتوقروه وتسبحوه» كيف ترادفت وعادت على الله مرة وعلى الرسول مرة.

مَنْ أنكر حِجِّيَّةَ السنة بأيِّ عذر فقد تعرضَ للخزْي والعياذُ بالله. قال الحافظُ السيوطيُّ رحمه الله: «فاعلموا رحمكم الله أن من أنكر كَون حديث النبي صلى الله عليه وسلم، قولا كان أو فعلا بشرطِه المعروفِ في الأصول، حُجَّةً كَفَرَ، وخرَج عن دائرة الإسلام».[1]

فلْتعرفْ رحمنا الله وإياكَ أيْنَ تضع غِرْبَانَ الكُفر الناعِقين بإنكارِ حِجِّيَّة السنة.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الزجرُ والوعيدُ في حق من يُفَرِّقُ بين الكتاب والسنة. روى أبو داودَ والحاكم رحمهما الله من حديث أبي رافع رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئا على أَريكته، يأتيه الأمرُ من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، يقول: لا أدْري ! ما وجدنا في كتاب الله اتبعنا !**». قف عند قوله عليه الصلاة والسلام: «متكئا على أريكته». ما تصوره هذه العبارةُ من استكبار، وما تتضمنه من وجوب الانتهاض والتأدب وجمع الجلسة عند سماع ذكر من مَنَّ الله علينا ببعثته فينا.

كان الصحابة رضي الله عنهم شديدي المحبة للشخص الكريم، شديدي الاعتماد على تعليمه، خالصي الوفاءِ له، منتظرين شفاعتَه عند الله يوم لا ينفع محبوبٌ غيرُه من مال وبنين إلا من أتى الله بقلب سليم. وكيف يَسْلَمُ قلبُ مؤمنٍ لم يُشْغف بحب الله ورسوله؟ اللهم زدنا له

(1) «مفتاح الجنة» في الرسائل المنيرية، ج2، ص: 2.

محبة وتعظيما. روى البيهقيّ رحمه الله أن عِمْرانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه ذكر الشفاعة فقال رجلٌ من القوم: يا أبا نُجَيْدٍ ! إنكم تُحَدِّثونا بأحاديثَ لم نجدْ لها أصلا في القرآن ! فغضِب عِمرانُ وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: فهل وجدتَ فيه صلاةَ العشاء أربعاً، ووجدت المغرب ثلاثا، والغداةَ ركعتين، والظهرَ أربعا، والعصر أربعا؟ قال: لا. قال: فعَن من أخذتم ذلك؟ أَلَستُم عنا أخذتموه؟ وأخذناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم». الحديث.

وأخرجَ البيهقيُّ رحمه الله عن المِقدام بن مَعْدِيكَرِبَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ألا إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه ! ألا إني أوتيتُ القرآن ومثلَه !**» الحديث. وأخرج أبو داود والحاكم والبهيقي رحمهم الله بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إني قد خلَّفتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا: كتابَ الله وسنتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحَوْضَ**».

هذه مكانةُ السنة ومكانةُ صاحبها صلى الله عليه وسلم في أمة القرآن. وينبغي لدولة القرآن أن تحتفل بالرسول والرسالة، وترفعَ من شأن من رفع الله قدره، وعظم أمره. كما يجب أن تجند العلماء لخدمة السنة وتحرير موسوعتها التي لا تزال أملا لجهود علمائنا الأجلاء، خدام الحديث الشريف، أهلِ الفضل علينا جزاهم الله خيرا. أولئك الذينَ أمضَوْا الأعمارَ، ورَكِبوا الأسفار والأخطار، ليُبَلِّغُونا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الحديث وخير الهدي.

على الدولة الإسلامية أن تتيح الفرصةَ لعلمائنا كي يضعوا الموسوعة الحديثية التي يمكن التغلبُ على وضع فهارسها، وترتيبُ موادِّها، وتصنيفُ نصوصها، بالاستعانة بالوسائلِ العصرية، والحاسبات الإلكترونية، وعلوم الإعلام المتطورة. فإنَّ مما يسهل على المجتهد والمفتي عملهما أن تكون نصوصُ السنة قريبةَ المتناول، سهلةَ المأخذ.

ونُحَفِّظُ الأحاديثَ النبويةَ، لا سيما منها ما كان قَصَصاً وأخلاقا، للوِلدان. لينهلوا من ذلك المعين النبويِّ صغارا، ويتضَلَّعوا منه كبارا. ومن خلال آيات القرآن، وأحاديثِ حبيب الرحمن صلى الله عليه وسلم تُزَفُّ إلى القلوب الناشئةِ بشرى انتمائهم لصاحب لواءِ الحمد يومَ القيامة، صاحبِ المعراج والشفاعة. إن كانت ربانيةُ الأساتذة والمعلمين والمرشدين والوُعاظ كاملةً، فستجدهم بالفِطرة، والمثال، والانعكاس العاطفي، يبُثُّونَ في القلوب حبَّ القُدْوةِ الأعظم صلى الله عليه وسلم، وتبجيلَه، والاعتزازَ به، وانتظارَ شفاعته. وإنَّ جندَ الله الذين جاهدوا تحت لواء الدعوة والقومة والبناء هنا، أحقُّ أن يُعْرَضُوا إلى درجات الجنان تحت لواء الحمد هناك يوم القيامة. وذلك حرامٌ على من لا يُكِنُّ لصاحب اللواءِ الوُدَّ الخالص من كل جفاء، كما يدين لله عز وجل بالدين الخالص من كل شرك.

ينعَتُنَا بعضُ المستشرقين بأننا محمديون. ونِعْمَتِ التسميةُ لوْ لم يكن فيها القصدُ الخبيث أن نُنسَبَ إلى بَشرٍ زعيم، على غرار ما يَنْسبون الطوائفَ لِمُؤَسسي المذاهب الفلسفية، والإمبراطوريات المستولية.

محمديون نحن بمعنى حب الله ورسوله، محمديُّون بمعنى الوَلاء الخالص لبشر منا، من أنفسنا يوحَى إليه، وأعمالُنا تُعْرَضُ عليه، وحَشْرُنَا إلى الجنة إن شاء الله بين يدي الله ويديه.

حِلَقُ المَسْجِدِ

من الأهداف العصرية لكل دولة وأمةٍ تريد العزة والكرامة، والاستقلال والرخاء تعميمُ التعليم. ومِن صُلبِ الإسلام تعميمُ التعليم بتعميم الدين. فإنَّ الإسلام لا يمكن أن ينفصل عن التعليم.

وعلى كل مسلم أن يتعلم حدا أدنى ضروريا من قضايا دينه، ومن سور القرآن، ومن أحكام الطهارة والصلاة، والحلال والحرام، ومن عقيدة التوحيد، وسيرة الأنبياء، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانت المساجد على طول تاريخنا مدارس عامرةً زاخرةً، يجد فيها المسلمُ حاجتَه قريبا من مُصَلاَّهُ، ومن بيته، ويجدُ فيه المتعلمُ بُغْيَتَه بيُسْرٍ لا يعرفُ تعقيدا، وبمجَّانيةٍ لا تطلُب إليه أداءَ رسوم، ولا تحضير أوراقِ الانخراط.

ثم هُجِرَتْ المساجدُ في عهد فَوْرَةِ العلمانية، حتى أذِنَ الله بهذه العودة المباركة التي نعيش تباشيرَ فجرها. وقد انتبه الحكامُ المَكروهُون إلى خطر المسجد، ووعاظه، ومعلميه عليهم، فهي محاصرة، لا تُفْتَحُ منابرُها إلا لِلْبُوم الكئيبِ، ينوحُ على خرابِ ذِمَمِ عُلَمَاءِ القصور، بمنثوراتِ خطَب الإطراء، وأسْجاع مديح الأمراء.

بعد التحرير، يلزَمُ أن تُعْمَرَ المساجد ويذكر فيها اسمُ الله لا اسمُ الأصنام. ويعادُ للمنبر حرمتُه، ويُقلَّدُ العلماء طَوْقَ واجِبهم الديني أن يُبَيِّنُوهُ للناس ولا يكتموهُ كما أخِذَ عليهم الميثاقُ. وليس من اللائق شرعا ولا من الجائز أن يكون العالم في المسجد أجيراً للدولة، إذ أنَّ تلك الوظيفةَ أنبلُ وأشرفُ من أن يدخلَها اعتبارُ العِوَضِ الدنيويِّ. فيُنادَى في العلماء أن هلُمّوا إلى ميراثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قسِّمُوه بين الناس. يفْتَحُ علماءُ الدعوة بابَ التطوُّع، فيُحيُون المساجدَ حتى تكونَ حِلَقُها مدارا لحياة الدعوة، وملتقى للوافدين التائبين، ومُنطلَقا لنشاط التعليم بين العامة، ولمحاربة الأمية الفكرية، في نفس الوقت الذي تحارَبُ فيه الخُرافة، والجهلُ بالله ورسوله وكتابه ودينه. في المسجد القرويِّ الصغير، وفي مسجد الحيِّ السكني، والعمارةِ السكنية، ينبغي أن تُعقدَ حلقُ الوعظ، وحلقُ الفقه المُبسَّطِ، والسيرةُ،

والعربية، وحفظُ القرآن وتجويده. وينبغي أن يجد المؤمنون في المساجد الجامعةِ الحلقَ المتنوّعةَ المتعددة في أركان المسجد، المتخصصةَ في التفسير، والحديث، والعربية، إلى جانب حِلَقِ الوعظ والتربية.

ودروسُ المسجد تكمل الدروس المنظمة في أَسَرِ الجماعة وفي مدارس الدولة، وتسُدُّ الثغراتِ، وتفي بحاجة العامة الذين لم ينتظموا في صفوف الدعوة، وفاتهم دخول مدارس الدولة. ومن فوائد هذه الدروس المسجدية أنها تستقطب السواد الأعظم إلى حضن الجماعة تدريجيا. فيحضُرُ المصلي درسا يستهويه ليحضر دروسا. فلا يمضي وقتٌ حتى يجد نفسه أَلِفَ المسجد، ولقِفَ مِن العلم، ومن الكلام الطيب، والموعظةِ الحسنةِ، ما يحبب إليه الإيمان وأهلَ الإيمان.

من علامات الواعظ الحكيم، أن يُتْبِعَ موعظتَه المؤثِرَة، وخطبتَه البليغَة، استدعاءَ الناس للتوبة وعقدِ العهد في اللحظة، الآنَ وهنا، على هِجرةِ ماضي المعصية والفتنة، وعلى الخروج مع الجماعة إلى ملتقياتها. هذا ما يفعله رجالُ الدعوة والتبليغ، أولئك المُخْبِتون الذين جددوا لنا في هذا العصر معانيَ الرحلة الدائمة لتبليغ رسالة الله في كل قطر ومدينة وقرية. رباطُهُم المساجدُ، وحلْقَةُ العلم والتعلم والوعظ مدرستهم. ونِعْمَ المدرسةُ.

مِن آدابِ مجالس الدعوة والعلم أن يتحلَّق الناسُ حول العالم المعلم والواعظ. روى أبو نعيم رحمه الله في «آداب العالم والمتعلم» والديلميُّ رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا جلستم إلى العالم –أو المعلم– فاذْنوا. ولْيجلِسْ بعضُكم خلَف بعض. ولا تجلسوا متفرقين كما يجلس أهلُ الجاهلية**». وروى مسلم رحمه الله عن جابر رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دخلَ المسجد وهم حِلَقٌ، فقال: «**ما لي أراكم عِزِينَ؟**»، أي

متفرقين. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إنما أنكرَ تحَلُّقَهم على ما لا فائدةَ فيه ولا منفعة، بخلاف تحلُّقِهم حوله فإنما كان لسماع العلم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعقد لهم مجالسَ يعلِّمهم فيها، ويترُك لهم المجال ليسألوه عن أمور دينهم. روى الطبرانيُّ رحمه الله في الكبير عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر انحرفْنا إليه. فمنا من يسأله عن القرآن. ومنا من يسأله عن الفرائض. ومنا من يسأله عن الرُّؤْيا».

مدارس لتربية الشخصية الإسلامية

خَرَّبَتْ المدرسةُ الاستعماريةُ تلك الشخصية الإسلامية التي كانت معجونةً من طينة الفطرة السليمة، المستمِدَّةِ إيمانَها وأخلاقَها واستقامتَها على الدين من صحبة أهل الله، وتعاهُدِ بيوتِ الله، ومحبةِ رسول الله صلى الله على خير خلق الله. وتركت فينا خُلطةُ الكفار جراثيمَ الشك والمادية والتنكرِ لدين الله، حتى أصبحنا لا نتصور مدارسَ مخالفةً، ولا تربيةً، ولا تعليماً، لمدارسهم وتربيتهم وتعليمهم. أقصِدُ أن المغربين لا يتصورون ذلك. أما نحن والحمدُ لله فقد تجلت لنا معالم الشخصية الربانية المطلوبة ومواصفاتها، فما بقي لنا إلا أن نصوغ المدرسةَ الإسلامية المستقبليةَ، وتربيتَها، وتعليمَها، الصالحةَ لاحتضانِ وِلْدانِنَا وشُبَّانِنا، ورعايتِهم، وتغذيتِهم الروحيةِ والفكريةِ بما يُصْلح ويثمر. أهم هذه المواصفات:

1- الشخصية المؤمنة بالله واليوم الآخر. المخلصةُ لله عز وجل، العالية الروحانية.

2- الشخصية الصالحة للاندماج في الجماعة، من حيثُ محبةُ الله ورسولِه المنتجةُ لمحبةِ المؤمنين، ومن حيثُ الإرادةُ والقدرةُ على التآمر

بالمعروف والتناهي عن المنكر، ومن حيثُ المشاركةُ في الأمر العام، وفي الشورى، والدعوة، والدولة.

3- الشخصيةُ الصادقة الشجاعة في الحق التي يوثق بها.

4- الشخصية الواعية بمسؤوليتها عن الانتصار للمستضعفين في الأرض، المستعدة لبَذل الجهد والمال من أجل إقامة العدل في الأرض.

5- الشخصية العالمة بعلم الحق وعلم الكون، القادرةُ على الاجتهاد في الشريعة، وعلى توطين العُلوم الكونية في بلاد الإسلام وتطويرها واستثمارها.

6- الشخصية المتحركة النشيطة الخفيفة إلى كل عملٍ يَرْضَى عنه الله عز وجل، الممسكةُ الثقيلةُ عن محارم الله.

7- الشخصية المتميزة ظاهرا وباطنا، قلبا وقالبا، عاطفة وفكرا، مضمونا وأسلوبا، عن الشخصية الجاهلية، وعاداتها، وثقافتها، ومنهاجها.

8- الشخصية الصامدة أمام كلِّ إعصار، المقتحمة لكل العقبات التي لا تعرف الملل، ولا يفُتُّ في عزمها الكلل.

9- الشخصية المنتجة، المقتصدة، القادرة على إدارة أموال الأمة وخيراتها، وعلى التعامل مع تيارات المصالح العالميَّة تعاملا يضمن استقلال الأمة في غِذائها، وكِسائها، ورَخائها، وسِلاحها.

10- الشخصية المقاتلة المجاهدة في سبيل الله، الحاملةُ رسالة الله إلى العالمين بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجِدال بالتي هي أحسن، المدافعةُ عنها بحد السيف، وقوة الدبابة، ونار الصاروخ إن اقتضى الحال، ووقع على الأمة العدوان.

بهذه المواصفات الجامعة في طيها مطالب شُعب الإيمان يجب أنْ تُقَاس نتائج المدرسة الإسلامية، والجامعة الإسلامية، والمعهد الإسلاميِّ. وعلى ضوئها يجب أن تُنَظَّمَ سِلسلةُ التعليم والتربية، وتوضَع البرامجُ والكتبُ، ويختار المعلمون، والأساتذةُ، والوعاظ، والمديرون، وتُسَخَرَ الخِبرات، والتقنيات التربوية التعليمية.

كلُّ ثورةٍ تروم تغيير المجتمع من أساسه تضع أمامها نموذجا لنوع الشخصية التي تريد تنشئتها على ضوء مبادئها وأهدافها. وقد كانت الثورات الشيوعيةُ تحسِبُ أنَّ تغيير بُنَى المجتمع كفيلٌ بتغيير الإنسان، وبالفعل قد أدى تغييرُ البُنْيَات السياسية الاجتماعية الاقتصادية، وسيادةُ البرولتاريا، إلى إنشاء مجتمع جديد يُسَخِّرُ الإنسان للخدمة، ويربطه ربط الرقيق إلى عجلة الإنتاج. لكنَّ جوهر الإنسان لم يتغير، إنما انتقلت الثروةُ، والجاه، والاستكبار، من طبقة إلى طبقة، واحتلت «الثقافة الواقعية» والإديولوجية الجدلية محل الثقافة المادية الأخرى. وما يُشبه شَقَاءَ الإنسان وتغرُّبَه وكدْحَه الحيوانيَّ تحت نيرِ الرأسمالية إلا شقاؤُه وتغربهُ وكدحُه الحيوانيُّ تحت نيرِ الجاهلية الأخرى. مع فارق مهم في الميزان المادي، هو أن الاقتصاد الرأسمالي يسير وينتج ويعطي الرخاء بينما الاقتصاد الاشتراكي يتعثر، ويفقر، ويتقهقر.

لا مجال في مشروع التغيير الإسلامي للتردد في أيهما يسبق ويؤثر: هل الإنسانُ الجديدُ يصنع الظروفَ المقصودة أم هي تصنعه. فإنَّ آية: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (الرعد، 11). تشير في عموم إطلاقها إلى أن المسلم التائب عندما يتغير موقفُه من نفسه، ومن خالقه، ومن الكون، وعندما تتغير علاقاته تبَعا لذلك الموقف، وأخلاقُه، وتصورُه، يتغير ما به من رذيلة، وظلم اجتماعيٍّ، واستبداد سياسيٍّ، وعجز اقتصاديٍّ، وخمولٍ فكريٍّ، وتبعيةٍ للجاهلية.

مدارس حية بالعلم والعمل

إن كسر النموذج الاستعماريِّ التعليميِّ التربويِّ، وطردَه من أرضنا، وتعويضَه بالنموذج الإسلاميِّ، يدخلُ في نطاق التغيير الجذريِّ للعقيدة، والفكر، والعلاقات الاجتماعية، ونظام الحكم. لا يمكن إصلاحُ المدرسة والجامعة والمعهد وسَطَ خمول المحيط الاجتماعي السياسي الاقتصادي. فالكل مرتبط، ولا يمكن للشخصية الإسلامية أن تنشَأَ ولا أن تَصِحَّ وتقْوَى في قارورة مُغْلقة، أو في الهواء المُعَقَّم، بعيدا عن تأثيرات ما يجري في الأرض، خاصةً ما يجري في الاقتصاد.

ومما خلفه فينَا الاستعمارُ من أوبئة، استنكافُ المثقفين من الأعمال اليدوية الشاقة، وعادة هذه النخبة المفرنجة من ذوي الياقات البيضاء كما يقولون في الترفه والترف. فقد كانت مدارس الاستعمار تُخَرِّجُ أفواجا من المثقفين، وأنصاف وأرباع وأعشار المثقفين، ليكونوا أعوانا للإدارة الاستعمارية. لذلك الهدف أسسوا مدارسهم في أرضنا، إلى جانب مدارس التنصير، وفي دائرة الغزو الثقافيِّ.

فلما جاء الاستقلال الصوريُّ وجد هؤلاء أنفسهم ورثَةَ كرسيِّ الإدارةِ والرئاسةِ السياسيَّةِ، فساروا على نَمَط المستعمر. كلُّ موظف يرى من حقه الاستمتاع بالسيارة، والبيت الرفيه، والحديقةِ، والضَّيْعَةِ. وسُخرت جماهيرُ الشعب عبيدا جُدُداً لِسادةٍ جُدُدٍ، هم أنكى وأشدُّ بلاءً على أبناء جِلدتهم، وأقلُّ غَنَاءً، من المستعمِر الأجنبيِّ بالجنس والوطن.

مدارس الاستعمار خَلَّفت فينا احتقارَ الشَّعْب، لأنها لم تزرَعْ في النفوس التآخي بين المسلمين، بل زرعت الإعجاب المبهور بالغرب واحتقار ما سواه، وخلفت احتقار العمَلِ المنتجِ ولو كان شاقا، لأنها لم

تعَلِّمْ المسؤوليةَ بل علمت الخضوع للسيد. ولا تغيير يُرجَى إن بقيت أهدافُ التربية الإسلامية أملا منشودا ولم يُزَجَّ بالطفل اليافِع والشاب والكهل، في المدرسة والمعهد والجامعة، في معركة الإنتاج.

انتقالا من المدرسة الأجنبية شكلا، وذوقا، ومعلمين، ومادة، وتوقيتا، ونظاما،تعانقُ المدرسة الإسلاميةُ والمعهد والجامعةُ أحوال معاشِ الشعب وهمومَه ومشروعاته المحلية. ترتبط بالحياة العامة، بالعمل في الحقل، والمرافقِ الصحية، والمعمل المحلي، والتخطيط المستقبلي، والدعوة، ومحاربة الجهل. ليكن التلاميذُ والطلبةُ والأساتذةُ بناةَ الإسلام في الصف الأول، وليكنْ الاعتمادُ عليهم مَدْعاةً لشعورهم بالمسؤولية، والافتخارِ بقيادة العمل. هذا يَطْلُبُ ألا تُحَلِّقَ البرامجُ والدروسُ والأدمغةُ في أجواء الفلسفة و«الثقافة» التجريدية، بل تُشَمَّرُ الأكمامُ والذُّيولُ، ويُنْتِجُ الطفلُ واليافع والمعلم والأستاذ، إلى جانب التحصيلِ الفكريِّ، إنتاجا ماديا غِذائيا صناعيا. وقتٌ للعبادة وتعميق الإيمان في المسجد، وأوقاتٌ لحق النفس والأهل والمجتمع، بالجهد الشاق لإنتاج الرزق أولا.

مدارسُ منتجةٌ في كل المجالات، مستقلة ماليا بما تنتجه، غيرَ عالة على الدولة كما هو الشأن في الكارثة التي يسميها حكام الجبر نظاماً تعليميا. هدفٌ ضروري لمجتمع إسلامي يريد الأمنَ الغِذائي، والتصنيعَ المتكامل، والاستقلالَ الماليَّ عن مصارف اليهود. إدارةٌ لا تصْطَفُّ أمامَها السياراتُ الفخمة، لكن يسكنُها رجالُ في قلوبهم هَمُّ الله والآخرة والأمة. مهندسون لا يُنتجون الأوراقَ المسطرة، ولا يملأون الاستمارات، لكن يشاركون بأيديهم إلى جانب العامل البسيط، والتقنيِّ المتوسط، في الإنجاز بروح الأخوة، والساعد

القويِّ، والتعليم الرفيق. متعلمون أشداءُ على المهمات لا مثقفون ذوو بطون رخوة وعقولٍ أجنبية.

بُناةٌ خبراء

نريد أجيالا حاملةَ رسالة، تتضلَّع من علوم القرآن والسنة وأحكام الشريعة على كل المستويات. ثم تستطيع أن تخدُمَ تلك الأهدافَ التي حددها القرآن، وعلَّمَتْها السنةُ، وحددتها أحكامُ الشريعة، بأحدث خبرة وأعلاها وصل إليها الإنسان. ليكن أعدى أعدائِنا في هذا المجال المثقفُ الحالمُ الماديُّ رقيق الدين الفيلسوف الطفيليُّ العقيمُ. قال العلامة ابن خلدون رحمه الله يصف ابتعاد النُّظار (وهم المثقفون الماديون خاصة) عن الواقع، وعجزهم عن التأثير العمليِّ فيه: «فهم متعوِّدون في سائر أنظارهم الأمورَ الذهنيةَ، والأنظارَ الفكريَّةَ، لا يعرفون سِواها. والسياسةُ يحتاجُ صاحبُها إلى مراعاة ما في الخارج وما يَلْحقها من الأحوال (...). والعامي السليمُ الطبع المتوسطُ الكَيْسِ لقصور فكره عن ذلك، وعدم اعتيادِه إياه، يقتصر لكل مادة على حكمها (...)، ولا يفارق في أكثر نظره الموادَّ المحسوسة، ولا يجاوزُها في ذهنه، كالسابِح لا يفارق البَرَّ عند الموج».[1] كان المثقفون الماديون الشاكون منهم والملحدون ماضِغو الكلام آفة على عهد ابن خلدون رحمه الله ولا يزالون آفة كل عصر.

لا نريد معاملَ تفريخ تخَرِّجُ خبراءَ في اللفظ والحذلقة، بل نريد تلامذة، وطلبة، ومدارسَ، ومعاهدَ، مجندة لخدمة الغاية الإيمانية الإحسانية، ولتحقيق الأهداف العملية الإنجازية لدولة الإسلام

(1) المقدمة، ص: 1046.

المجاهدة وسط عالم مترصد مليء بالتحديات. في معامل التفريخ التي نرِثُها عن أنظمةِ الفتنة روحُ التمرد على القيم، وأخلاقُ العِصَابَةِ المُخَرِّبة، وأفكارُ الامتساخ الثقافي. وفي المدرسة الإسلامية نريد النظام، والاستقرار، والمسؤولية، والخبرة البناءة، بقيادة القرآن وأهل القرآن.

من أهم مشاكل بناء الأمة من جديد مشكلُ اقتباس العلوم الصناعية والفنون الاختراعية، ثم إدخالُها في الإسلام، وتسخيرُها لغايتنا وأهدافنا، ثم توطينُها في بلادنا، وعند أولي العلم منا حتى تصبحَ لنا مِلْكا مستقلا، حيّا متطورا، بحيث ننافِسُ في ميادين الصناعة، وتطوير الوسائل، ما ينتجه اليومَ وغدا خصومُ الإسلام وأعداؤه من وسائل السّلم والحرب. لا نَفْصِلُ الخبرَة العمليَّةَ وأهدافَها الماديَّةَ عن غاية الإيمان والإحسان. لا نُنْتِجُ للاستهلاك الدوابيِّ بل للكفاية والكرامة الإنسانية، لا نصنَع أسلحة للتخريب والعدوان، بل لصد المخربين والمعتدين.

كانت العلوم الكونيةُ التي احتضنها المسلمون وطوروها طيلة قرون تخدم أهدافَها بمهارة شهد بها التاريخ. فلما دخل الوهْن أنفُسنا كسَدَتْ سوقُ العلوم النقْلية والعقلية في أرضنا. بدأ تراجُعُنا الفكريُّ بتراجعنا عن الغاية. وفي غد دولة القرآن القريب بحول الله إن حيِيَتْ الغايةُ في قلوبنا، فلن تقفَ مشاكلُ الوسائل عقبةً لا تُقْتَحَمُ أمامَ عزائم الرجال، إن نحن ربطنا في تربيتهم علومَ الوسائل بعلم القرآن وبواعثِ الإيمان، إن شاء الله الحكيم العليم.

التكنولوجيا في يد الكفار سكنَتْها روحُ الكفر. نسترجعها إن شاء الله من خِلالِ معاركِ العلم، ونطرد منها شيطانَ الجاهلية، وننفخ

فيها روح الإيمان. آياتُ الله في الكون موضوعة لنا، مسخرةٌ لنا، إن نحن تعلمنا أسرارَها ونواميسَها. فإن قلَّبْنَا نظر القلب في آيات الله المنـزلة المتلوة بنية جديدة، فسيُحْدِثُ الله العلي العظيم لنا من فضله ذكاء جديدا، وعزما جديدا، لنستعيدَ بهما ما خرج من أيدينا من هذه العلوم الكونية. وما يكون ذلك إلا بالخضوع لنواميس الله في الكون، وبالمنهاج العلمي التجريبي، وباتخاذ الأسباب واحترامها، فهي من وضع الله عز وجل.

اللغة العربية الشريفة

شرفها الله عز وجل أن اختارها وعاء لكلامه العزيز. فوجودنا المعنوي، وعزتُنا، ومستقبلُنا، رهنٌ بأن يعاد لهذه اللغة مجدُها وسيادتُها. وسنبقى صُما عن معنى ديننا إن لم نُتْقِن لغة القرآن، بُكْماً عن تبليغ دعوة الله إن اخترنا رَطانَة الأعْجام على اللسان العربي المبين، عاجزين كَسِيحينَ عن استنقاذ العلوم الصناعية الكونية وتوطينها إن لم تكن لغتُنا واحدةً قويةً فصيحةً في كل الميادين. ولقد كادت العربية بما همشها وعاداها المتفرنجون أن تصبح لغة كَهَنوتية في الكتب الفقهية وعلى منابر الوعظ الوديع المُسالم، أو لغةَ صَحافة يقودُها من أنفها أولادُ النصارى العربِ إلى الهُجانة والرَّطَانَةِ. لا وجودَ للعربية، و لا يكادُ، في مختبرات العلوم، وملتَقيات الخُبراء، ودروسِ التخصص العالي. وحتى في ميدان اللغة العربية الأصليِّ، وهو فهم القرآن والحديث، واستنباطُ الأحكام لا تجد تلك الفعالية المطلوبةَ، لأسباب أهمُّها تنحيةُ الشريعة من حياة المسلمين العامة، وفسادُ المَلَكَةِ اللغوية التي تُعَد من المقوِّمات الأساسية للاجتهاد.

في دولة القرآن، وحيثما كان الرب ربا والقرآن كتابَه، يجب أن تكون لغة القرآن كما قال الإمام الشاطبيُّ رحمه الله سيدة اللغات: «إن كان (أي القرآن) بُعِث للناس كافَّة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألْسُنِ في هذا الأمر تبَعاً للسان العرب. وإذا كان كذلك فلا يُفْهَمُ كتابُ الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عَلَيْه، وهو اعتبارُ ألفاظها ومعانيها وأساليبها».[1] قلت: وإذا كان ذلك كذلك، وجب على المسلمين أن يجعلوا لغةَ القرآن اللغة الواجبَ تعلُّمُها، وأن يكون تعلمهم اللغاتِ الأجنبيةَ وسيلةً لإثراء محصولنا من العلوم الكونيَّة، ريثما نستقل بها. وفي بلاد العجم المسلمين يُفْرَضُ تعلُّم العربية وهجرُ ما سواها تدريجيا. قال العلامة ابن خلدون رحمه الله: «الدين والمِلة صورة للوجود وللمُلْك، وكلُّها موادُّ له. والصورة مقدَّمَة على المادة. والدين إنما يُستفاد من الشريعة، وهي بلسان العرب لِمَا أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عربيٌّ، فوجب هجرُ ما سوى اللسان العربي من الألسُنِ في جميع ممالكها. واعتَبِرْ ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم. وقال: «إنها خَبٌّ، أي مكر وخديعة».[2]

كانت لغةُ القرآن عزيزة بعزة المسلمين، فلما ذلوا خذلوها. وكانت في عز سلطان الإسلام كلُّ اللغات هباءً منثوراً بالنسبة لِلُّغة السيدة. وكذلك نريد لها بعد مراحل توطين العلوم فيها. قال ابن خلدون رحمه الله: «ثم الملةُ الإسلامية لَمَّا اتسع مُلكُها، واندرجت الأمم في طَيِّها، ودَرَسَتْ علومُ الأولين (أي اندرست فلسفات الجاهلية) بنبوَّتها وكتابها (...)، وتشوقوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم، وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجَرَّدُوها من تلك اللغات الأعجمية

(1) «الاعتصام»، ج2، ص: 294.
(2) المقدمة، ص: 675.

إلى لسانهم، وأَرْبَوْا فيها على مداركهم. وبقيت تلك الدفاترُ التي بلغتهم الأعجميةِ نِسْياً منسيا، وطَلَلاً مهجورا، وهباء منثورا».[3]

آداب التعلم

في مدارس ومعاهد وكليات الفتنة المعاصرة تنعكس في سلوك التلاميذ تُجاهَ الأساتذة، وفي عجرفة هؤلاءِ، آثارُ العلاقات الفاسدة في المجتمعات التي تغلغل فيها النفوذ الثقافيُّ والحضاريُّ الاستعماريُّ. ونريد لغد الإسلام علاقات بين العالم والمتعلم على النمط الإسلاميِّ. كان مجلسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس علم وحلم، لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ، وكانوا أمامَه ساكنين كأنما على رأسهم الطيرُ: «كان مجلسَ حلم وحياء وصبر وأمانة، لا تُرفَع فيه الأصواتُ، ولا تؤبَنُ فيه الحُرَمُ. يتواصون فيه بالتقوى متواضعين، يوَقِّرونَ فيه الكبيرَ، ويرحمون فيه الصغير، ويُؤْثِرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب» كما روى المفسرون عن علي كرم الله وجهه.

لا يجيء هذا بالزجر والإكراه، بل يَنتُجُ عن سيادة الخُلُق القرآني السنيِّ في المجتمع بسيادة الربانية الإيمانية.

التربية الجمالية

جمالُ النفس المؤمنة وطمأنينتُها يتجلى في سيما الوجوه الساجدة المنوَّرَةِ، وفي جمال السلوك الخلُقِيِّ من صبر جميل، وصفح جميل، وسَرَاح جميل، وهجر جميل كما جاء في القرآن. وينبغي للمجتمع

(3) المقدمة، ص: 1053.

الإيمانيِّ أن يكتسي بالسَّمْتِ الجميل والمظهر الكريم النظيف. لا تَرَفَ ولا زخرفة، لكن المظهرُ اللائقُ البسيطُ، الجميلُ ببساطته وبما ينِمُّ عنه من جمالٍ في الباطن. في الحديث: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال**». فيرَبَّى النشءُ على دوام الطهارة والنظافة، والسواك، والتطيب، والعناية بخصال الفطرة من شعر وأظفار. ويُرَبَّوْنَ على لُبس اللباس البسيط الأنيق بلا ترف ولا تَشَبُّه بالكفار ولا تكبر، وعلى ترك الزينة الحرام، وعلى الكلمة الطيبة، والحياء والوقار، والبِشْرِ الدائم والابتسامة المشرقة، وكلمة السلام عليكم، وتشميت العاطس إلى سائر ما فصلته السنة النبوية من جماليات وآداب.

قال القاضي ابن العربي رحمه الله يصف أنواعَ الجمال والتجمل: «فأما جمال الخِلْقَةِ فهو أمرٌ يدركه البصر، فيلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلقُ به النفسُ من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحَد من البشر. وأما جمالُ الأخلاقِ فبكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لصالح الخَلْقِ، وقاضيَةً بجَلْبِ المنافع لهم، وصرفِ الشر عنهم».[1]

روى أبو داود رحمه الله بسند حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحـابه: «**إنكم قادمون على إخوانكم. فأصْلِحوا رِحالَكم، وأصلِحوا لباسكم حتى تكونوا شامةً بين الناس. وإنَّ الله لا يُحب الفُحْشَ ولا التَفَحُّشَ**». والفحش هنا بمعنى الغِلظة والجفاء في المظهر. ألا وإننا حَمَلَةُ رسالة سماوية، فلنَبْرُزْ لِلناس بصورة جذابة، ولنكُن شامةً بين الأمَم نُلْفِتُ الأنظارَ

(1) «أحكام القرآن»، ج3، ص: 1129.

بجمال خُلُقِنا وأفعالنا ومظهرنا. وليَسُدْ الدولة الإسلاميةَ السمتُ الإسلاميُّ، والتظرفُ، والتلطُّف، لنوازِنَ بذلك الاخشيشانَ الجهاديَّ والقوةَ الغلاَّبة. ولْنَطرُدْ وثَنيَّة عبادة الأشكال من حياتنا وذوقنا، تلك الوثنيةُ التي ورثتها جاهلية اليوم عن اليونان.

الفصل الثامن

الإعلام



- الحربُ الإعلامية
- إعلامٌ إسلامي لمواجهة إعلامهم
- التلوث الإعلاميُّ
- تحبير القرآن
- الشعرُ فيهم مؤثر
- السماعُ والموسيقِي
- الإعلامُ والسياسةُ
- إعلامُ التبذير

الحربُ الإعلامية

من سمات هذا العصر أنّ المسافات فيه طويت، والمواصلات بين أجزاء المعمورة بلغت إلى حد أن أي خبر يمكن إبلاغه من أيِّ نقطة في الأرض مجهزة إلى أي نقطة أخرى في ربع ثانية عبرَ الأقمار الصناعية. في كل بيت آلاتُ التقاط للبَثِّ المرئيِّ والمسموع، ومع كل متنَصِّتٍ مذياع. ويستعمل أعداؤُنا هذه الأجهزة التي يحتكرون صناعتها، وتجارتها، ويطوِّرونها خارج مداركنا للتجسس علينا، وتشويه سُمعتنا، وتغييرِ أفكارنا، والتأثيرِ على شعبنا بالخبَرِ المصنوع، والدعايةِ التجارية، والوسوسة الدائمة. يستعملون أجهزة الإعلام أدواتِ حَربٍ، ووِكالاتُ الأنباء وشركات الدعاية معاقلُ لِشَنِّ الهجمات علينا.

إلى جانب الحرب النارية، مثلِ تحريق بيروت المسلمة وغزو أفغانستان وتخريب حماة، وإلى جانب الغزو بالوسائط، كانقلاب العساكر، وتأليب دولة مستضعفة على أختها، وتزويدهما بالسلاح، هناك هذه الحربُ الماكرةُ التي يندَسُّ فيها الشرُّ إلى النفوس. هنالك الأفلامُ العنيفَة والماجنَة، هنالك أشرطةُ التلفزيون المائعةُ القذرةُ، هنالك المجلاتُ الخليعةُ، والكتبُ والجرائدُ، هنالك الأغاني والأنغامُ على الهواء، وفي الأسطوانات. وكل ذلك يَحْمِلُ علينا بسيل من العُدْوان فتاكٍ. يتعلم الصبي بالمثال من الهم المقيمِ بالبيوت، جهازِ التلفزيون أو المذياع، أنماطَ السلوك الجاهلي، وتتعلم المرأة والصبية التبرجَ وخلْعَ الحَياء، ويتعلم الكُلُّ الزنى والغِشَّ والخِداع والكذب، ويُحاكى الكل سُكر الممثلين، وتَرَفَ المَشَاهِد، ورقص المقاصف.

يدخل علينا التفسخ الخلقيُّ وانحلالُ العزائم من تلك النوافذ المفتوحة، بل الأبواب المُتْرَعة، ولا مَناعَةَ لنا من خُلُقٍ يحمينا من التردِّي في تقليد الجاهليين. كيف وبضائعُهم الترَفيَّة، وخمورُهم، ومخدراتُهم، ونواديهم الماسونية اليهودية موفورة الكرامة محمية الجانب في بلادنا الرازحة تحت الحكم الجبري ! لا مناعةَ لنا خُلُقِيَّةً، ولا رادعَ من القانون، ولا حيلةَ لِلمصابين. أعرفُ رجلا متدينا منع من بيته التلفزيون زمانا ثم أباحَه. فلما سُئِلَ قال: «كبُرَ أبنائِي فخفتُ أن يرتادوا السينما وتجرفَهم رُفقتُها وفسادُها، فارتكبت أخفَّ الضررين». وأعرف أن من المسلمين من يُطَلِّقُ الزوجةَ يضعُ أمامها الخيارَ بين أن تُخْرِجَ المذياعَ أو تخرُجَ معه. لا حيلَةَ ولا منعَةَ ولا رادعَ.

يربي الآباءُ والأمهاتُ الأبناءَ على سلوك إسلاميٍّ، وقد يكونُ في المدرسة والكليةِ أساتذة يعطون المثال الطيبَ، ويبنون الفضيلةَ. لكنَّ كلَّ ذلك يذهبُ أدراجَ الرياح أمامَ عواصف الدعاية الإعلامية، والقَنبَلَةِ الدائمةِ للفكر والشعور. اخترعوا تلك الوسائل الجهنمية وسخَّروها لنشر ثقافتهم، وترويج بضاعتهم، ولا يُمكن اختراعُ تُرسٍ واقيةٍ من فتك تلك الأسلحة. أمامَ القَنبَلة الإعلامية اليومية لا تُجدِي الموعظةُ، ولا المنطقُ، ولا التوبيخُ والزجرُ، ولا كسرُ الجهاز. فإنك إن كسرتَ جهاز البيت بقيتْ أجهزةُ الشارع والمدرسة. إلا أن تغلق بابَكَ على من فيه، وتظَلَّ سَجَّانَ أهلِك وبنيك.

لا تُجدي الموعظةُ العزلاءُ، ولا المنطقُ، إنما تُقنع الصورةُ، والصوتُ، وما يُؤَلِّفُ منهما فن الإعلام من رسالة مبرمجة، مدروسة، لتتسلل إلى أعماق النفس، فتحدثَ فيها الانفعال المطلوبَ، من رجَّة غضب، أو هبَّة إقبال وقبول، أو نفْرة كُرْه وتَقَذُّر.

أجهزةٌ وفنٌّ شيطانيَّان لأنهما استُعْمِلا لأهدافٍ شيطانية، فإذا انتزعناهما من يد العدو، وشهدا شهادة الإسلام، فمن الممكن استعمالُهما كما تُستعمل أكثرُ الوسائل جدوَى لتبليغ رسالة الخير، وتحبيب الحق، والتنفير من الباطل.

وإن الخَطابة، والتمثيلَ، والصورة، والنشيد، واللونَ، إذا عالجها الفن الإعلاميُّ من زاوية إسلامية، وبمعايير إسلامية، وسخرهما المؤمنون لغايتنا وأهدافنا، لَمِنْ أهم وسائل التعليم والتربية وتسديد الرأي العام.

إعلامٌ إسلامي لمواجهة إعلامهم

عن قريب تعم هذه الأقمارُ الصناعية أجواء المعمور، ويعم البثُّ التلفزي العالمي، فيصبحُ من الممكن للرأسمالية العالمية، وللجاهلية الأخرى، أن تبعثا إلينا على أمواج الأثير صُوَرَ دعايتهما بالمجان كما تفعلان الآن بأصوات الإذاعة. وستكون عندئذ المنافسةُ على أشُدِّها بين الإعلام الإسلامي في الدولة الإسلامية وبين الإعلام الجاهلي العالمي. فهل نُسكِت الأصواتَ وندمَغُ الصُّوَرَ بدعوى أن ذلك حرامٌ لا يبيحه الشرع قياسا على ما أَلِفْنَا من اقتران الصوت والنغمة بحُداء الزِّنَى وهو الغناء الحرام، ومن اقتران الصورة بالعُرْيِ والتبرج وخلع رداء الحياء؟

أم هلْ نحارب ذلك الغزو بغزو مضادٍّ، نستعمل فيه تلك الوسائل الخاصة، كما نستعمل في الجهاد نفس الأسلحة التي يستعملونها في العُدوان العسكري؟

إن الإعلام الإسلامي يجب أن لا يُنَوِّمَ المسلمين، ولا يأمرهم بالمنكر بأباطيل الرواياتِ التمثيليةِ التي تمجدُ الزنى، ولا بالدعاية لسلع الاستهلاك الترفية، ولا بالدعاية الكاذبة للحاكم، ولا بالتهييج والتهويل. وفي حدود الشريعة الغراء مجالٌ لإنشاء إعلام نظيف شريف عفيف.

التلوث الإعلاميُّ

ألا يمكن تأسيسُ نظام صحافة لا يَطْعَنُ في الأعراض، ولا يُماري ولا يداري، ولا يُمَوِّه الحق؟ ألا يمكن إيجادُ إذاعة مرئية ومسموعة لا تبلد الحسَّ، ولا تمسخ الفكر، ولا تُضِلُّ النفس؟ ألا يمكن ضبطُ مواعيدِ الإذاعة، وصرفُ الناس عن مغناطيسيتها ليتفرغوا للعمل المنتج؟ فإنه لا بد للمؤمن من وقت ينصرف فيه إلى ربِّه، ومن وقت يقضي فيه حوائج أهله، ومن وقت لنفسه وزَوْرِه وكسبه. فإذا تدخلت مواعيدُ التلفزيون، وبرامجُ الكرة اختل النظام، وتكدرت الأوقات، وتشوش قَضاءُ الحقوق.

وكما يتعوَّد شارب المخدرات على سمومه حتى لا يجد منها فكاكا، وكما يتلوث الجسمُ بالجراثيم المرضية، فإن هذه المهيجاتِ الإعلامية لَوَّثَتْ العقولَ والنفوسَ، وتعاظمت سيطرتُها على العامة، فلا حديث لهم إلا تعليقا على أخبارٍ متلاحقة، وأفلامٍ متجددة، ومسلسلات مترابطة. ولا رأي لهم إلا ما تطبعُه الصورةُ في الخيال، ويدقُّه الإيقاع كالمسمار في أحشاء السامع، وتُطَرِّقُه النغمة في الآذان. شيطان يوسوس، وتتخبط من مَسِّه الخلائقُ. أوقاتٌ لو استغرقها السعي على العيال لكان عبادةً، ولو استغرقها المُباح من أمر الدنيا لكان متاعا.

فكيف وقد تمضى الساعات الطوال في السماع الحرام، والنظر الحرام، والفكر الشيطاني، وحديث النفس الخبيث! إذا رفَعَ الملكانِ صحيفة العبد اليوميَّة ممتلئةً بالغِناء والرقص، ومشاركةِ الشارب والعابث والزاني بالنظر والمرافقة، فأيةُ حصيلة تُجْمَعُ له ليوم معاده؟ ثم ما مصير هذه القلوب، التي ورَدَ في الحديث أن الذنْب يَنْكُتُ فيها نُكتة سوداءَ، وهي مُعَرَّضَةٌ لتلك المخازي يوميا آناءَ الليل وأطرافَ النهار؟ ماذا ينطبع فيها؟ أيُّ ظلام يدخُلُ عليها؟

تحبير القرآن

أُولى وظائف الإعلام الإسلاميِّ أن يَسْتعمِل سُلطانَ الصوت، والصورةِ، واللونِ، والحرفِ المطبوع، وفنَّ الإخراج، لتبليغ الدعوة، وترديدها على الأسماع، والأبصار، والأنفس، والعقول، بشتى الأساليب، حتى تنطبع بها الأخلاقُ، والأفكارُ، والسلوك. الأصلُ هو التبليغُ المباشر من فم لأذن، فإذا دخلت بين الداعي والمدعو وسائل أخرى فهل يؤمَنُ التلوثُ؟ بعبارة أخرى: ألا يُفْسِدُ الشكلُ الإعلاميُّ الرسالةَ التي يحملها، و يُشَوشُ عليها، ويُلْهِي الناظرَ والسامعَ والقارئَ عن المضمون؟ قد يقول قائل: هذا كلام الله أمرنا أن نتغنَّى به الغناءَ السنيّ، وأن نجوِّدَه، وأن نُحَبِّرَهُ. لكن كيف نستبيح أن تدخلَ الصورة الصناعية في العملية؟ وكيف يُسجل كلام الله على أشرطة لا ندري من صنعها وممّ صنعت؟

هذه الذهنيةُ موجودةٌ، ونذكر جميعا المعارك التي حمِيَتْ بين متفقهة المسلمين لما ورد البرق والهاتف والمذياعُ. ولعلنا لا نحتاج إلى كثير من العناء لنُقِرَّ بأن النظرَ الحرام حرامٌ مباشرة وبواسطة المرآة. فلو أنَّ

مُكَلَّفا نظر إلى عورة غيره في المرآة لكان مرتكبا للذنب، ولو أنه تجسس بسمَّاعة لكان كالمتجسس بالأذن المباشرة. فكذلك النظر والسماعُ بوسائطِ الكهرباء والإلكترون، ما كان منظرا أو سماعا حلالا في الحس المباشر فهو حلال في الحس الموسوط، وما لا فلا.

الشعرُ فيهم مؤثر

إذا صح لنا هذا، فإن وسائلَ الإعلام يُجَبَّرُ فيها القرآن، وينشدُ الشعر، ويَلْحَق بالشعر ما استُحْدِث من تشخيصِ القصص.

للتربية بالشعر مكانة في تاريخ الإسلام، والقصَصُ بلاغةٌ قرآنية ومنْحىً أساسيٌّ من مناحي الخطاب القرآني. روى الترمذيُّ رحمه الله وصححه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عُمْرة القضاء وعبدُ الله بن رَواحة يمشي بين يديه يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليومَ نضربْكم على تنزيله

ضربا يُزيل الهَامَ عن مَقيلهِ ويُذْهِلُ الخَليلَ عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحَة ! في حَرَم الله وبين يَدَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول الشعرَ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**خلِّ عنه يا عمر! فإنه** (أي الشعر) **لأسرعُ فيهم من نَضْحِ النبل !**» (أيْ يؤثر فيهم أسْرَعَ مما يُؤثر النبل). وفي رواية:

نحن ضربناكم على تأويلِهْ كما ضربناكم على تنزيلِهْ

وقد جاء كعبُ بنُ زهير رضي الله عنه تائبا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشده في مسجده الشريف قصيدة «بانت سعاد»، وفيها من الغزَلِ ما يضيق به المُتَزَمِّتُ لولا أنه صح أنَّ رسول

الله صلى الله عليه وسلم سمعه وخلع على الشاعر التائبِ بُرْدته على عادة العرب فيمن يمدحهم. وكان لهذه البُردَةِ تاريخ يشهد لمكانة الشاعر المدافع عن الإسلام، المادحِ لدين الله ورسوله.

أسلمَتْ قبيلة دَوْسٍ عن بَكْرَة أبيها لَمَّا سمعت قصيدة كعب بن مالك رضي الله عنه الفائية التي أنشدها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. عندما سلك إلى الطائف بعد غزوة حنين.[1] على هذا نقيس كل ما من شأنه أن يؤثر من قول بليغ، أو خُطبة فصيحة، أو تشخيص أو قصص، فكان من الوسائل الضرورية للدعوة.

السماعُ والموسيقى

هذه نقطةٌ خلافية بين فقهائنا. ويُطْرَحُ علينا سؤالُ الحدِّ بين اللهو المباح، وبين القول البليغ الذي يؤيده وزنُ الشعر، أو إخراجُ التمثيل، أو إيقاعُ النشيد ونَغمته، وبين السماع الحرام. نترك لفقهائنا مجالَ الحديث، نكتفي بالإشارة إلى أن دولة القرآن تدخلُ حربا شاملة مع الجاهلية منذ إعلان قيامها، ومن واجهات هذه الحرب الإعلامُ بكل أسلحته. فمَنْ كان يظن أن بوُسْعنا أن نُسْكِتَ كل نأْمَةٍ لنترك المجالَ للمنافس الهاجم على أمواج اللاسلكي واللازر والأقمار الصناعية فإنما يريد لنا الهزيمةَ. ودع من يسارعُ إلى الاتهام بالترخص والتهاون في الدين حتى يأتينا الله وإياه بوُسْعٍ من كان يستمع إلى «بانت سعاد» في المسجد ويُثيب عليها ويكافئ. صلى الله على من علمنا أن هذا الدينَ يُسرٌ. ثم هاكَ الفقهَ.

(1) انظر الخبر والقصيدة في «أحكام القرآن»، لابن العربي، ج2، ص: 898.

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حُداةٌ يُغَنُّونَ للإبل أثناءَ الرحيل، منهم عبدُ الله بن رَواحة الشاعرُ، وأَنْجَشَةُ وغيرهما رضي الله عنهم. وهذا كثيرٌ في كُتب الصحيح والسير. وفي هذه الكتب أيضا فقهُ الضرب على الدف في العيد والزفاف، وغناء الجواري في بيت النبوة. بقيَ الجمع بين الإيقاع ونغمةِ الغناء، فلا نرى أنَّ ما أبيح متفرقا يمنع مجتمعا إلا بدليل، وأين هو؟

عقد الشيخُ عبد القادر رحمه الله فصلا للسماعِ في كتاب «الغنية»، وتحدث الغزاليُّ رحمه الله في الإحياء طويلا عن السماع وآلاته. وكلا الإمامين يرخص في السماع بشروطه وآدابه الشرعية. قالوا: هؤلاء صوفيَّةٌ متهاونون.

نسرُدُ هنا بالحرف ما أوردَه الشوكانيّ المحدث الفقيه من أدِلة على إباحة الوَترِ والإيقاع والغناء بعدما أورد أدلة المنع، ونترك للمخالف حريته. قال رحمه الله: «ذهب أهلُ المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعةٌ من الصوفية إلى الترخيص في السماع ولو مع العود واليراع (وهو الزمارة). وقد حكى الأستاذُ أبو منصورٍ البغداديُّ الشافعيُّ في مؤلَّفه في السماع أن عبد الله بنَ جعفر كان لا يرى في الغناء بأسا، ويصُوغُ الألحانَ لجواريه، ويسمَعُها منْهُنَّ على أوتاره. وكان ذلك في زمن أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه. وحكى الأستاذُ المذكورُ مثلَ ذلك أيضا عن القاضي شريح، وسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والزُّهريِّ، والشعبيِّ. وقال إمامُ الحرمين في النهاية وابنُ أبي الدَّم: نَقَلَ الأَثْباتُ أنَّ عبد الله بن الزبير كان له جوارٍ عَوَّادَات، وأنَّ ابن عمر دَخل عليه وإلى جنْبِه عودٌ، فقال: ما هذا يا صاحبَ رسول الله؟ فناوله إيَّاه، فتأمَّله ابنُ عمر، فقال: هذا ميزانٌ شاميٌّ ! قال ابنُ الزبير: يوزَنُ به العقولُ ! ورَوى الحافظ أبو محمد بن حزم في رسالته في السماع بِسنده

إلى ابن سيرين قال: إن رجلا قدِمَ المدينةَ بجَوَارٍ، فنـزل على عبد الله بن عمر، وفيهنَّ جاريةٌ تَضْرِبُ. فجاء رجلٌ فساومه، فلم يَهْوَ منهنَّ شيئا. قال: انطلق إلى رجلٍ هو أَمْثَلُ لك بيعا من هذا ! قال: من هو؟ قال: عبد الله بن جعفر. (...)

«ونقل ابن السمعانيِّ الترخيصَ عن طاووس، ونقله ابنُ قتيبة وصاحبُ «الإمتاع» عن قاضي المدينة سعدٍ بن إبراهيم بن عبد الرحمن الزُّهْريِّ من التابعين (...). وحكى الرُّوياني عن القفال أنَّ مذهب مالك بن أنس إباحةُ الغِناء بالمعازف».[1]

حاش لله أن نَقبَلَ صوتَ النساءِ الأجنبيات، ولا صورَتَهُن المتَبَرِّجَة، ولا ميُوعة الغناء غير الهادفِ للبناء، وتطهيرِ النفوس، والترويحِ المباح.

الإعلامُ والسياسةُ

لهذه الاختراعاتِ التقنيَّةِ أثرٌ عميقٌ في حياة الناس. فكانت الطباعةُ والصحافة وسيلتين هامتين في بث الأفكار، وصناعة الرأي العام. والصحافةُ المرئية اليومَ وما يجيء في ركابها في موكب «الثورة الإعلامية» التي بدأ عهدُها، وتُؤْذِنُ بالعجائب، مؤثراتٌ حاسمة في حياة الأمم. ووسائلُ محايدةٌ تستعمل في بلاد الديمقراطيات لتنَظِّمَ الصراعَ السياسيَّ. وفي بلاد الاستبداد الآخر الشيوعي تَحْتكِرِ الدولةُ تلك الوسائلَ لتفرض الرأي الموحد، وتصوغَ الذهنية الموحدة. وتجتهدُ كل مؤسسة إعلامية حكومية أو حرة لتستحوذ على ألبابِ الجمهور، فتُسيغ للنظارة والسامعين الكَذْبَةَ السياسية، والخبر الْمُلَفَّق، من خلال

(1) «نيل الأوطار»، ج 8، ص: 264 وما بعدها.

الصناعةِ الإعلامية التي تدُسُّ الكذب والتمويه في مادة النقل الموثق كما يُدس السُّمُّ في الدَّسَم.

إنَّ ظهورَ الساسة على شاشة الصحافة البصرية السمعية في الوقت المناسب، وبالشكل المناسب، وبنبرة الصوت المناسبة، وبالتحليل السياسيِّ المناسب، أصبح موضوع حرفة لها مُهَنْدِسُوهَا وخُبراؤُها، ومستشاروها.

فبعد أن كانت الخَطَابَةُ المباشِرَةُ على مَرِّ العصورِ هي سلاحَ الزعيم الأوَّلَ، ووسيلة إقناعه، وأداةَ اتصاله، دخلت الصناعةُ الميدان. فيتقدم المرشَّحُ إلى صانع الصور يزوده بشخصيةٍ إعلامية جذابة ولو كان عَيِيّاً أخْرَقَ. أما الحاكم المستبد الذي وصل إلى الحكم بانقلاب عسكريٍّ، أو بواسطة الحزب الثوريِّ، فينقَضُّ على أدوات الإعلام، وترفعُه إلى قمة الزعامَة المغناطيسية، لا يقتضي ذلك منه إلا أن يَرْفَعَ الصوتَ، ويُجِيدَ التمثيلَ. فما زالت هذه الجماهيرُ البشريَّةُ ضحيةً للمؤثرات التي تملأ السمع والبصر، فتسد على الفكر والرأي الحر المنافذ، وتفتحُ الباب للانفعال والهِياجِ.

وما زال التهويلُ والتمويه والفخفخَةُ أسلحةً إعلامية يستعملها الحُكَّامُ المستبدون. رأيْنَا كيف كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤُه الراشدون آحاداً من الناس في لِبَاسِهم وطعامهم، مع العامة في قضاء حوائجها، في المسجد، وفي السوق، وفي زيارة الرعيَّة، يستجيبون للداعي. فلما انفصل الحاكم عن الأمة واستبد، دخلت صناعةُ الاستكبار لتوطِّدَ علاقات فرعونيةً بين الحاكم والرعية. قال العلامة ابن خلدون رحمه الله: «وربما يسمو بعض هؤلاء (يعني الثوار العسكريين رؤساء العصبيات) إلى منازع الملوك الأعاظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والحروب والأقطار والممالك. فيتحَلَّوْنَ

بها: من الجلوس على السرير، واتخاذِ الآلة، وإعدادِ المواكبِ للسير في أقطار البلد، والتختُّم، والتحية، والخطاب بالتهويل، ما يَسْخَرُ منه من يُشاهِد أحوالهم». [1]

كانت هذه الوسائلُ التهويلية في مهدها، تقَلِّدُ في اتخاذ السرير والخاتم، وفي ترتيب المواكب، وإلقاء التحية، وتوجيه الخطاب ذكرياتِ الأكاسرة والفراعنة ونموذَجَ القياصِرة. أما اليومَ فقد أُضِيفَ إلى «البروتوكول» التقليدي والمتطور، الذي كان محدود التأثير على من شاهد الموكبَ، أو دخل البَلاط، أو جلس على البِساط، «بروتوكول» مصنع مجهز بأحدث ما هنالك. ومع كل رئيس دولة، خبراءُ في صنع الصور وفنِّ الإخراج، ومستشارون، وكَتَبَةُ خطب، واختصاصيون في صف الشعر، وصبغ الوجوه، وتفصيلِ الملابس. بل تُسْتَدْعَى الشركات المتخصصة في المناسبات الكُبرى لتُشْرِفَ على عمليَّةِ التزوير، وسِحْرِ الأنظارِ، وسَرِقَةِ الانفعالات.

إن اتصال أمراء المسلمين بالعامة في دولة القرآن، وتنظيمَ مجالس الإيمان في المسجد، وتجمعاتِ الدعوة بالأعداد الوافرة والاحتفال، يجب أن تَتَّسم بسِمَةِ الآداب الشرعية. فإذا نُقِلت إلى الشاشة والمذياع نَقَلَتْ معها تلك الآداب، ونَقَلت وقار المسجد، وسكينة عُمَّارِ المسجد. وإذا علمنا أنَّ التجمعاتِ الجماهيريةَ الانفعاليَّة يَهبط مستوى الذكاء في أفرادها أثناء التجمع إلى الصبا، وتهبط القدرةُ على التمييز بين الحق والباطل، والكذبِ والصدقِ، إلى دَرَكَةٍ مُتدَنِّيَةٍ، تَجَلَّى لنا أَيَّةُ جِناية نجني على الأمة إن وضعنا وسائل الإعلام في يد منافقين أو مُهَرجين. فإن نفَذَ صِدْقُ الدعاة بسلطان هذه الوسائل على الحس والفكر والشعور إلى الجماهير كان حريا أن يكون التلقي، كما نرجوه،

(1) المقدمة، ص: 673.

سبَبَ اهتداءٍ، وتعلُّمٍ، وذكرٍ لله عز وجل. وعلى الواعظ الأول، والمربي الأولِ في الدولة الإسلاميَّةٍ، وهو الإمامُ، أن يستعمل وسائل الإعلام لنشر خطبة الجمعة والعيدين، وليتصلَ الاتصال الدائمَ والقريب بالأمة، يشُدُّ بذلك ويَعْضُدُ الاتصالَ اليومي مع العامة، ومع رجال الدعوة والتربية.

إعلامُ التبذير

تُمَوَّلُ شركات الإعلام والصحافة والإذاعة، خاصة منها البصرية، من خلال ما ينفقه المنتجون الرأسماليون على الدعاية لبضائعهم. وتَعتمد الدعاية للسلع على تحريك الشهوة الخسيسة في الإنسان. وتظهرُ على الشاشة جَوَارٍ عارياتٌ يَشْرَبْنَ البضاعَة أو يلبسنها أو يركبنها. وبهذه الوسائل تباع لعامة الناس أوراقُ القمار، وتُزَيَّنُ الخمور المُعتقة، والأشربةُ المسمومة، والبضائعُ المصبوغَة بصِباغِ «المودة»، يُؤَدِّي ثمن ذلك العامةُ المصدقون لذلك الكذب الملَوَّنِ من جُيوبهم، وصحتِهم، وأخلاقِهم. وقد أصبحت هذه الدعايةُ جُزْءاً أساسيا في دَوْلاَب الاقتصاد التبذيريِّ وحركته الجنونيَّة، حركةِ التنمية التي لا تعرف حدودا.

إن اقتصاد الإسلام لا يَحِلُّ فيه التبذيرُ، ولا الكذبُ. ومن ثَمَّ فالدعاية الكاذبة لا مكان لها. قال أبو طالب المكي رحمه الله: «قال أبو ذر: كنا نتحدث أنَّ مِن نَفَرٍ لا ينظر الله إليهم التاجرُ الفاجرُ. وكنا نعُدُّ من الفجور أنْ يَمْدَحَ السِّلعةَ بما ليسَ فيها». وقد جمع أبو حامد الغزاليُّ رحمه الله شروط النصح في المعاملة في أربعة أشياء: 1) ترك الثناء على السلعة بما ليس فيها. 2) إظهارُ جميع عيوب السلعة خفيِّها وجَلِيِّها. 3) الاحتياطُ في الكيل والوزن. 4) الصدق في سعر الوقت.

وجاء بالأدلة الفقهية على هذه الشروط. وفي كتب الحديث والفقه من أحكام البيوع ما يفصل كل هذا.

إن الإسلام لا يرضى بالكذب على السلعة، بل يُحَرِّمُ ذلك ويشدد النكير على من يَحْلف ليُنَفِّقَ سلعته. ويزيد الإسلام على هذا إذ يوجب على البائع أن يُظهر عيب بضاعته عكس ما تفعله دعاية الغش. روى البخاري وغيره رحمهم الله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يحل لامرئ مسلم يبيع سلعة يعلم أن بها داءً إلا أخبرَ به**».

الفصل التاسع

الاجتهاد



- إذا اجتهد الحاكم...
- السياسة الشرعية والإسلام السياسي
- قواعد ثابتة
- أصول الاجتهاد
- من يجتهد؟
- الاجتهاد شورى بين العابدين
- توجهُ المفتي إلى الله

إذا اجتهد الحاكم...

من حوالَيْنَا فِتنٌ فكرية تموجُ، وتقذف إلينا الجاهليةُ المحيطةُ المُسْتَشْرِيَةُ نارُ حضارتِها تحدياتٍ قاتلةً. إنْ نحن وجدنا سفينةَ النجاة من فتنتنا الداخلية، ووجدنا الجواب عن التحديات الحاسمة، الحاضرةِ والمستقبليةِ، التي يطرحها علينا العصرُ، كُتِبَتْ لنا الحياة. وإن نحن عجزنا عن ذلك أفلتت منا فرصةٌ نادرةٌ، فرصةُ وِراثة الأرض من الاستكبار الغربيِّ السائِر بخطى سريعة إلى الانهيار الحضاريِّ تحت ثِقْل أشيائه، وعُنف مخترعاته، وفشله في إسعاد الإنسانية وإدارة موارد الأرض بعدل وأمانة. أنانيته الاستكبارية تَروح به إلى مساء أسودَ.

مُهمتنا عظيمة لا تنحصر في مُستوى مشاكلنَا الحالية المحلية، مهمتُنا أن نقود الإنسانية إلى سعادتها الدنيوية والأخروية بصفتنا حملَةَ رسالةِ القرآن، ومستودَعَ نور الهداية النبوية الخاتمة. فليسَ بعد قُرْآننا ونبيِّنَا من تنـزيل يُنتظر. أوْصْياءُ نحنُ على دين الله، مستضعفُون بعدُ، ضعفاءُ عاجزون عن أداء أمانةِ الله التي طُوِّقنا بها. فإن نحن قَصَرنا همتنا على التماس منهاجٍ لثورة تُحَرِّرُ أقطارنا لنستقل بالحكم فيما بيننا، أمسينا كبعض هذه الأمم المحصورة في قوميتها ودائرة أرضها وحضارتها. وإن نحن رفعنا الطرف إلى المكانة القعساء، مكانة خِلافة الله في الأرض، أوشكنا أن نتخطى الفتنَ الداخلية المائجة، وأن نغلِبَ تحدياتِ الحال والمستقبل، ونُهْدِيَ الإنسانية المعذبة تحت نير الحضارة الجاهلية نموذجا حيا خالدا لما ينبغي أن تطمح إليه الإنسانيةُ وتحبَّه وتعتنقَه.

قال الله تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ**﴾ (الأنعام، 57) و(يوسف، 40 و67). ما من دابة إلا هو آخذ سبحانه بناصيتها. ذلك قدَرُهُ وهو ماض، وهو المتصرف آمن الناسُ أمْ كفروا، عَدَلُوا أم ظلموا. لكنَّ الحكمَ بالشريعة الإلهية الخاتمةِ معطَّلٌ لِتقصيرنا وغيابنا مع المستضعفين عن دفة قيادة العالم، وتلك مسؤوليتنا لا تتنافى مع القدر الإلهي. نحن المسؤولون عن إعادة شرع الله لعزته، لتسود كلمة الله العالم. قال الله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ**﴾ (الأنفال، 39). أي حتى يخضعَ الناسُ جميعا لشرعه.

إن الله عز وجل شرع للحاكم المسلم أن يجتهد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**». رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ورواه غيرهما. والمسلمون اليومَ معزولون عنِ الحكم، وعن الاجتهاد بالتالي. يحكمهم من بني جلدتهم من لا يدين لله بدين، أو من ينطق بالشهادتين لا يتجاوز ذلك النطق إلى مجالات الحكم.

وضعنا في هذا الفصل عنوانَ «الاجتهاد» لنشير إلى أنه لا يكفي أن نؤكد عزمنا على الحكم بما أنزل الله، ونؤكّدَ أنَّ الإسلام نظرية خاصة لحل جميع مشكلات الحكم والاقتصاد، وأن له نظاما لترتيب شؤون المجتمع. لا يكفي ذلك، بل يجب أن نعرِضَ تصوُّرَنا للحكم الإسلاميِّ، والاقتصاد الإسلاميِّ، والحل الإسلاميِّ لمشكلات المجتمعات المسلمة في إطار الشريعة، وفي أفُقِ المستقبل، وعلى نطاق الإنسانية جمعاء.

ينعتنا المائلون مع تيار الفرنجة المنحرفون فيه بجمود الفكر، ويرددون عجزَنَا عن «الاجتهاد»، ويلُوكُونَ الكلامَ المُعَادَ عن سَدِّ باب

الاجتهاد وفتحه. حتى إنَّ بعضَنا ليُخَيَّلُ إليه أن ذلك البابَ رُصِّصَ رِتاجُه ترصيصا فلا سبيل إلى زحزحته عن وضعه المنغلق. ومن المسلمين من يتصور الاجتهادَ المطلوبَ لإحياءِ الأمة اجتهادَ الفروع، وإحياءَ سنة السواك، وتحقيقَ الحكم في صلاة المسبوق.

المُغْرِضون من نقَّاد الإسلام، حين يدعون إلى الاجتهاد، يقصدون بكلمة «اجتهاد» أن نطَوِّرَ الشريعة، نأخذ منها وندَع، نُلَقِّحُها بأفكار القانون الوضعيِّ أو الموضوعيِّ أو الطبيعي أو الإراديّ، اللبرالي أو الثوريِّ، لكي نكونَ على مستوى العصر. وبعضُ النُّسَّاك منا لا يتعدى فهمُهم للإسلام وتحديات الحاضر والمستقبل حدودَ فهم الطائر لقفصه، سَوَّرُوا حول أنفسهم سُوراً من التقليد، أو من النصوص الفرعيَّة، أو من مذهب الشك في عقيدة المسلمين، فذاك مجالُهم الحيويُّ، ينفُرُون من اقترب منه لتبقى لهم الزعامةُ الاجتهادية.

الحاكم يجتهد، وأنت ما كلَّفَكَ الله يا مسكينُ أن تنفُرَ إخوتَك، فلست حاكما، بل أنت من أسباب تطويل المسافة، وتعويق سير المؤمنين إلى الحكم الذي يُخَوِّلُ لنا حقَّ الاجتهاد.

إن الاجتهادَ الذي نحتاج إليه ونحن في غربة العمل الهامشي، غيرُ معترَفٍ بوجودنا، ملاحَقون، مضطهدون، هو الاجتهادُ في كيفية تربية جند الله، ثم في كيفية تنظيمهم، ثم في وسائل وأساليب زحفهم لتسَلُّم إمامة الأمة فالوصول إلى الحكم. والاجتهادُ اللازمُ بعدئذ هو الاجتهادُ في تطويع الواقع المعاشيِّ، والسلوكيِّ، والاجتماعيِّ، وخاصةً السياسيِّ، لمعايير الإسلام وأحكامه.

اجتهادُنا قبل الوصول للحكم اجتهادُ كليات. ويجيء تقنين الاجتهادِ في الفروع عندما نكون مسؤولين عن تطبيق الشريعة إن شاء الله تعالى. نهيئ الأجوبة الإجمالية عن كل ذلك منذ الآن لكيلا نُفاجَأ.

لنا تُراثٌ ضخْمٌ في الفروع الفقهية، إن دوَّنَّاهُ ورتبناه كان لنا العوْنَ على اجتهادٍ مجَدَّدٍ في الفروع لنلقى به أيَّامنا في الحكم بإذن الله القوي العزيز. لكنَّ كلياتِ الاجتهادِ في التربية والتنظيم والزحف إلى الحكم لا يُمكن أن نعتمد فيها على فقه من سبقنا من السلف الصالح ما دونَ عهد النبوة، وما دونَ الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

لنا تُراثٌ فقهيٌّ ضخمٌ يحجُب عنا في تلافيفه وكثافة خلافاته تلك البساطَة التي نشأ بها الإسلامُ، وتلك التربية التي صاغت جند الله المهاجرين والأنصارَ، وتلك القوة الجهادية التي اندفعوا بها لتحرير العالم. فلو جعلنا تُراثَنَا الفقهي، وهو في حد ذاته مَفْخَرَةٌ لعبقريتنا، حجاباً بيننا وبين القرآن في كليات أوامره ونواهيه، وفي مقدمتها الجهادُ وتوحيدُ الله عز وجل بالطاعة، لتَحَوَّلْنا إلى عالَةٍ جهَّالٍ محرومين. ولو جعلناه حجابا بيننا وبين السنة الغراء، سنةِ التوحيد والجهادِ، لخرجنا عن البيضاء الواضحة السالكة وتهنا في المذاهب والفروع.

نجتهد لنصل إلى الحكم، ونجتهد قبل وصولنا للحكم، وبعده، باستقلالِ مَنْ يحمل هما غَير هَمِّ الفقهاء الذين اجتهدوا لعصور كانت تحكُمها الشريعة في الجملة. نجتهد باستقلالِ من ينوي أن يقتحم حصون العدو ويموتَ في سبيل الله، أو يستخلفَه الله في الأرض ليحملَ أعباءَ الحكم، ويوطد لشريعة الله في الأرض، ويحرر الإنسانيَّة، ويبتكر حضارةً تلائم مقاصد الإسلام.

كان حكام العض والجبر لا يجتهدون كما كان يفعل الخلفاءُ الراشدون. كان الفقهاء يجتهدون في دائرتهم المحدودة. إمامُ المذهب يجتهد في أصول الفقه ويستنبط، ويُرجح، ويختار، ويفرع. المُفتي كان يجيب الناس عن أسئلتهم الخاصة بما شجر من نزاع، أو ترتب على إخلالٍ بالواجب. القاضي يختار الحكم المناسب لقضيته داخلَ مذهبه.

أما الدولةُ وشؤونُها العُليا، أما الحكومةُ وقراراتُها فمتروكة لإرادة السلطان العاض لا مُعَقِّبَ لِحكمه، إلا إن نهض من رجال الدعوة من يقول كلمة الحق يتعرض للإنكار والعقاب.

كانت الدعوةُ مسلوبةَ الإرادة، محصورةً في الأمور الجزئيَّةِ، مصروفَةً عن التدخل في الدولة. وهي اليوم تحت الحكم الجبري المسعور أشدُّ ما كانت سلبا، وأضيقُ ما كانت حصرا، وأبعدُ ما كانت صرفا. وهي اليوم على يد رجال الصحوة المباركة تحدث نفسها بغد الإسلام، بإعادة أمر الأمة إلى شورى الأمة، وبطرد الحكم الفاجر وإقامة دولة القرآن. فاختلاف ظروفنا عن ظروف الفقهاء والدعاة مِن قَبْلِنا، واختلافُ النياتِ والفرَصِ (أستغفر الله، بل قدره سبحانه وتعالى)، يفرض علينا أن نفكر تفكيراً مخالفا. سيحكم القاضي بإذن الله تحت لواء الدولة الإسلامية بنفس الشريعة التي حكم بها قضاة العدل المسلمون في كل زمان، وسيفتي المفتي بنفس الأحكام، وسيرجع الفقيه إلى نفس الأصول. لكنْ بحرية كاملة لا تتسلط عليهم من فوقهم رَقابَةُ الحاكم، ولا يُسلَبُ منهم حقٌّ، ولا يحصرون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يُصَرفون عن واجب. يطلَق لهم الاجتهاد، ويُفتَح لهم بابُ استنباط أحكام جديدة لما يتجدد من أحوال. حريةُ الاجتهاد تبقى حلْماً إن بقي الحكمُ في أيْدٍ غيرِ معترفة بأنَّ الحكمَ ليس إلا لله، ومُسْتبدةٍ بالكلمة والقرار، غيرِ مستعدة لإشراك أحد من علماء الأمة فيه.

وعلى هذا يكون أبُ الاجتهاد وأمُّه هو اجتهادٌ يوصلُنا إلى الحكم. إذ على كوننا حكاما يترتب حقُّنا في الاجتهاد، وتترتب إمكانيَّةُ تطبيق ما نجتهدُ ونستنبط. فلو جمعنا من الاجتهاد الفرعي أسفارا، ووضعنا لكل سؤال أجوبة على الورق، وكان الحكم في يد غيرنا لكان ما في أسفارنا وأوراقنا بمثابة الهباء المنثور، والعبث المقهور.

لا أقولُ إن جند الله لا يحتاجون أن تُعْرَفَ نيتُهم في كل مجال. ولا أقولُ إن إعداد الفقه الفرعيِّ لِغَدِنا لا يفيد. بل من الأهمية بمكانٍ أن يكون فهمُنا للشريعة ونيتنا في تطبيقها معروفَيْن منْشورين لتلتف الأمة حول منهاجنا وبرنامجنا. إنما أقول: إنَّ الاجتهاد في تصوُّر الطريق إلى القومةِ وما بعدَها، والجهادِ لجمع جند الله وتربيتهم والزحفِ بهم، هما الضمانُ لكي ننتقل من المعاني المعسولة، والبرامج المعروضة، وعموميات التأسف على ديننا الضائع، وحظنا العاثِر، إلى الإنجاز الثوري والحكم الفعلي. «ثورة» نعني بها «قومة».

السياسة الشرعية والإسلام السياسي

لا ريب أنَّ هناك صعوباتٍ أمامَ تطبيق الشريعة من حيثُ غربةُ الدين، حتى أصبحَ مُعظمُ المسلمين لا يفهمون حقيقة الدين وشمولَه لكل جوانب الحياة. صعوبة فكرية من حيثُ لا يَعْرِفُ مُعْظمُ المسلمين ماذا يعني تطبيقُ الشريعة بالنسبة لحياتهم المادية وأرزاقهم أولَ شيء. ألِفَ الناسُ أن الدين عبادةٌ في المسجد، وخطبةٌ تقرأ، وأحكامُ الزواج والطلاق، والحيضِ والنفاسِ، يُسْألُ عنها الفقيه، أو يحكُم بها القاضي. ويُكَمِّل خصومُ الإسلام تضبيبَ الصورةِ بما ينشرون من أن الدين تَخَلُّفٌ وخرافةٌ. هذه صعوبة فكريَّة ينفع فيها التوضيحُ والبيانُ والإقناعُ. ولا بد من أن نُقْنِعَ العامَّة بأن خلاصَها ورخاءها إنما يحققه الإسلامُ وشريعتُه. فبدون هذا الإقناع لن يَتبعنا السوادُ الأعظمُ الكفيلُ بقوة عدده أن ينقلنا لمرحلة التنفيذ.

لكنَّ الصعوبةَ الأعظمَ من الجهل بالإسلام الفاشي في صفوف العامة هي صعوبة منهجة العمل الإسلاميِّ وتنظيمه لتجتمع من

تطلعات المتنورين وأشواقهم كتلةٌ تقود الحركة، وتخرق الحواجز، وتصل إلى سُدَّة الحكم.

فلو فرضنا أن عددا عظيما من المسلمين في قطر من أقطار الإسلام اطلع على أحكام الإسلام، وزال المانعُ الفكريُّ، لَمَا كان ذلك الفهمُ وحده قِواما لحركة تُحَرِّرنا من العبودية لحكام الفجور. ولو فرضنا أن عدداً عظيما منا تخلَّق بأخلاق الإسلام وتشرَّب سِرّ الإيمان في قلبه، لَمَا كان ذلك وحدَه ضمانا لقيام دولة الإسلام. ولو فرضنا أنَّ هذه الإرادة الخيِّرَةَ المتطلِّعَةَ لحكم الشريعة، المنحصرةَ اليومَ في الشباب الصالح، توسعت حتى شمِلَتْ أعدادا ضخمة من المسلمين، لَمَا نتج عن ذلك وحدَه أيُّ شيء ذُو مغزى في طريقنا إلى الحكم الإسلاميِّ.

النصوص الإسلاميَّةُ بين أيدينا، والعقولُ متفاوتةٌ في فهمها، وإرادةُ الخير ثَجَّاجَةٌ في الصدور. فما يجمعُ بين قداسةِ النص، وحكمة العقل، وإيمان القلب ليصنع من لقاء هذه الأركان الثلاثة منهاجَ عمل قابلاً للتنفيذ هو الاجتهاد المطلوب، هو السياسةُ الشرعية. الكتاب والسنة لا يُفصِّلان لنا الصِّيَغَ التطبيقية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأطْرَ الحاكم على الحق، وعصيانَه إن عصى الله، وطردَه إن ظلَمَ وتعدى حدود الله وكفر بالله. والمؤمنون لا يمكن أن يخترعوا صِيَغا تطبيقية للثورة (أستعمل الكلمة في انتظار أن نألَفَ كلمة قومة) خارجَ ما تسمح به النصوصُ. والإرادةُ الثجاجةُ إن أُطْلِقَ لها العِنانُ أفلتت من حِكمة العقل وخرجت عن حدود الله.

في بلاد المسلمين بآسيا الشرقية والجنوبية، أندونسيا وماليزيا وشطري باكستان، حركاتٌ إسلاميةٌ قويَّةُ العدد، كثيرةُ الرجال، منتشرةُ التأثير، وافرةُ الوسائل. رأيُها أنَّ إرجاعَ المجتمع إلى حظيرة الإسلام يسبق التفكيرَ في إقامة دولة يُمسك رجال الدعوة زمامَها.

في بلاد العرب حركات إسلامية شابة تفكر في الثورة المسلحة كلما اجتمع بضعُ عشرات من الشباب في تنظيم واحدٍ، وسنَحت الفُرصة لاقتناء السلاح. هنا وهناك حركات واعية بمتطلبات التربية والتنظيم والحركة. بعضُها أدَّتْه تجربتهُ إلى ضرورة المرحليَّة والتسلُّل اللطيف إلى الأجهزة الحُكمية القائمة، وبعضُها يصْرُخُ عاليا مخافة أن يَحتَوِيَ الحكامُ الفجارُ صحوة الإسلام.

وهذا بالفعل ما تحاول الحكومات الفتنوية أن تصل إليه من خلال التشريع الجزئي على أسُسِ الفقه الإسلامي، ومن خلال تكفُّل الدولة بجمع الزكاة وتوزيعها، ومن خلال بناء المساجد، ومن خلال طبع الكتب والمجلات والجرائد «الإسلامية» بالإسلام الأمريكي وتوزيعها بالمجان، ومن خلال عقد المؤتمرات وتجنيد الدعاة إليها واستقطابهم منها أو استغلال حضورهم لتحسين سُمعتها. هذه أهم مظاهر «الإسلام الأمريكي». وهو واجهة من ورائها يُدَبَّر اغتيالُ الإسلام. ففي أندونسيا مثلا تشجِّعُ الدولة العسكريَّة النصارى، وتمهد الطريقَ للتنصير، وتتخذ من المتنصرين الوثنيين أعوانا على المستوى العالي كما كان يتخذ شاه إيران من البهائيين وجواسيس أمريكا أعوانا.

فمن نظر إلى النصوص وجدَها مقدسة في الخطاب الرسمي مرفوعة على الواجهة تؤدي وظيفتها في تخدير الأمة. مصاحفُ وكتبٌ ومسابقاتٌ لتجويد القرآن، ومدوَّناتُ فقه. ومن نظر إلى العقل وجد فُرسانا مأجورين أو محشورين من فرسان البلاغة والتنظير والتبرير، معمَّمينَ ودكاترة، يكتبون ويخطبون أنَّ الإسلام هو ما عليه الحكام الفسقةُ الفجرةُ، وما تريده أمريكا، وما تفعله بصنائعها وبِنَا بواسطتهم. وإذا نظرت إلى إرادة الخير الثجاجة في صدور المسلمين المتنورين وجدتها تُخْدَعُ وتُمْتَصُّ بهذه السياسات الجزئية.

عرَّف الفقهاءُ السياسة الشرعية بأنها الاجتهاد في الأمور التي لم يرِدْ فيها نصٌّ، اجتهادا لا يصطدم بالنصوص الموجودة. لو جمعنا النصوص الواردة في القرآن والسنة بخصوص تنظيم الحكم والشورى، وبخصوص اختيار الإمام وتوزيع السلطة، وبخصوص شكل الحكومة لَمَا وجدنا ما يُشَكِّلُ نظرية سياسية جاهزة منغلقة. إنما نجد الخطط الرئيسية الواضحة التي تمنعنا من التيه أو التردد، وتترك لنا مجالا لنجتهد لكل عصر فيما يَصْلُح به أمرُنا. وقد ارتفع الوحيُ فلا مَطمَعَ لنا أن تَنـزلَ علينا آية تخبرنا أن هذا النظام الذي يوزِّعُ الزكاة، ويقطعُ السارقَ، ويقيم حفلات تجويد القرآن، نظامٌ منافق حائد عن الجادة. ومن تفاوُت فهمنا للنصوص، وفهمِنا للواقع، ولِمَا وراء الأستار والواجهات، يُصدق بعض المسلمين، بل كثير منهم، الحاكم الذي يسمي جماعته مجلسَ شُورَى، ويسمِّي نفسَه أميراً للمؤمنين ويصنعُ حفلةً يسميها بَيعَة، ويقدم كل ذلك للأمة مع الكتب، والمصاحِف، والزكاة، وقطع السارق، وضرب الرقاب، على أنه دولةُ الإسلام.

مع وضوح التعاليم القرآنية النبوية في ميدان الحكم في عين من يستوعب الكل ولا يحجبه عنه التفصيلُ، ومع افتضاح حكام الفجور في العالم بأنهم صنائعُ الكفار، وزملاؤُهم، وجلساؤُهم، وبِطانتُهم، فلا يستحيي هؤلاء أن يَكْسُوا حُكمَهم الطاغوتيّ رداء الشريعة. وتنطلي الحيلةُ على العامة لفَرْطِ ما تَطْرُقُ آذانَهم ورؤوسَهم مطارقُ الدعايةِ الإعلامية الرسمية المحلية، والاستكبارية العالمية المساندة.

استَعْمَلَت السياسة الماكرة الفاجرة الشريعة ومظاهرها لأغراضها. إرادات كافرة تكْذِبُ على الأمة مازجةً اللفظ القرآنيَّ والحديث النبويَّ والنص الفقهي مع التحدي السافر لكل ما جاء به القرآن

وأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقننه الفقه الإسلاميّ، سياسة تحارب الشريعة باسم الشريعة، تغتال الجوهر وتعرض على الناس خيالَ الشَّبَح. وقد مضى زمنُ أمثالِ أتاتورك الذين كانوا يحاربون الشريعة حربَ مواجهة. فأولئك كانوا أعداءً مكشوفين، يهون على الأمة ما لاقته من عَنَتٍ وتقتيل وتشريد على أيديهم ما داموا لم يُخَرِّبُوا في الأمة حِسَّ التمييز بين الحق والباطل، بين الأصيل والزائف. أما هؤلاء المنافقون، المصطنعون للشريعة دِرعا، فكيدُهم يهدف لطمس هذا الحس، فهم أنكى فينا من أولئك. ونفاقهم هذا، وتملُّقهم للشعور الإسلاميِّ في الأمة لا يمنعهم من إعناتنا وتقتيلنا وتشريدنا، أولئك قتلوا علماء المسلمين كِفاحا واعتداء، لم يحتاجوا لمبرر. وهؤلاء يحاكمون ويلفقون التهم، وقد يجدون مِن تسَرُّعِ بعضنا واعتمادِهم الاغتيالَ السياسيَّ وسيلةً ما يساعدهم على تطويق الحركة الإسلامية كلِّها وشَلِّها.

قواعد ثابتة

نمضي إن شاء الله قُدُما، بعد هذه العطفة، لموضوعنا. إن الجماعة القطرية، أو رابطة الجماعات القطرية، بعد توحيد فكرها وفهمها للشريعة ومنهاج العمل، وبعد نجاح قومتها، ستجد نفسها يوما وعلى كاهلها أعباءُ الدولة. وما من جزئية في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلا ونحتاج أن نُدْرِجَها تحت أحكام الشريعة. أصولُ الشريعة تعطينا القواعد الثابتَةَ لنبنيَ عليها، منها ما لا يتغير شكلا ولا مضمونا بتغير الزمان والظروف، كأحكام الطهارة والصلاة، ومقادير الزكاة، ومناسك الحج، ومنها ما تتغير أشكالُه ويبقى مضمونُه ثابتا كحِرمة الربا، وحِلِّيَةِ البيع، مهما كانت الكيفية المستجدة

والوسائل. وهنالك فجور أُحْدِثَتْ ما كان يعرفها الأولون، لا بد أن نُحْدِث لها أحكاما نستنبطها من الأصول الثابتة. فأيَّ تطوير ينبغي أن نُدخل على الفقه الموروث، وبأية مرونة ينبغي أن نعالج النصوصَ الأصلية لنستدل على حكم الله في مشاكل العصر؟ لا التقليد لمن دون كتاب الله وسنة رسوله يُخرجنا من الجمود، ولا التطويرُ الشكليُّ لقوانين الفقه بمعزل عن روح الشريعة ومقاصدها العليا يؤهلنا لبلوغ أهداف الدولة الإسلامية، وليس خرقُ أصل من الأصول الثابتة مما تحدث به المؤمنين أنفسُهم.

جادل الأستاذ حسن البنا رحمه الله عن الشريعة الإسلامية، وأبانَ ثبوت أصولها ومرونة فروعها وصلاحيتها لحل مشاكل الإنسان، قال: «وقد يُقال: إن هذا جمود ورجوع بالعالم إلى الوراء ألف عام أو تزيد. فكيف يُعقَل أننا نطبق اليوم نُظُما جاءت لأمة عاشت قبلنا بأربعة عشر قرنا، في أرض غيرِ أرضنا، وعلى لون من الحياة غيرِ ألوان حياتنا؟ وأينَ سُنَنُ التطور وقوانينُ التقدم والارتقاء؟ ونقول لهؤلاء كذلك: إنكم لم تفهموا أيضا طبيعة الإسلام الحنيف الذي جاء للناس فكرةً ساميةً تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، وتتناول المسائل الكلية، ولا تتورط في الجزئيات. وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلَها، وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشيء منها. وإذا كان تاريخُ التشريع الإسلامي يحدثنا أن عمر رضي الله عنه كان يفتي في الموسم في القضية من القضايا برأي، ثم تُعْرَضُ عليه في الموسم التالي من العام القابل فيُفتي فيها برأي آخر، فيقال له في ذلك، فيقول: ذلك على ما علمنا، وهذا على ما نعلم، أو كلام هذا نحوهُ. كما يحدثنا أن الشافعيَّ رضي الله عنه وضع بالعراق مذهبه القديم، فلما تمصَّر

وضع مذهبه الجديد نزولا على حكم البيئة، وتمشيا مع مظاهر الحياة الجديدة، من غير أن يُخِلَّ ذلك بسلامة التطبيق على مُقتضى القواعد الإسلامية الكلية الأولى. وأصبحنا نسمع: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. ونرى تغير رأي الرجل الواحد في القضية الواحدة بحسب الزمان تارة كما فعل عمر، وبحسب المكان تارة كما فعل الشافعي، أو بحَسَبِهما معا كما سمعنا أنَّ عمر رضي الله عنه أمر بعدم القطع في السرقة عامَ المجاعة. وجاءه رجل يشكو سرقةَ خَدمه فأحضرهم، فأقروا، وذكروا أنَّ سبب ذلك أنه لا يقوم بكفايتهم من طعام وملبس إلخ. فتركهم عمر وتَوعد الرجل قائلا: إذا سرق خَدَمُكَ مرة ثانية قطعت يدك أنت. واعتبرها شُبْهَةً تَدْرَأُ الحد، ولاحَظَ الظروف والملابسات.

«فهل يُقال بعد هذا: إن في الرجوع إلى النظام الإسلامي رجعية وجموداً! وليست في الدنيا شريعة تقبل التطور، وتساير مقتضيات التقدم، وتتمتع بمعاني المرونة والسلاسة والسعة كشريعة الإسلام الحنيف: ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾»[1].

بعد حديث رجل الدعوة والتربية في عصرنا الإمام البنا رحمه الله رحمة واسعة ننتقل ستةَ قرون ونصفَ قرن لنسمع رجلا من رجال العلم والفقه والاجتهاد. نوردُ صفحة رائعةً من كتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم رحمه الله يبسط فيها خصائص هذه الشريعة من حيثُ القابليةُ لاستيعاب مصالِح العباد، ومن حيثُ الاتساعُ لتشمل ما به قِوامُ الأمة، وقوامُ العالم.

(1) رسالة «مشكلات في ضوء النظام الإسلامي».

قال رحمه الله: «فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد: هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلطٌ عظيم على الشريعة أوجب من الحَرَجِ والمشقة وتكليفِ ما لا سبيل إليه ما يُعْلَمُ أنَّ الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به (يعني أن الجهل بأن تغيُّر الأزمان والأحوال يغير الفتوى أحدث حَرَجا يتناقض مع سماحة الشريعة الباهرة ويُسرها). فإن الشريعة مبناها وأساسُها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلُّها، ومصالح كلها، وحكمةٌ كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجوْر، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفْسَدة، وعن الحكمة إلى العَبَثِ، فليست من الشريعة وإن أُدْخِلَتْ فيها بالتأويل.

فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظلُّه في أرضه، وحكمتُه الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دَلالة وأصدقَها. وهي نورُه الذي به أبصر المبصرون، وهُداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤُه التام الذي به دواءُ كلِّ عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سَواء السبيل. فهي قرة العيونِ، وحياة القلوب، ولذةُ الأرواح. فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاءُ والعصمةُ. وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها. وكل نقص في الوجود فسببُه من إضاعتها.

ولولا رسومٌ قد بقِيَتْ (قلت: لاحظ هنا شكواه رحمه الله من فساد حال الأمة إلا بقايا رسوم تتمثل عندنا في أمثاله من العلماء العاملين) لخَرِبَتْ الدنيا وطُوِيَ العالم. وهي العصمة للناس وقِوامُ العالم. وبها يمسك الله السماوات والأرضَ أنْ تزولا. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خرابَ الدنيا وطيَّ العالم رفع إليه ما بقيَ من رسومها. فالشريعةُ

التي بعث الله بها رسولَه هي عمود العالم، وقُطبُ الفَلاَحِ والسعادة في الدنيا والآخرة».[1] وباقي الكتاب تفصيل لما ورد في هذا العنوان، وهذه الديباجة. فنكتفي بهذا القدر في بحثنا عن شاهدين من علمائنا بصلاحية الشريعة لضمان معاش الدنيا وسعادة الآخرة، ولضمان نظام الدولة الإسلامية، ونظام العالم.

ثم نصعَد في بحثنا إلى العهد النبويِّ لنجلِسَ إلى المُعَلِّم المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو يُرَبِّي أصحابه على رعاية مصالح الأمةِ بناءً على أصولٍ ثابتة، بإرادة خيِّرَة، وعقل متفاعل مع الأحداث، وأحوال الزمان والمكان، والنيات والعوائد. روى أبو داود والترمذيُّ رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مُعاذا إلى اليمن، وسأله: «**كيف تقضي إذا عَرَضَ لك قضاءٌ؟**» قال: أقضِي بكتاب الله. قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله؟**» قال: فبِسنة رسول الله. قال: «**فإن لم تجد في سنة رسول الله؟**». قال: اجْتهدُ رأيي ولا آلُو. قال: فضرَب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره، وقال: «**الحمد الله الذي وفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يَرْضَى به رسولُ الله**».

لم يُزَوِّدْهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بعثه حاكما على إقليم واسع، بمدونة، ولم يقيد تصرفه بلوائحِ قانون. إنما بعث امْرَءاً مؤمنا تربى على طاعة الله ورسوله، فهو يرى في عين المكان المصلحة، فيميز بين ما تبيحه منها الشريعةُ وبين ما تُحَرِّمُهُ. لا اجتهادَ لأحدٍ حيثُ وردَ النصُّ الصريح، فإذا لم يكن نصٌّ فواجب الحاكم، وحقُّ المؤمن العالم، أن يجتهدَ رأيَه. لذلك رضيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من معاذٍ وأقرَّه على عزيمته أن يَبُتَّ فيما يعِنُّ له من قضايا. ويتضمن هذا الرِّضى والإقرارُ النبويان عن معاذ رِضىً وإقراراً مثلَهُما لكل مؤمن

(1) إعلام الموقعين، ج3، ص: 4.

عالم غيرِ مُعاذٍ، في عهد الصحابة ومِنْ بَعدِهم، يفعلُ مثلما فعل معاذ من الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه صريحا.

في إطار النصوص الثابتة يترُكُ الشارعُ للمؤمنين العلماء حرية البحث عن المصلحة ووسائل تحقيقها، إذ الشريعة مصلحةٌ كلها، ورحمة كلها، كما يقول ابن القيم رحمه الله. ويختلف تصورُ المصلحة من عالمٍ لعالمٍ حسَب ما معه من نِيَّة، واطِّلاع على بيئَتِه وزمانه، وخِبرةٍ بمداخلِ الأمور ومخارجها، ومبادئها وعواقبها.

كان الصحابة رضي الله عنهم يتمتعون بحرية الاجتهاد تمتعا كاملا، فيختلفون في فهم النصوص كما حدث عندما أمرهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ يصلوا العصرَ إلا في بني قريظة. فَهِمَ فريق منهم الأمْرَ على أنه استعجالٌ فصلَّوا العصرَ في الطريق. وفريقٌ فهم الأمرَ فهما حرفيّاً فأخروا العصر حتى وصلوا، فلم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على أحد في فهمه بل أمضاه لهم.

ويختلفون في المسألة من المسائل لم يطلع بعضهم على ما جاء في شأنها من خبر. فيسألُ بعضهم بعضا ويُصَدِّقُ بعضهم بعضا. وقد يستحْلِفُ بعضُهم بعضا أنه سمع الخبرَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيرجعون إلى النصِّ لا يَعْدُونَهُ. ويَعْذِرُ بعضُهم بعضا إن اختلفوا في التأويل أو اختلف اجتهادُهم فيما لا نصَّ فيه. وكانَ كل منهم يؤول النصوصَ التي لا تصرح بالحكم تصريحا كافيا، أو التي جاءت عامة لم تخصص، حسب فهمه لما هو اليُسْرُ في الدين وما هو الحَرَجُ الذي يرفعه الدينُ. قال المنصور للإمام مالك رضي الله عنه: «اجْمَعْ لي كتابا تَجَنَّبْ فيه رُخَصَ ابن عباس وتشديد ابنِ عمر». ابنُ عباس وابنُ عمر حَبْرانِ من أحبار الأمة، ذاك يغْرِفُ من بحر السَّعَة الشرعية، وهذا يبْني على قواعد الاتِّباع المَتِينة رضي الله عنهما وعن وَالديهما.

في مجال الحكم ونظام الدولة كثيرٌ من التفاصيل سكتت عنها الشريعةُ، عالجها مَنْ قبلَنَا بما رأوه ضامنا لمصلحة الأمة. الصحابةُ رضي الله عنهم كانوا أعظمَ الناس حظا من التقوى ومخافة الله عز وجل، كفاهم ذلك عن كثير من الصناعة الفقهية التي حدثت من بعدهم، وعن كثير من تكييف النصوص الموجودة لِمَلْءِ الفراغ التفصيلي. كانت تقواهم نبراسا قلبيا أضاء لهم الطريقَ لمعرفة ما هي المصلحةُ العليا فحققوها بتلك البساطة والروعة التي نقرأ عنها ونُعْجَبُ بها مع العالمين. وكان مع مَنْ بَعْدَهم خِبْراتٌ أكثرُ من جانب العقل ودقة النظر، ما أفاد ذلك مع فساد نيات الحكام. فكانت المصلحة في نظر الفقهاء أن يحافظوا على وجود نظام الدولة ولو اقتضى الحالُ أن يتغاضَوْا عن خرق الحكام للشريعة وهتك حرمتها. خرقٌ وهتكٌ في نظام الحكم أولا، ثم في تعسف الحاكمين بأمرِهم، والمستَوْلِين، والجبارين.

كان الصحابة رضي الله عنهم أقدرَ الناس على إخضاع الواقعِ لمقتضيات النصوص فيما ورد فيه نصوص، وأقدرهم على ترويضه لِيُلائم روح الشريعة فيما سكتت عنه الشريعة. كان خطابُ الله عز وجل الموجهُ إليهم: «يأيها الذين آمنوا» كلمةَ السر التي تبعثُهم للتنفيذ، لا يَلْوُونَ على شيء قبل بلوغ الغاية. كانت الغايةُ والأهدافُ لديهم واضحةً، فلا يُشَكِّلُ النص العربيُّ لدى هؤلاء العرب عقبةً أمامَ الفهم، ولا يشكل الواقعُ المستعصي عقبةً أمام هؤلاء المجاهدين المصممين على الموت، ولا يشكل غيابُ النص فجوة أمام هؤلاء الأمناء على دين الله العارفين بأسرار الشريعة وروحها. فلما اختصمت الدعوة والدولة، وقاتل السلطانُ القرآنَ، أخضع الحكام النصوص للواقع، وأولوها تأويلا تصالحت فيه ضمائر الفقهاء المخلصين لله مع سيوف الحكام المخلصين لمناصبهم على إسلامٍ قواعدُه سليمة

في قلوب الأتقياء وعمل الأبرار، وقبته زور وظلم هناك في تركيبة الحكم ونظامه.

ونحن أولاءِ في زماننا نرجو من الله ما أُعْطِيَهُ الصحابةُ من إقامة خلافة على منهاج النبوة. معنا نصوصُ الشريعة، ونتحدثُ بنعمة الله على هذه الأجيال الصالحة إذ وهبها نية التنفيذ. معنا من الخبرة التاريخية، ما تُعطيه نتائج العقل البشريِّ من فهم للواقع وأسرار الكونِ وطبائِع المجتمعات. فإنْ جمع الله لنا رصيدا من إرادة الخير، ونصيبا من التوفيق من عنده، وبارك لنا في جهودنا النظريَّة والعمليَّة، فلنحن بذلك الفضل الإلهيِّ البصيرون بأمرنا في هذا الزمان وهذا المكان كما كان سلفنا الصالح الذين اجتهدوا لزمانهم وظروفهم أبصرَ بها وأقدرَ عليها.

طُرِحَتْ على سَلَفنا الصالحِ مشاكلُ مثلُ استقرارِ الحكم واضطرابِه، وحضورِ العدل وغيابِه، وتدخُّلِ العساكر في شؤون الدولة، وخيانةِ الأمراء، وسكوتِ العلماءِ عن الحق، وقلةِ النصير على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخوف الناس من بطش السيف الحاكم، واحتجانِ أموالِ الأمة وصرفِها على اللهو وشراء الضمائر. عالجوا كل ذلك وغالبوا إرادة الحكام، وصارعوها، فصرعتهم. واكتفَوْا ببعض «رسوم» الشريعة الباقية، كما قرأنا في نص ابن القيم، عما فاتهم من الابتهاج برؤية الشريعة سائدة في سماء الحكم كما كانت سائدة في أرض النوازل الفردية.

ونحن تُطْرَحُ علينا مشاكلُ ما عرفوها، ناشئةٌ ومتأثِّرَةٌ بعواملِ الاقتصاد، والاجتماع، والابتكار العلمي، وتقارُب الزمان والمكانَ بما حدث من وسائل المواصلات، وانشطار العالم إلى دول مستكبرة وأخرى مستضعفة، والتَّنافس على الهيمنة العالمية بين شطري الجاهلية،

وطغيانِ الرأسمالية، ونظامِ الصناعة الذي يُكَتِّلُ العمال، وتشابُكِ المصالح وتعارُضِها اللذين يفرضان أنواعَ التحالفات، والتخلفِ الاقتصاديِّ، والمجتمع الدولي. والقائمة طويلة. قفزة كبيرة في الزمان والظروف بيننا وبين ذلك العهد البسيط الذي طبق فيه الصحابة الشريعة بذلك النجاح الباهر.

النصوصُ الثابتة التي عملوا عليها لا تزال معنا، أفاء الله علينا ظلَّهَا المبارك بِمَنِّه، وهي غيرُ قابلة للتعديل، غيرُ قابلة للتبريريِّ والانهزاميِّ من التأويل. لكنَّ حاجاتنا لمواجهة المشاكل المستجَدَّةِ المعقدة تفرض علينا أن نستبصر بنور القلب واجتهادِ العقل معها لنستخرج من حكمة الشريعة وكنوزها العميقة الجوابَ عن حاجاتنا ومصلحتنا. لنا الحقُّ وعلينا الواجب أن نحترم روحَ النص فيما ورد فيه نص، وأن نضع قوانين حيث سكت الشارع، بشرط ألا يتعارض استبصارُنا واجتهادنا مع شيء من ثابت المنقول.

والمجالُ فسيح للاجتهاد. كفانا علماؤُنا الأولون عَناءَ البحث عن النصوص بما أوصلوا إلينا القرآن الكريم بالتواتر، وبما اجتهدوا في نقد أسانيد الأحاديث ومتونها حتى استصفوْا لنا حصيلَةً غنية من سنة سيد المرسلين، صلى الله على الحبيب المصطفى وسلم، وجزى الله عنا علماء الحديث. وكفانا فقهاؤُنا عناء تفريع أحكام الطهارة والمسبوق في الصلاة، وسائرِ أبواب الفقه الشخصيِّ العباديِّ.

بقي ميدان المعاملات، وأحكامُ البيوع وشروطها، والربا ووجوهُه، والقِراضُ وأصنافُه، والزكاةُ ومصارِفُها، والوِكالةُ ومسؤوليتُها، والمزارعة والمساقاةُ، والإجارةُ وإحياء المَوَات، والغَصْبُ والضمان، والشُّفعَةُ والهِبة، والوقفُ والصدقة، والجهاد والعهود. أثَّلَ لنا فقهاؤنا

في هذه المواضيع اجتهادا هو أغنى فقه أثّلته أمةٌ، وأذكاه، وأنسبُه لحل مشاكل الإنسان. كيفَ لا ومَنْبَعُه شرع الله السماويُّ الخالد، ومنهاجُه السنة المطهرة ! لا يخلو ذلك الفقهُ المُؤَثَّلُ أن يَرفَع لنا نجومَ هداية إلى جانب شمس القرآن وقمر السنة. بيدَ أن الاستصباح بالنجم والشمسُ طالعة والقمر سار ليس من شأن المستبصرين. ربما يدلُّك النجم على الاتجاه، لكنَّ نور الشمس أو سطوع القمر ضروريان لإبصار الطريق.

ثم إن ميادينَ فسيحةً لم يَشْملْها اعتناءُ الأولين، بل منها ما لم يَطرقوه ولم يعرفوه، كالفقه الدستوريِّ المتعلق بتنظيم علاقات الحاكم بالمحكوم تنظيما مدونا مضبوطا.

على ضوء الشمس وسطوع القمر، وباستشارة النجم عن الاتجاه، يجتهد جندُ الله العلماء في تشريعٍ يضمن استقرار الحكمِ على قواعدِ النبوة والخلافة، ويضمن العدلَ، والشورَى، وأمانةَ الحاكم، وواجبَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقَّ المسكين والضعيف، وازدهارَ الاقتصاد وتطهيرَه من الربا والاستغلال والتبذير، والتعليم، والرخاء، والتصنيع، والاستقلال بعلوم الصناعة، والأمن الغِذائي، والخروجَ من التبعية لقوى الاستكبار، والتصرف الحكيم في المجتمع الدولي بما يؤدي لعزة الأمة.

على منهاج النبوة ومحجتها البيضاء نحتاج لاجتهاد يؤَطِّرُ ويُسَيِّرُ نظام الدولة الإسلامية في اختيار الإمام وبَيْعَته، وعزله، وفي نصب الحكومة وصلاحياتها، وفي خِطَط الدولة من قضاء، وفُتْيَا، ومظالِمَ، وحِسْبَة، وفي ترتيب الشورى ومجلسها واختيار أهلها، وفي تنشيط الإدارة الفعالة الخادمة لمصالح الأمة، وفي وضع وتطبيق دستور إسلاميٍّ يضبط كل تلك المهمات وهذا النظام.

أصول الاجتهاد

هذا الزمان الشديد التقلُّب السريع الحركة الذي نعيشه يتسم بالأزمة الحضاريَّةِ العميقة التي تفعل فعلَها في أسُس المجتمعات الجاهلية ويتلظى بنارها سائر المجتمعات المستضعفة. من بنات الأزمةِ الحضاريّةِ الأمِّ، أزْمَةُ الاقتصاد، وأزْمة الطاقة، وأزمة النقد، وأزمة العنف الداخليِّ، وأزمة السباق للتسلح، وأزمة الأخلاق، وأزمة البِطالة. تُولَدُ تلك البناتُ على فراش أمِّهنَّ في بلاد الجاهلية، لكنهن يُصَدَّرن إلى بلاد المستضعفين فيترَعْرَعْنَ هناك، وندفع نحن مهر البَغيِّ من أموالنا ودمائنا وأعراضنا.

العالَمُ في دَوامة سريعة، سفينةُ الإنسانية بقيادة الحضارة المادية تاهت عن أصُول الفطرة، وفقد رَبابنتها حِس الوِجْهَةِ، فهي تضطرب مع أمواج الأزْمات. ملَّ الإنسانُ الماديَّةَ وعافها، ومَلَّ الفلسفة اليمينية واليسارية، وأصبح يبحث عن البديل. والمسلمون لا بديلَ لهم عن الذيلية والسير في ركاب الجاهلية المستكبرة إلا دينُهم. لا بديلَ للباطل إلا الحقُّ. والحقُّ الله، وما جاء من عند الله، وما علمنا رسولُ الله، صلى الله وسلم على خير خلق الله: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكرَ الله وما والاه، وعالما ومتعلما**»، كما جاء في حديث رواه الترمذي وابن ماجةَ وغيرُهما رضي الله عنهم عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه. وكلُّ ما لا أصل له من الحق، من ذكر الله، فهو مبعَد (بفتح العين) ملعونٌ، مبعِد -بكسرها- للإنسان عن أسباب سعادته الدنيوية والأخروية.

تلتفت أنظارُ المسلمين إلى الشريعة المنزَّلة المطهرة شيئا فشيئا، وسيزداد بحول الله هذا المَيْلُ فكيف نحافظ على رباطنا بالأصول،

وعلى وجهتنا للغاية والأهداف، دون أن تجرفنا تيارات الأزمات المصدَّرةِ إلينا تضاف لمشاكلنا الداخلية المزمنة، ما كان منها بلَدِيّاً موروثا، وما خلَّفه الاستعمار القديم؟

إلى أي ذكاء، وأيَّةِ سَعَةٍ في الأفُق، وأيَّة ثقة بالله عز وجل، وأيِّ مَضاءِ عَزيمَةٍ يفتقر جند الله ليقودونا عبر التيارات الجارفة؟ توفيقُ الله عليه الاعتماد. وعلينا الاجتهاد لكيلا ننساب خارجَ إطار الشريعة يغلبُنا التّيار، ولا نتحَجَّرَ على حرفية النصِّ صُمّاً بُكما لا نعقل مراد الله، وهو المصلحة العليا لأمة رسوله صلى الله عليه وسلم، أمةِ الاستجابة وهم المسلمون الذين ورثوا الإسلام أو اختاروه بالفعل، وأمَّةِ الدعوةِ وهم الإنسانيةُ كلُّها التي تنتظر مخرجا من ضَيْقها، ومُخَلِّصاً من قبضة الشيطان وجنوده. فإن فشلت أولى محاولات الدولة الإسلامية بأن تابعت منهاج الكفر أو بأن تحجرت على نصوص فقهية بشرية موروثة، وانغلقت عن العالم، وسدت النوافذَ والأبوابَ، فستُعَرِّض الأمة، أمَةَ الاستجابة وأمةَ الدعوة، وستلتفت، لا سامح الله، إلى وجهة أخرى تترقب حلا آخر.

أكتب هذه السطور الكليلة العاجزة، في موضوع أصول الاجتهاد، في اليوم الأوسط من شهر ربيع الثاني سنة 1403. منذ بضعة أيام اختلف أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط في تحديد أثمانِ النفط، ومقاديرِ الإنتاج، وحِصة كل دولة منه. لعِبَتْ اليدُ الاستعمارية الأمريكية لعبها بواسطة صنائعها الذين يعيدون إلى مصارف اليهود باليد اليسرى ما أخذوه من دولارات باليد اليمنى. الرِّهانُ في جَوَلاَتِ ارتفاع ثمن النفط وانخفاضه، وتنقيص مقاديره في السوق ليزداد الطلب، وزيادتِها ليسقُطَ الثَّمَنُ، هو تقويةُ الدولار واجتذابُه وامتصاصُه ليسُدَّ عجز المبادلات في اقتصاد الولايات المتحدة

الأمريكية. ولا أكثرَ مُوافقَةً لكسب هذا السباق من أن يكون حظُّ أصدقاءِ أمريكا في الإنتاج حظَّ الأسد، وبالتالي أنْ يكون نصيبُهم من الدولار السريع الانقلاب إلى موطنه أكثرَ. ولا تريدُ دول النفط الحرة، مثلُ إيران الإسلامية، أن تحتكر دولة صنيعة لأمريكا السوقَ. فوقع الخلاف وسقط ثمن النفط في أقلَّ من أسبوع بسبع دولارات.

سَمَاحَكُما أخي وأختي القارئين، فلم أخرجْ عن الموضوع، وإنّما أسْلك إلى أصُول الاجتهاد لأربِطَها بفروع أزْمات الوقت.

إذا هبط سعر النفط تعرض الدولارُ للهبوط، وإذا قلت مداخيلُ الدول المصدرة الكبرى للنفط بسبب ذلك قلت قدرتُها الشرائية وفقدت الدولُ المصنعة، وأمريكا في مقدمتها، صفقاتٍ مُربحة. وكانت الدول المصنعة قد استثمرت أموالا كثيرة وأسست مشروعات لإنتاج طاقة بديلة للنفط على أساس أن مشروعاتِ الطاقة الجديدة ستكون ذات مردودية جيدة بالنسبة لثمن النفط المرتفع. فإذا انخفض ثمنُ النفط ذهبت مردوديَّةُ تلك المشاريع، بل أصبحت الطاقة الجديدة مكلِّفَةً. فينتُج عن هذه الحسابات، بعد انخفاض سعر النفط، إلغاءُ تلك المشاريع، أي ضياعُ استثماراتٍ مهمة، وبطالةُ عدد من العمال في الدول المصنعة. لذلك يشكو اقتصاديو هذه الدول من انخفاض ثمن النفط !

مصالحُ متشابكة متناقضة في عالم معقد يعْبُرُ أزماتٍ لن نعقل لها رأسا من ذنب إن لم نتحرر من كل تقليد ما دون الأصول العليا للاجتهاد، كتاب الله وسنة نبيه، وقياسِ العقل التقيِّ المتخصص، وإجماعِ علماء الأمة المتحررين من ربقة الحكم الجبري. وحول نصوص محدودةَ معدودة يجب أن يجول العقل التقي العالم المتخصص ليجد مصلحة الأمة عبرَ وقائع تتجدد وتتعقد، لا نهايةَ لتنوعها.

لن يُفيدنا اجتهادُ من سبقونا بإيمان وعلم وتقوى من أهل العصور الماضية إلا قليلا، فما عرفوا مشاكل مثل هذه التي تحدثنا عنها في موضوع النفط. وحتى منهاجُهم في الاجتهاد لا يفيدنا إلا قليلا. فقد كانت أغلَبُ مدارسِ الاجتهاد، بل قل كلُّها إلا الاستثناءُ، تعتمد على الاستدلال التفصيلي للنوازل منفصلا بعضها عن بعض. لا نكاد نجد إلا عند الشاطبي رحمه الله منهاجا يصل فروع الاجتهاد بأصوله على أساس شمولية النظرة وغائية التشريع. في الطرف الآخر تجد من فقهاء العصور الماضية من يؤديه تمسكه الحرفيُّ بالنص واستدلالُه اللغوي إلى نفي العلة في التشريع، ومن ثَمَّ إلى نفي المقاصد العليا ونفي المصلحة.

لا يخلو حدَث من الأحداث التي تُعْرَضُ على الاجتهاد أن يَنْضَوِيَ تحتَ أحد ثلاثة أصناف:

1- ما جاء فيه نص صريح، وفَعَلَهُ أو أمرَ به أو أقرَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلا مجال هنا لاجتهاد المجتهد إلا من حيثُ تطبيقُ النص على واقع تغيَّر شكله عن شكل الحياة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فإن لم يتغير، بأن كان متعلقا بالأعمال العبادية الفردية، فلا مجال للاجتهاد أصلا.

2- ما لم يجئ به نص خاص. فالاجتهاد في إدراج الحَدَثِ الطارئ تحت النصوص الكلية العامة. وهذا شأنُ التنظيم السياسي في الإسلام، وهيكلةِ الدولة، وترتيبِ الشورى، وكلِّ هذه المشاكل المستجَدَّة المرتبطة باختراعات الإنسان كحوادث السير، أو المرتبطة بالنظام الاقتصادي المعاصر كالنفط والنقد، أو المرتبطة بالسياسة المعاصرة كهيمنة الاستكبار العالمي المرتكزةِ القاعدةِ على «توازن الرعب» النوويِّ.

3- ما وردت فيه نصوص متعددة متناقضة في ظاهرها، أو خفية المقصود، فالاجتهاد فيها للتثبت من صحة النصوص، ومعرفةِ السابق منها واللاحق، والناسخ والمنسوخ.

فيتضح لنا أن جُهْدَ العقل التقي العالم المتفرغ للاجتهاد يشمل كل هذه الحالات، ففيما فيه نص صريح لا بد للعقل، مع تغير الظروف، أن يحقق مناط الحكم، بأن يقول لنا ما هي الحالات التي تجمع المواصفات الشرعية التي يجعلها مشابهة للحالات التي طبق فيها النبي صلى الله عليه وسلم الحكم. منع رسول الله صلى الله عليه وسلم الربا إذْ جاءت فيه نصوص صريحة. فهل يكون التأمين، وهو من مستجدات العصر، ربا؟ من يجيب عن هذا إلا عقلٌ تقي متخصص، متفرغ، عالم بالأصول، عالم بالمصلحة؟ مثلا.

ومجالُ العقل أوسعُ وأبعدُ مدى فيما لم يرِدْ فيه نص خاص. فإما يكون هذا العقل العالم من التقوى بمكانٍ فلا يَسُدُّ الفراغ التفصيلي ببنيات الهوى. وإما يكون اطِّلاعُهُ أكثرَ من تقواه، أو عِلْمُه بالنصوص أقلَّ من علمه بالواقع، أو معرفتُه بالواقع أقلَّ من معرفته للأصول فيملأ الفراغَ التفصيليَّ بما يُضَيِّعُ مصلحة الأمة.

ألا ترى مثلا أن العرب في زماننا يفتحون بطن أرضهم يستخرجون منها بغير حساب هذا النفط الذي أصبح قِوامَ الحركة في العالم كله. يدخلُ بعضهم ضد بعض في منافسة تُفسدُ مصلحة الأمة. إذا أنزل فقيهٌ جامدٌ حكمَ حِلِّيَّةِ البيع والتراضي على هذه النازلة، وحلِّيَّة التعامل مع الأجنبي، وحلِّيَّة تصرف الأمير في بيت المال، فقد قبل أن تُنْهَبَ أموالُ الأمة. البيع والتراضي عن الثمن حلال بين فردين على بضاعة معروفة لا خطر لها أهمَّ من منفعتها للمشتري ومنفعةِ ثمنها للبائع. الأميرُ، إن

كان ممن اختارته الأمة أو عيَّنَه أمير المؤمنين، يتصرف في بيت المال في حدود الشريعة بما ينفع الأمة. والنفطُ أخطر بضاعة، ليس مِلكاً لفرد فلا يحلُّ الاتجارُ فيه وصاحب الحق، هي الأمة كلها من المحيط إلى المحيط، غائب.

ألا ترى أنّ من دول العرب من كان يُصَدِّرُ الموادَّ الغذائية، فلما اكتُشِفَ فيها النفطُ اختل توازُنُ اقتصادها فأصبح معتَمِداً على إنتاج واحد، هو النفط، وأصبح يستورد من المواد الغذائية بنسبة عالية جداً من ثمن النفط. أيجيز الشرع أن يستعبدنا المستكبرون بما ملَّكناهم من القدرة على تفقيرنا، والتحكُّم فينا، وبما أصبحنا عالةً عليهم حتى في طعامنا؟

ألا ترى أن من دُوَلِ النفط العربية من تَدَفَّقَ فيها هذا الخير، فمَدوا أنابيبَهُ بلا حساب للعدو، وأغرقوا أسواق المسلمين بالبضائع الترفِيَّةِ، فأمسى خيرُ النفط نقمة على البلاد، وعلى أخلاق أهلها. مع ذلك تجِدُ من المتفقهة من يفتي بأن مبذري النفط وأموالِه، المفسدين في الأرض، رحمةٌ لأمة كانت تعيش قبلهم في الفيافي والجوع.

من يجتهد؟

كان العالمُ الواحدُ يجمع نصيبا من القرآن ومن الحديث، ومعرفةً عميقةً باللغة وأسرارِها، ومخافةً لله عز وجل، فيَصْلُحُ للاجتهاد. هذا كانَ شأن الصحابة رضي الله عنهم. ومن بعدهم احتاج العلماء إلى اجتهاد أشقَّ للتثبت من صحة الحديث، وتعقدت مآخذُ الحكم بذلك كما تعقدت الحياة الاجتماعية فأصَّلوا أصولا عامة للاجتهاد لا بد للعالم من معرفتها. لكنَّ الرجلَ الواحدَ كان يستطيع أن يجتهد

في كل أو جل أبواب الفقه، لا يكاد يفتقر، بعد رُواة الحديث، إلى من يساعده. على أنهم كانوا يُبيحون تفرُّدَ العالم بالاجتهاد في باب واحد من أبواب الفقه.

أما اليومَ، ورغمَ تيسير مصادر الحديث نتيجة لخدماتِ سلفنا الصالح رضي الله عنهم، فإن الاجتهادَ لهذه النوازل المشتبكة لن تستطيع النهوضَ به إلا جماعة منظمة من العلماء ذوي الاختصاصات المتعددة. ذلك أن المحدث يطلب عِلمُه أن يقضي عمرا في تفحص كتب الحديث ومعرفةِ الرجال لتحصُلَ له الملَكَةُ، فلا يتسع عمرُه للإحاطة بعلوم الخِبْرة، بل ولا للإلمام بها، بل ولا للاطلاع الجزئي عليها. وعلى الأصولي أن يتعمق في النظر والفهم عن الله ليرتفع إلى إدارك عِلة الأحكام وغاية الشريعة ومقاصدها، ويتشبَّع بروح الشريعة فيرتفعَ من الأحكام التفصيلية ليربطها جميعا بمعاقِدِ الحكمة الكلِّيَّةِ. وعلى الفقيه النوازلِيِّ، من قاض ومفت ومحتسب، أن يتخصص في الفروع. وقد تشعبت فروع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فأصبح لا يكفي الرجلُ الواحد للإحاطة بفروع القضاء ولا بالفتيا ولا بالحسبة.

وإلى جانب المفسر المحدث، والأصولي الناظر، والفقيه المتخصص، لا بد من خبراءَ في جميع مجالات الحياة ليساعدوا رجال الشريعة على تحقيق مناط الأحكام، وابتنائها بالصيغ الصالحة للتطبيق بما يؤدي للمصلحة. لا يكفي رجال الشريعة مخالطةُ الواقع من بعيد، وإنْ كانت هذه المخالطةُ ضروريةً لكيلا تنحسر اهتماماتهم في النصوص فيغفلوا عن «النظر إلى المآل».

وهذا أصل كبير من أصول الاجتهاد: أن ينظرَ المجتهدُ إلى النص وكيف يتولد منه الحكم، وكيف يغطي تحته احتياجات المسلمين،

وكيف يطبَّق، وإلى ماذا يؤول أمرُه آخر المطاف. إنها مسؤولية معقولة، لا نعرف سَداد رَأْيِ المجتهدين إلا باختبار نتائج اجتهاداتهم. قال الإمام أبو حامد الغزاليُّ رحمه الله: «وأشرفُ العلوم ما ازدوج فيه العقلُ والسمعُ (النصوص المسموعة من الشارع كتابا وسنة)، واصطحب فيه الرأيُ والشرعُ. وعلمُ أصول الفقه من هذا القبيل. فإنه يأخذ من صَفْوِ الشرع والعقل سواءَ السبيل. فلا هو تَصَرُّفٌ بمحض المعقول، بحيث لا يتلقاه الشرع بالقَبول. ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد».[1]

مقصودُنا العبارة الأخيرة. الذي يأتينا بفتواه وقانونه يقول: هذا تصوري لحكم الله في المسألة، فإذا وضعنا فَتْواه موضع التنفيذ أسفر ذلك عن كارثة، لا يُعَدُّ مجتهدا، لأنَّ العقل والتجربة لم يحكما له «بالتأييد والتسديد». وبما أن الشريعة مصلحة كلها، ورحمة كلها، فما أدى إلى مفْسَدة ونقمة فليس من شرع الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

علماء الخبرة يشاركون ضروريا في الاجتهاد ليحققوا لنا مناط الأحكام، ويحددوا لنا مآل أمرنا المرجوَّ. الأصلُ الاجتهاديُّ مثلا القائلُ بأن الضروراتِ تبيح المحظورات يفتح ذريعة للترخص أو التشديد. فالطبيب الاختصاصي يُخبرنا بأن يَدَ زَيْدٍ تعفنت عفونة تهدد حياته لينتقل حكم قطع اليد، وهي البريئة من السرقة، من الحرمة للوجوب. والاقتصادي الخبير يفسر لنا أن إغلاق مصارف الربا قبل تهييء نظام مصرفي إسلاميٍّ يهدد القومة الإسلامية بخطر محقَّق، فيُفتي المجتهدون بأن يبقى التعاملُ بهذه المصارف ريثما تبدل، بناء على تقدير الاقتصادي الذي بيَّن وجه الاضطرار.

(1) «المستصفى»، تحقيق مصطفى محمد أبو العلا، ج1، ص: 3.

لا بد إذن من اجتهاد جماعي تتكامل فيه الخبراتُ العملية مع العلم بالنصوص، والتخصص الفقهي، وبعد النظر الأصولي.

وللإمام، رأس الأمة، تَبَنِّي ما يرى من أحكام تعُمُّ مصلحتُها الأمةَ. ليس له أن يتدخل في حكم القاضي، ولا في فتوى المفتي في النوازل العينية، ولا في القبض والسدل والجهر بالبسملة في الصلاة وعدمه. لكنَّ الحارسَ على مصير الأمة حَرِي أن يكون رأس الاجتهاد. ومن هنا لا بد أن يكون جامعا بين الفقه في الشريعة وبين الخبرة العملية. ولا شك أن وُسْعَ البشر محدود، فلا مناص من أن يكون المحدِّثُ أبصرَ بالحديث من الإمام، والأصوليُّ أحدَّ نظرا منه بالمبادئ والعواقب، والنوازليُّ أدق منه في فهم الجزئيات، وعالمَ الخبرة أحسن منه في نظريات العلوم وتقنياتها. والمطلوب من رأس التشريع أن يكون بمجموعه أكثر كفاءة، في حدود إمكان البشر، وإمكان الظروف، وإمكان الجماعة المجاهدة، من كل واحد من المجتهدين منفردين، على تقدير المصلحة.

الاجتهاد شورى بين العابدين

روى الطبراني رحمه الله في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال علي: يا رسول الله ! أرأيت إن عَرَضَ لنا أمرٌ لم ينـزل فيه القرآن، ولم تمض فيه سنة منك؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين، ولا تقضُونه برأيِ خاصَّةٍ**». وأخرج في الأوسط بسند صحيح عن علي رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن نزل بنا أمرٌ ليس فيه بيان أمر ولا نهي فما تأمرنا؟ فقال: «**تشاوروا الفقهاء والعابدين ولا تجعلونه برأي خاصة**».[1]

(1) قاله السيوطي رحمه الله في «مفتاح الجنة»، ص: 40. الرسائل المنيرية، ج2.

هذان الحديثان الشريفان يخصصان الشورى فيما لم يجئ فيه نص. لكنَّ منطوقَ الحديثين ومفهومهما يعطيان أصلين عظيمين: أولهما أن الاجتهاد يكون شورى، والثاني أن شورى الاجتهاد تكون بين فقهاءَ عابدين. شرطان: العلم والإيمان. وقد رأينا في كلام ابن القيم أن الفتوى تتغير بتغير النية، فلو كلفنا منافقا بالاجتهاد لنا لاجتهد بما يؤدي إلى هلاكنا، ولو تسرَّب إلينا قوم يَرْكَبُهم الهوى لأفتونا بالهوى. ولو تعلق إصدارُ فتوى على طبيب لا يخاف الله أو اقتصاديٍّ مرتش لباعا خبرتهما وضَيَّعا المصلحة.

توجهُ المفتي إلى الله

كتب الإمام ابن القيم رحمه الله: «ينبغي للمفتي الموفَّق إذا نزلت به المسألةُ أن ينبعث من قلبه الافتقارُ الحقيقي، لا العِلميُّ المجرد، إلى مُلهم الصواب، ومُعَلم الخير، وهادي القلوب، أن يُلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدلَّه على حكمه الذي شرعه في هذه المسألة. فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق. وما أجدرَ مَنْ أمل فضل ربه ألا يحرمه إياه. فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهي طلائع بُشرى التوفيق. فعليه أن يوجه وجهه ويحَدِّق نظره إلى منبع الهدى، ومعدن الصواب، ومطلَعِ الرشد، وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة. فيستفرغ وُسعه في تعرّف حكم تلك النازلة منها. فإن ظفر بذلك أخبر به، وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار، والإكثار من ذكر الله. فإن العلم نورُ الله يقذفه في قلب عبده. والهوى والمعصية رياح عاصفة تطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تُضعِفَه. وشهدتُ شيخ الإسلام (ابن تيمية) قدس الله روحه إذا أعيته المسائل،

واستصعبت عليه، فرَّ منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجَإ إليه، واستنـزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته. فقلما يلبث المَدَدُ الإلهي أن يتتابع عليه مَدا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ». [1] لا إله إلا الله. يا ملهم الصواب، سدد هذه العقول المنتشية بتحصيلها لتجثو بين يديك. يا رحمان يا رحيم يا ملك يا وهاب. بمنك وجودك.

(1) «إعلام الموقعين»، ج4، ص: 172.

الفصل العاشر

الاختلاف



- ولو كان من عند غير الله...
- اختلاف العلماء رحمة
- الجماعات الاختلافية
- التنطع
- تغاير التيوس
- تـرْك الخلاف لتأليف القلوب
- كَفُّ الأمة عن الخلاف

ولو كان من عند غير الله...

ليس ابنُ القيم رحمه الله أولَ من قال بأن العلم نورٌ يقذفه الله في القلوب الطاهرة المتطهرة. ففي القرآن جاءت كلمة نور مقرونة بالتوراة، والإنجيل، والقرآن،مما يعطي أن المقصودَ بالنور، من جملة مدلولاته، العلمُ المنـزَّلُ. ورد في القرآن أن الله الكريم الوهاب يعطي النور من يشاء من عباده: قال عز من قائل: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ (النور، 40). وقال جلت قدرته: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ**﴾ (الحديد، 28). وهذا كثير في الكتاب والسنة. وما زال الأئمة المجتهدون يَعْزُونَ إصابَةَ الحق إلى توفيق الله عز وجل. بل عرَّفوا الاستحسانَ، وهو أصلٌ اجتهاديٌّ عند المالكية والحنفية، بأنه خاطر يَنْقَدِحُ في القلب، يُرجّحون به حكما على حكم.

فمشاركة القلب بنورانية التوبة والاستغفار وذكر الله عز وجل والافتقار واللَّجَإِ إليه، وقرعِ بابه الكريم مشاركةٌ حاسمة في اجتهاد العقل. بل العقلُ الذي لا يَفيضُ عليه القلبُ المستنيرُ بنور الإيمان والإحسان يبقى في ظلمة العقلانية، أسيراً في يد الهوى، طريحا في غياهب الغفلة والعياذُ بالله. قال الله عز وجل: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (النساء، 82-83). قال قتادة رحمه الله في تفسير الاختلاف الوارد في الآية: «قول الله لا يختلف. وهو حق

ليس فيه باطل. وإن قول الناس يختلف». وقال ابن المنكدر رحمه الله: «إنما يأتي الاختلافُ من قلوب العباد. فأما ما جاء من عند الله فليس فيه اختلاف».

ينشأ الاختلاف القليل، عن التفاوت في الفهم والاطلاع، وهو اختلاف طبيعيٌّ مقبول بين العلماء إن أحسنوا أن يقولوا ويطبقوا كلمة حكيم الدعوة الأستاذ حسن البنا رحمه الله حين قال: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويَعْذر بعضُنا بعضا فيما اختلفنا فيه». وهي كلمة مروية عن علمائنا من قبله رحمهم الله جميعا.

أما الاختلاف الكثير الذي تشير إليه الآية فهو الناشئ في قلوب العباد كما قال ابن المنكدر رحمه الله. هو الاختلاف الذي ينشِبُ بين أنانيتين، كلٌّ منهما تتعَصّب لرأيها، وترى غيرَه خطأ محْضا، وتتهيأ كل منهما لحروبِ الجدل. و«**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجَدل**». حديث نبوي رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة رحمهم الله. إنَّهُ اختلاف عقول يُسخرها الهوى ورديفُه الشيطانُ. ويستفحل التعصُّبُ فيرفُضُ المتجادلون أن يردوا اختلافهم إلى أولي الأمر، وهم العلماءُ كما قال المفسرون. يرفُضون أن يردوا الأمر إلى الله ورسوله برده إلى العلماء يحكمون فيه. إنه اختلافُ تَضَادٍّ وتناقض، لا اختلافُ تنوع في الرأي. ولا يلبَث أن يتولد عن الاختلاف والجدل عداوةٌ تضطرم على اللسان قولا لاذعا، ولعنةً وسبّا، وينحشر الأتباع من الجانبين فتنشب الحرب. وتلك محنةٌ عانيناها فيما مضى من عصور، ونرجو الله العلي العليم أن يُلهمنا تدبُّرَ كتابه العليِّ الحكيمِ، وأن ينـزِّلَ علينا من رحمته التي مَنَّ بها على رسوله الرؤوفِ الرحيم، حتى نُوَفَّق إلى حسم مادة الاختلاف التناقضي فلا نكون بفضل الله ممن يتبع الشيطان فيُطْلِقُ لهواه العنان.

اختلاف العلماء رحمة

إن اختلاف الرأي ذلك الاختلاف القليل الطبيعيَّ الضروريَّ المقبولَ رحمةٌ للأمة، لأنه يُثري الآراء، ويُنير بعضها ببعض في الطريق إلى الإجماع المرغوب فيه، والإجماع هو الركن الرابع من أصول الاجتهاد. وأشدُّ ما يكون جند الله حاجة للإجماع وتصويب الاختلاف التنوعي يوم تكون مقاليدُ الدولة بأيديهم، وتزحمُهم المشاكل العويصةُ التي تطلب حسما وكلمة سواءً تُنَفَّذُ. إن أساس الحكم في الإسلام الشورى بين المؤمنين، تتلوها الطاعةُ. فإذا كان الاختلاف في الشورى اختلافَ هوىً نابعا من قلوب كَدِرَةٍ، مفضيا للجدل والنـزاع والعِداء، فلن تكون الطاعة إلا قهرا للرأي المغلوبِ بكثرة عدد المخالفين له. وذاك بدء التصدُّع والشقاق لا سامح الله.

نرجع إن شاء الله تعالى إلى أساليب حسم الاختلاف في فصول أخرى، لكن نُثبت هنا أن هذه القاعدة التي ضيعناها، وهي الشورى، منذ زمان بعيد، فكان ضياعُها ضياعَنا، قاعدةٌ معرَّضَةٌ للانكسار إن لم يُرَبَّ جند الله قبل القومة وأثناءها وبعدَها على الرغبة الصادقة في الإجماع، وعلى السعي إليه، وإن لم يتربوا على حسن تقبُّل الرأي المخالف، والتأدب مع أصحابه، والاستئناسِ به، والاستفادة منه.

لا بد أن يكونَ في تنظيم الدعوة والدولة ترتيبٌ لحسم الخلاف قبل أن تستشري نارُه. هذا الترتيبُ ينحصر في نقطتين:

1- ردُّ الاختلاف إلى أولي الأمر العلماءِ، إلى مجلس متخصص في الاجتهاد.

2- عزمة الإمام إن لم يحصُل إجماع، وخِيفَ أن يتفاحش الجدلُ، أو تتعطل مصالح الأمة.

هذان ترتيبان نظاميان لسد الثغرات أمامَ السيل قبل أن يندفع. لكنَّ الوقايةَ التربوية هي أساسُ هذا الأمر. فلا الحلولُ الوسطى بين آراءٍ متعارضة يَصْلُحُ لنا، ولا الأخذُ بالأغلبية العددية، ولا الإجراءُ التنظيمي. لأنَّ الحلول الوسطى عادة حلول باهتة تصالحُية ملفَّقَة، ولأنَّ الأغلبية العددية لا تعني الصواب في الرأي، ولأنَّ الإجراء التنظيمي آخِرُ الدواء كالكي المؤلم.

إنما الرجوع إلى الحق حيثما ظهر، والتفتُّح على المواقف بالتيقظ، وعلى المخالف بالاستماع الصادق، استماعِ المؤمن المستعد القابل للتعلم. كان الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه يقول: «رأيُنا صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب». لا بد للعالم أن يكون معه من الثقة بصواب رأيه ما يحمله على تنفيذه باطمئنان. لكن يُبْقي نافذة احتمالِ خطإه ليَدْخُلَ عليه منها رَوْحُ العلم. وعليه أن ينظر إلى رأي المخالف من تلك النافذة، هو متحفز لكل صواب يظهر في أجواءِ غيره ليَهُبَّ معانِقاً له. أمَّا إذا قعد في بيت رأيه، وأغلقَ النوافذ، وقدَّرَ أنَّ ما هنالك خارجَ أجوائه ظلامٌ في ظلام، فأحْرِ به أن تَنْسُجَ على قلبه عناكِبُ هواه وشيطانِه حجابا من الرَّانِ.

تعالوا بنا إذا اختلفنا في الرأي نرجعْ إلى الله عز وجل بالتوبة والاستغفار والافتقار والتضرُّعِ حتى يمحوَ من قلوبنا الأكدار. لا إله إلا الله. ما أروعَها أن يتَحَدَّثَ المسلمون أن أعضاءَ شوراهم اختلفوا، فحزَبَهُم الخلافُ، فقاموا إلى الصلاة والتوبة والبكاء على الله حتى مَسَحَ الله على قلوبهم فتعانقوا واستأنفوا الجلسة يبحثون عن الإجماع باتِّهام كلٍّ لِنفسه، ورجوع كلٍّ إلى الحق !

الاختلاف الكثير، وهو ما كان متعلقا بالكلِّيات وما كان مفضيا للجدل، نقمة. قال الله تعالى: **﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾**

(هود، 118-119). قال الإمام الشاطبي رحمه الله في تفسير الآية: «إنها اقتضت قسمين: أهلَ الاختلاف، ومرحومين. فظاهر التقسيم أنَّ أهلَ الرحمة ليسوا من أهلِ الاختلاف (...). قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، فظاهر هذا أنَّ وصف الاختلاف لازمٌ لهم حتى أطْلِقَ عليهم لفظ اسم الفاعل المُشْعِرِ بالثبوت (...). إنا نقطع بأن الخلافَ في مسائل الاجتهاد واقعٌ ممن حصل له محضُ الرحمة، وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان رضي الله عنهم، بحيث لا يصح إدخالُهم في قسم المختلفين بوجه (...). إن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف الأمة في الفروع ضربا من ضروب الرحمة (...). وبيان كون الاختلاف المذكور رحمةً ما رُوِيَ عن القاسم بن محمد قال: لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمل، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سَعَةٍ. وعن ضَمْرة بن رجاءٍ قال: اجتمع عمر بن عبد العزيز والقاسم بن محمد فجعلا يتذاكران الحديث. قال: فجعل عمر يجيء بالشيء يخالف فيه القاسم. قال: وجعل القاسم يَشُقُّ ذلك عليه حتى تبين فيه. فقال له عمر: لا تفعل ! (أي لا تغضب). فما يسرني باختلافهم حُمْرُ النَّعَمِ ! (أي لا أفرح بشيء مثلما أفرح باختلاف الصحابة. وذلك للسعة التي يشعر بها من عمل بعمل أحدهم). وروى ابنُ وهب عن القاسم أيضا قال: لقد أعجبني قولُ عمر بن عبد العزيز: ما أُحب أنَّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلفون، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضَيْق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كانَ سنةً.

يقول الشاطبي رحمه الله: «ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه. لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضَيق، لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لا تتفق عادة -كما تقدم- فيصير أهل الاجتهاد، مع تكليفهم باتباع ما غَلَب على ظنونهم،

مكلفين باتباع خلافِهم (يعني أنهم يكونون ملزمين باتباع رأيٍ يرونه خطأ). وهو نوع من تكليف ما لا يُطاق، وذلك من أعظم الضَيْقِ، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعيِّ فيهم. فكان فَتْحَ باب الأمة، للدخول في هذه الرحمة. فكيف لا يدخلون في قسم «من رحم ربك» ! فاختلافُهم في الفروع كاتفاقهم فيها، والحمدُ لله».[1]

أما الخلاف في الكليات العقائدية، أو في أصول الدين، فنقمةٌ ضلت بها فرقٌ من المسلمين. ونرجو الله لغد الإسلام، أن يُلهم الأمة صوابَها وتقواها لتَنْبِذَ أسباب الخلافات المذهبية.كما نرجوه أن يُجنبنا الجدلَ وأسبابه يوم نكون مرصودين ينتظر العدو منا هفوة، ويرجو المؤمنون انتهاء أزمان الكدر. وما ذلك على الله بعزيز.

الجماعات الاختلافية

من الظواهر المُؤلمة في صفوف الدعوة تباري بعض الشباب في التصدي لمسائل الفقه، مع قلة البضاعة، وعرامة الهوى، وحيويَّة الأنانية التي تُثير أولَ ما تثير المسائلَ الخلافية. يقال لهذا الشبابِ قبل أن يستقيم لسانُه بالعربية، وقبل أن تَتَطَهَّر نَفسُه من أسباب تعصبُّها الأعمى، وقبل أن يستنير العقل بنور الإيمان والعلم: لو كان معك المصحف والصحيحان وكتب السنن لما احتجت إلى أحد تقلده ! ولا يلبث أن يكثر المجتهدون، لا سيما في جزئيات الأمور، في عدد درج المنبر، وفي قراءة الكهف يوم الجمعة، وفي تحريك الأصبع في التشهد، وفي القبض والسدل، وما شابه.

وعلى هامش الدعوة تتفرع فرق الاختلاف، وتتوالد، وتتسلسل، وتُشَوِّش على الدعوة أيما تشويش، بل تُعَرِّضها للمخاطر بما تُعطي

(1) «الاعتصام»، ج2، ص: 169ـ171.

للحكومات من فُرص لقمع الدعوة، وبما تُشيعه بين المسلمين من الشك والتشكيك والنفور من شباب عنيف ملتح يكفر الناس.

تتيح هذه الظاهرة لأعدائنا أن يَلْقَوا آذانا تُصْغي عندما يُطلقون اسمَ «المسلمون المتطرفون» على الحركة الإسلامية، لا يعلمون ولا يريدون أن يعلموا أن كل حركة واسعة وعميقة مثل الحركة الإسلامية مثلُها كمثل موج البحر لا بد أن يظهر على سطحه الزَبَدُ. فيحكمون على البحر أنه كله زبَد لطَفْو فقاقيعَ على سطحه.

كنا في غِنَى عن تزمُّت الشباب وسطحيته بما نألَمُ له من خلافات بين أهل الرأي منا. يكفينا سوءُ التفاهم بين قادة الحركة في كون الإسلام ثورةً أو إصلاحا وفي كونه نصيرَ المستضعفين أو دينا محايدا في ميدان القسمة وإعادتها، في مناهج التربية، في أساليب التنظيم، في الموقف السياسي وتميُّزه، في دخول لعبة الديمقراطية أولا، في التسلح وعدمه، في «عالمية» الحركة أو «عالمية» التنظيم، في القطرية وكيف الخروج منها، إلخ.

كتب الدكتور يوسف القرضاوي كتابا نفيسا في موضوع التطرف بين الشباب جزاه الله أحسن الجزاء تحت عنوان: «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف». أرجع فيه أسباب التطرف ومظاهره إلى ستة أصول:

1- التعصب للرأي تعصبا لا يعترف للآخرين بوجود. وجمودُ الشخص على رأيه جموداً تاما.

2- التزام التشديد دائما، وإلزامُ الغير به، مع تجاهل قابليات المسلمين للأخذ بالعزائم.

3- التشدُّد في غير زمان التشدُّد ومكانه، في دار الغربة، ومع المسلمين حديثي العهد بالإسلام أو التوبة.

4- الغِلظـةُ في التعامـل، والخشـونةُ في الأسـلوب، والفظاظـةُ في القـول.

5- سوء الظن بالآخرين، والنظرُ إليهم بعين التهمه، ومحاربتُهم بسلاح التشكيك.

6- استباحة حرمة المسلمين، وتكفيرُ المسلمين.

التنطع

أخرج الأئمة مسلم وأحمد وأبو داود رحمهم الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هَلَك المتنطعون**» قالها ثلاثا. قال النوويُّ رحمه الله: المتنطعون المتعمقون الغالون المجاوزون الحدودَ في أقوالهم وأفعالهم.

وُلِدَ التنطُّع في المسلمين، وظهرت الفِرقُ الغاليةُ لأسباب فكريَّة علميَّة، وأخرى سياسيَّة، وأخرى نفسية. وكلَّ هذه الأسباب نرى في معاصرينا. لا يتنافَى التنطع مع إمكان وجود الإخلاص في محبة اتباع السنة، لكنَّ قصورَ الفهم، وغلَيَان الغضب، وبواعثَ التعصُّب للتجمُّع المتطرفِ، وللرأي الواقفِ المتحجر المنغلق على أوهام اختصاصِه بالهداية، تجتمع لتصنع هذه المتفجراتِ التي تُلْغِمُ طريق الدعوة.

كتب الشيخُ وليُّ الله الدهلويُّ رحمه الله[1] في أسباب التحريف قال: «وذلك لأنه (أي الدين) يجمعُ أُمَماً كثيرة ذوي استعدادات شتى وأغراضٍ متفاوتة. فكثيرا ما يَحملهم الهوى، أو حبُّ الدين الذي كانوا عليه سابقا، أو الفهمُ الناقص حيث عقَلوا شيئا وغابت مصالحُ كثيرة،

(1) «حجة الله البالغة»، ج1، ص: 119 وما بعدها.

أن يُهملوا ما نصّت الشريعةُ عليه، أو يَدُسُّوا فيها ما ليس منها. فيختلُّ الدين». وذكر رحمه الله وفسح له عنده من أسباب التهاوي وإهمال نصوص الشريعة عدمَ تحمُّلِ الحديث وروايته، و«الأغراضَ الفاسدةَ الحاملةَ على التأويل الباطل كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى»، وتَرْكَ العلماء الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر.

وتطرق إلى أسباب التعمُّق والغلُوِّ، وهي التي تَهُمُّنَا هنا فقال:

1 – «أنْ يأمُرَ الشارع بأمر وينهى عن شيء، فيسمعه رجل من أمته، ويفهمه حسَبَ ما يليق بذهنه، فَيُعْدِي الحكمَ إلى ما يُشاكِلُ الشيء بحسَبِ بعض الوجوه، أو بعض أجزاء العِلَّةِ، أو إلى أجزاء الشيء ومَظَانِّهِ ودواعيه. وكلما اشتبه عليه الأمرُ لتعارضِ الرواياتِ التزمَ الأشدَّ، وجعله واجبا.»

2– «التشدُّد، وحقيقته اختيارُ عبادات شاقة لم يأمر بها الشارعُ كدوام الصيام والقيام والتبتل، وتركِ التزوج.»

3– «اتباعُ الإجماع، وحقيقتُه أن يتفق قوم من حملة الملة الذين اعتقد فيهم العامةُ الإصابةَ غالبا أو دائما على شيء، فيظنُّ أن ذلك دليلٌ قاطعٌ على ثبوت الحكم، وذلك فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة. وهذا غيرُ الإجماع الذي أجمعت الأمة عليه، فإنهم اتفقوا على القول بالإجماع الذي مستندُه الكتاب والسنة أو الاستنباط من أحدهما». (قلت: معناه اتباع رأي من الآراء ظهر لسبب وقتي فتسابق إليه الناس وتعصبوا له وحصروا الحق في دائرته).

4– «تقليد غير المعصومِ، أعني غيرَ النبي الذي ثبتت عصمتُه، وحقيقتُه أن يجتهد واحدٌ من علماء الأمة في مسألة، فيظنَّ متبعوه أنه

على الإصابة قطعا أو غالبا، فيردوا به حديثا صحيحا، وهذا التقليد غيرُ ما اتفقت عليه الأمة المرحومة».

تغاير التيوس

من أسبابِ التنطع والشذوذ والتطرف، حبُّ المرء أو الجماعة الظهورَ والتميزَ، ولو على حساب المروءة والدين، وهذا مرض فاش والعياذ بالله، فإنَّ حُب الرئاسة وغلبَةِ الأقران يُوَلِّدُ الأَنَفَة والتكبُّر عن اتباع الحق، لمجرد أن الحق ظهر على يد الغير. وطالما منع الحسد الناس عن الخير. قال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله: «ولا ينفك المُناظر عن الحسد. فإنه تارة يَغلِب، وتارة يُغْلَب. وتارة يُحْمَدُ كلامُه، وأخرى يُحْمَدُ كلامُ غيره. فما دام في الدنيا واحدٌ يُذْكَرُ بقوة العلم والنظر، أو يُظَنُّ أنه أحسنُ منه كلاما وأقوى نظرا، فلا بد أن يحسُدَه،ويحِبَّ زوالَ النِّعَم عنه، وانصرافَ القلوب والوجوهِ عنه إليه. والحسد نار محرقة، فمن بُلِيَ به فهو في العذاب في الدنيا، ولَعذابُ الآخرة أشدُّ وأعظمُ. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبَلوا قول الفقهاء بعضِهم على بعضٍ، فإنهم يتغايرون كما تتغايَرُ التُّيوس في الزَّريبة».[1]

تركُ الخلاف لتأليف القلوب

من أهم أسباب الاختلاف الهدّامِ تمسكُ البعض باجتهادات فرعيَّةٍ خلافيةٍ، أو تشدُّدُهم في مستحباتٍ يجعلونها بمثابة الواجب. فكلُّ من خالفهم في ذلك اعتبروه ساقطا من الاعتبار، بل عادَوْهُ وثَلَبُوهُ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد يكون تركُ المستحباتِ لمعارِضٍ

(1) الإحياء، ج1، ص: 40.

راجح أفضلَ من فعلها. بل الواجباتُ كذلك (أيْ ترك واجب أقلَّ خطرا إن تعارضَ فعلُه مع واجبٍ أعظمَ خَطراً). ومعلوم أنَّ ائتلافَ قلوب الأمة أعظمُ في الدين من بعض هذه المستحبات. فلو تركها المرءُ لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا.(...) وقد أخرجا في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «**لولا أنَّ قوْمَكِ حديثو عهد بجاهلية، لنَقَضْتُ الكعبةَ، ولألْصقتُها بالأرض، ولَجَعَلْتُ لها بابا يَدْخُلُ الناسُ منه، وبابا يخرجون منه**». وقد احتج بهذا الحديث البخاري وغيرُه على أنَّ الإمام قد يترك بعضَ الأمور المختارةِ لأجل تأليف القلوب ودفْع نَفْرَتِها. ولهذا نص الإمامُ أحمد على أنه يُجْهَرُ بالبسملة عند المعارض الراجح».[2]

وهنا أصل عظيم نحتفظ به للأيام البيض، أيام الخلافة الثانية على منهاج النبوة إن شاء الله تعالى، حين يتعين أن يعود الدين يُسرا كما كان، ويجتهد الإمام ليسَوِّيَ أسبابَ الخلاف. وإنَّ من الرَّزِيَّة أن يَشْتَغِلَ المسلمون بالنـزاع في الفروع والمستحبات ويضيعوا الواجبَ الأعظم، وهو تآلُف القلوب، ووحدة الصف، وإقامةُ الصرح المهدوم من الدين. كيف يتقاتل بعضُهم على عدد دَرَجِ المنبر وبيتُ المقدس تلعب فيه بذِمتنا وأعراضنا صِبْيَةُ اليهود؟

إن التعاملَ مع المتنطّعين في مراحل إعداد القومة ينبغي أن يَتَّسِمَ بكثير من الرفق حفاظا على جهودنا أن تتبعثر في الجَدلِ العقيم. وإنَّ الجهاتِ المستفيدةَ من خلاف المسلمين تدعَمُ الفئات المتطرفةَ بالمال والتدريب لتُرْجِعَهم إلى أوطان المسلمين يمثلون بيننا مصالح الشيطان، يُخَرِّبُونَ ويُدمرون. نهجرهم هجرا جميلا قبل قيام دولة الإسلام. لكن بعد استتبات الأمر إلينا لا نُضِيعُ وقتا في تحمُّلِ صبيانيات العامة

(2) رسالة «خلافة الأمة»، الرسالة المنيرية، ج2، ص: 124.

المنتصبين للفتيا وتكفـير المسلمين، بل يُمْسَكُ بأيديهم كما يُمسَكُ بيد الصبي لكيلا يُهلِكَ نفسه والناس أجمعين.

كَفُّ الأمة عن الخلاف

يقول أقضى القضاة الماوردي رحمه الله: «وأما التحرز من اختلاف قلوب الرعية وتفرُّقِ أهواءِ العامة من جهةِ الدين، فإن التدبيرَ فيه والترتيبَ على منازل مختلفة. منها أن يُحْمَلَ الناسُ على ترك الخَوْض فيما يُؤَدّيهم إلى التفرُّق ويدعوهم إلى التحزب. فإنَّ ذاك هو أمرُ الله الذي أمر به عبادَه، وسنةُ رسوله التي أكَّدَها عليهم. (...) والحيلةُ فيه أولا أن يتلوَ فيهم الآيات والآثارَ التي أُمِرَ فيها بالائتلاف ونُهِيَ عن التفرق والاختلاف. ثم يُؤَدِّبَ نفسَه (يعني الملكَ الحاكم)، ويؤَنِّبَ غيرَه، ويعزر ويعاقب من أحدث بدعة أو ألحد في سنة».[1] رحمكم الله يا معشر الفقهاء كنتم تنتظرون من ملوك العض وحكام الاستيلاء أن يُؤدبوا أنفسهم !

إن جمع كلمة الأمة وائتلافَ قلوبها، وتقريبَ آرائها، لَشُروطٌ ضروريَّةٌ لإقامة الملة وتقوية الدولة. فلا تقِلُّ ضرورةُ ذلك عن ضرورة تقريب الفَجَوات فيما يتعلق بقِسمة الأرزاق. وكما يجب على دولة القرآن أن تُدْمِجَ فئات المجتمع دمْجاً اقتصاديا بتسوية فُرَصِ العمل والكسب، وبإنصاف العامل والأجير، وبإعطاء المالِك مكانَتَه في المجتمع الإسلاميِّ بلا شَطَطٍ، فكذلك يجب الدمجُ المذهبيُّ والتعايش السلمي بين الآراء والتفاهم والتعاون ليتحد الناس ماديا ومعنويا. وليس المخربون الاقتصاديون بأحقَّ بإنكارنا من المخربين المتنطعين في الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) «نصيحة الملوك» هامش «دولة الخلافة»، لسعيد بنسعيد، ص: 175.

الفصل الحادي عشر

إمامة المستضعفين

- أمة الدعوة
- أمناءُ على دين الله
- ابغوني ضُعَفاءكُم
- جِئنا لنُخْرِجَ الناسَ...
- وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم
- مع المستضعفين
- إدارة الاستكبار للعالم

أمة الدعوة

من علمائنا من يطلق اسم «أمة الاستجابة» على الأمة الإسلامية الذين استجابوا لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وصدقوا الرسالة، ويُطلِقُ اسم «أمة الدعوة» على سائر الخلق الذين بلغتهم الدعوة فامتنعوا عن التصديق أو لم تبلغهم من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة إلى يوم القيامة. وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم للجن والإنس كافَّةً، وجعله رحمة للعالمين الأولين والآخرين. والقرآن خطاب موجه للإنسان كيفما كان جنسُه وزمانُه ومكانُه. إن الإسلام دعوة عالميَّةٌ، وإنَّ حاملي الرسالةِ طلائعُ الحقِّ لا ينتهي واجبُهم بإقامة دولة القرآن في دار الإسلام الموروثة، بل تبدأ بعد قيامها رحلةُ تبليغ الرسالة للعالمين. تتمكن الطليعةُ المجاهدة من إمامة أمة الاستجابة وتُجَنِّدُها، وتقودُها، وتربيها، وترفعها إلى كرامتها الآدمية، وتحررُها فكرا ومعاشا، وتُحييها بحياة المشاركة في تدبير أمرها، تآمُراً بالمعروف وتناهيا عن المنكر، وشورى، وتنفيذا. بعدئذ تنهض الأمة المسلمة كلها وقد توحدت، لإمامة المستضعفين في الأرض، وهم بنو الإنسان، من كان منهم يعيش في بلاد الاستكبار أو في دار الإذلال والاستعمار والإفقار.

يقاتل الإسلامُ الظلمَ، ويقاتل الفسادَ في الأرض والاستكبار. في الأرض قُوىً عنيدةٌ عنيفةٌ عدوانيةٌ لا مفرَّ من أن يواجهَها الإسلام ويَكْسِرَها لأنها تحادُّ الله ورسوله. لا بد من الجهاد حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ كله لله. لا يعني هذا أنَّ الإسلامَ يتقدم إلى الإنسانية المعذَّبة ليُهْدِيَ إليها استعمارا مكانَ استعمار، ولا يعني أنَّ الإنسانية يحمل كل فرد منها وِزْرَ الأعمال الشيطانية التي يمارسها النظامُ الجاهليُّ

المستكبرُ في الأرض. إنَّ عطاء الإسلام للإنسانية في ماضِي تاريخنا كان عطاءً خيِّراً، رغمَ ما صاحب تاريخنا من اضطراب داخلي نتيجة لتسلط الحكام وفساد الشورى. وإنَّ عطاء الإسلام بعد نهوضنا من كبوتنا إن شاء مولانا القوي العزيز سيكون بحول الله وقوته الخير العميم الذي تحِنُّ إليه نفوس البشر. سيكون هدفُنا الدَّعوِيُّ إبلاغَ الإنسان أينما كان بلاغَ التوحيد، وبلاغَ الأُخُوَّةِ بين البشر، وبلاغَ السلام في العالم، وبلاغَ العدل والإحسان.

مكانُ دولة القرآن في المجتمع الدوليِّ مكانُ قيادة المستضعفين، لنأخُذْ الحقَّ أولا من دول الاستكبار للعالم الجائع المفقَّر المستعمرَ المستنزف، ثم نُشع دعوة الإسلام، وينتصر نموذجه السلوكي الاقتصادي الحضاري حتى يصبح قبلةَ أنظارِ الإنسانية أينما كانت، فيقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجا من تحت الأنظمة الطاغية في الأرض حتى تعمَّ القومةُ أرجاءها إن شاء الله.

أمناءُ على دين الله

قبلَ أن تتحقق لنا الوحدة، وهي هدفُنا السامي الدائمُ، والقوةُ، اللتان تجعلان منا كُتلةً مُحيطةً بالأرض جغرافيا، مركزيةً فيها استراتيجيا، منتشرةً فيها عددا، متماسكةً بين الشعوب والدول ذاتا واحدة، مجاهدةً فيها، موَحَّدةَ الكلمة والقيادة والحركة، متفوقةً علما وصناعة، منتصرةً لا يرام حماها عسكريا، نمرُّ من مراحلَ لا نَسْتغني فيها عن التحالف مع دول المستضعفين في الأرض المناوئين للهيمنة المستكبرة.

وقد شارك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حِلْفِ الفُضُول في الجاهلية وأقرَّه في الإسلام، حيث قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه

ابن هشام رحمه الله بسنده عن طلحة رحمه الله: «**لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعانَ حِلفاً ما أحب أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَمِ. ولو دُعيتُ إليه في الإسلام لأجبتُ**».

وذلك أنَّ قبائِل من قريش اجتمعت في دار ابن جُدعانَ، «فتعاقدوا وتعاهدوا على أنْ لا يَجِدُوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرِهم مِمَّنْ دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَن ظَلَمَهُ حتى تُرَدَّ عليه مظلمتُه. فسمَّتْ قريش ذلك حِلْف الفضول».[1]

نحن مدعوُّون غدا لنتحالفَ مع مستضعفي الأرض ضد الاستكبار العالمي. معنا رسالةُ الله نحنُ المستأمَنُون عليها لنبلِّغها. والأمينُ على أمر عظيم مثلِ الرسالةِ السماوية يحتاج لقوة تَدْعَمُهُ. فسَنَدُنا ريثَما نَبْتَني قوتَنا الذاتيةَ بالوحدة والتصنيع والإنتاج، وخاصة بتجنيد أمة الاستجابة، هم المستضعفون في الأرض. هنالك منظمات دولية عالمية أو إقليمية أو قارية تجتمع فيها الدول الضعيفة، ندخلها من الباب الواسع. أو نحدث منظمات على منهاجنا عندما تتوفر لنا ظروفُ الزعامة وشروطها. لا ترددَ في هذا ولا مراوغةَ، وإنَّ حامل الرسالة لا يندَسُّ في العزلة، لكنْ يَغْشَى كل المجالس، ويطرق كلَّ الأبواب، ويتعاونُ على كل خير.

على أثرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدخل في الأحلاف ضد الظلم، رائدُنا هذه الكلمة العزيزة: «**ولو دُعيتُ إليه في الإسلام لأجبتُ**». قال الإمام السهيلي رحمه الله تعليقاً على هذه الجملة من الحديث: «قوله صلى الله عليه وسلم: **ولو دعيت به اليوم لأجبت**، يريد: لو قال قائل من المظلومين: ياٰلَحِلْفِ الفضول ! لأجبت. وذلك أنَّ الإسلامَ إنما جاء بإقامة الحق ونُصرَةِ المظلومين، فلم يَزْدَدْ به هذا

(1) سيرة ابن هشام، ج1، ص: 133.

الحِلفُ إلا قوةً. وقولُه عليه السلام: «**وما كان من حِلف في الجاهلية فلن يزيدَه الإسلامُ إلاَّ شِدَّةً**»، ليس معناه أن يقولَ الحليف يالفلان لحلفائه فيجيبوه، بل الشدَّةُ التي عَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنما هي راجعةٌ إلى معنى التواصُل والتعاطُفِ والتآلُف».[1]

ما كان من مُروءةٍ وخير وحِلْفٍ ضد الظلم والعدوان ورِثناها عن الجاهلية لا يزداد بالإسلام إلا شدَّةً. هذه قاعدة لتعامُلِنا مع غيرنا. مع الانتباه إلى أنَّ هذه التكتلات الدولية موضوعُ رهان بين قوتي الجاهلية الكبريين تتجاذبانها. فدخولُنا في حَلَبَة المجتمَع الدولي يكون في أول الأمر دخولَ الطارئ، ولن يَمْضِيَ وقت طويل بإذن الله حتى نُصْبِحَ مركز الثِّقْلِ في حركة المستضعفين في الأرض. وملاذَ ثورتهم على الظلم والباطل والاستكبار. وبذلك يستقر العالمُ المستضعف، ويحتمي من جاذبيات شرق الجاهلية وغربها. فنحن المرَشَّحون بكتلتنا، وخاصَّةً برسالتنا، أن نُصبح أساتذة العالم، وعلينا تقع مسؤولية إنقاذِه، وتوجيهِه، وكفالة الفقير، وحماية اللاَّجئ الضعيف.

قال الأستاذ البنا رحمه الله: «والإسلام مع هذا يعتبر الأمة الإسلامية أمينة على رسالة الله في أرضه. ولها في العالم مرتبة الأستاذية -ولا نقول مرتبة السيادة- بحكم هذه الأمانة فلا يُسمَح لها أن تذِلَّ لأحد، أو تُستعْبَدَ لأحد، أو تلينَ قناتُها لغامز، أو تَخْضَعَ لغاصب مُعْتَدٍ أثيم: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾. ويوم قرَّرَ الإسلامُ هذا قرر الطريق العمليَّ إلى حماية هذه الحرية، فافترض الجهادَ بالنفس والمال، وجعله فرض كفاية لتأمين الدعوة، وفرَضَ عين على كل أبناء الأمة لرد العدوان».[2]

---

(1) «الروض الأنف»، ج1، ص: 160.

(2) رسالة «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي».

ابغوني ضُعَفاءكُم

الطريق العلميُّ لنصرة المظلومين في العالم هو الجهادُ. نتعاونُ مع كل ذوي المروءة أينما كانوا، ونُسْنِد نِضالَ الشعوب المقهورة ليدخل نضالُها تحت جناح جهادنا المقدَّسِ. ومَنْ ينهض للجهاد منا غيرُ الضعفاء الذين عانَوْا من ظلم حكام الجَوْر، وأذَلَّتهم طبقية المُفَرْنجين، ونزل عليهم أَسْفلَ السُّلَّم الاجتماعيِّ ثِقلُ الاستعمار والنَّهْبِ؟ فهم الذين أدَّوْا ثمن الرزايا التاريخية، لا الصنائعُ المفرنجون، ولا «برجوازية الدولة» الملتفة حول الحكم المستبد، الممتصة لدماء الشعوب.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي -رحمهم الله- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ابغوني ضعفاءَكم** (أي ادعوهم ليأتوني)، **فإنكم إنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم**».

لا يقوم البطينُ القاعدُ على وثيرِ الفراش للجهاد، لكن يقوم الضعيفُ لقلة ما يُلصقه بالأرض ويُثْقِلُه عن النهوض. ثم لأنَّ للضعيف المستضعف المظلوم باعثا إيجابيا على النهوض، هو كراهيتُه للظلم الواقع عليه. ولَئِنْ استوى الباعثُ الإيمانيُّ في الناس فسيبقى المستضعف أكثرَ كَفاءةً جهاديّةً وأقلَّ موانعَ.

هذه اعتباراتُ نفسية إيمانية يَكسوها الاعتبارُ الاقتصاديُّ الاجتماعيُّ الذي يميز في مجتمعاتنا وفي العالم حِزْبَيْن: الأغنياءُ الأقوياءُ من جهة، والفقراءُ المغلوبون المستضعفون من جهة. تلك الاعتباراتُ النفسية يَكسوها هذا الاعتبارُ الماديُّ العَمَلِيُّ كما يكسو الثوبُ الجسم، فالصراع الطبقي معركةٌ قائمة. والطبقاتُ الغنية القوية المستأثرة بالمال

والسلطان متحالفة في داخل مجتمعاتنا وفي داخل مجتمعات الشعوب. ولها بعد ذلك حِلْفٌ عالَمِيٌّ يربطها عبرَ الأوطان والأدْيَان والمذاهب.

فمع من نكون؟ إنه من البديهي أن دولةً يقودُها الأغنياءُ الأقوياءُ لن تجد حِلفاً يُوَطِّدُ مكانتها في العالم ويضمن لها الاستقرارَ الداخليَّ بالسنَدِ الماليِّ والسلاحيِّ والتدبيريِّ إلا عند دول الاستكبار. وإن دولةَ القرآن دولةُ المستضعفين، فأحلافها الطبيعية المُسايِرَةُ لمقاصِد الدين تقع خارج نطاق الاستكبار. ويكونُ هذا النطاق الخانق لشعوب الأرض المستضعفة، الخانقُ للإنسان داخلَ بلاد الاستكبار، هدفاً لجهادنا المتحالف مع نضال الشعوب.

جِئنا لنُخْرِجَ الناسَ...

لنتذكر دائما قولة رِبْعي بن عامر رضي الله عنه على بساط رُستم: «الله ابتعثَنا، الله جاء بنا لنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضَيْقِ الدنيا إلى سَعَتِها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام». على بساط قائد مُترف تحيط به مراسيم الاستكبار وأثاثُه وجِهازُه، تَقَدَّمَ ممثل المستضعفين. روى ابن جرير الطبري رحمه الله في تاريخه قال: «فأظهروا الزِّبْرِجَ، وبسطوا البُسُط، والنمارق، ولم يتركوا شيئا. وَوُضِعَ لرُسْتُمَ سريرُ الذهب، وأُلْبِسَ زِينةً من الأنْماطِ والوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبَلَ رِبْعِيٌّ يسير على فرس زَبَّاءَ قصيرةٍ، معه سيف له مَشُوقٌ (مصقول)، وغِمْدهُ لُفافةُ ثوب خَلَقٍ، ورمحه معْلُوبٌ بقِدٍّ (محزوم بجلد)، معه حَجَفَةٌ (ترس) من جلود البقر، على وجهها أَديمٌ أحمر مثلُ الرغيف، ومعه قوسُه ونبله، وعليه درع له كأنها أَضَاةٌ (كأنها غدير ماء لأنها من حديد مصقول)، ويَلْمُقُهُ (ثوبه الخارجيُّ)

عَباءةُ بعير قد جابَها (خرقها في عنقه) وتَدَرَّعها (لبسها) وشدَّها على وسطه بسَلَب (شريط من جريد النخل)، وقد شدَّ رأسه بمِعْجَرَتِه، وكان أكثرَ العرب شَعْرَةً، ومِعْجَرَتُه نِسْعَةُ (عمامته جِلدة تُتَّخَذُ زِماما للجمل) بعيرِه».

لباسٌ بسيط هو لباس الفقراء، لكنَّ السيف حين يخرج من لُفافة الخِرَق البالية يخطَفُ البَصَرَ لطول ما جلس إليه الفارسُ المؤمن يصقُلُه إعداداً للقوة. ومِثْلُ ذلك الدرعُ، كأنها أضاةٌ. أثْمَنُ ما مع محرر الشعوب من الجور والعبودية للبشر سِلاَحُهُ.

وقد استقبلت الشعوبُ المظلومةُ الفاتحين الأولين بالارتياح والفرح كما تُسْتَقْبَلُ الرحمة بعد العذاب. روى ابن سلام رحمه الله أن رؤساءَ سوادِ العراق، سكان البلاد الأصليين، أتَوْا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد انتصار جنود المسلمين على الفُرس، فقالوا: «يا أمير المؤمنين! إنا كنا قد ظهر علينا أهلُ فارس، فأضَرُّوا بنا وأساؤوا إلينا». وأخذوا يذكرون له شيئا من شرورهم وظلمهم حتى ذكروا النساءَ. يعني أنهم غلبوهم على نسائهم. ثم قالوا له: «فلما جاء الله بكم أعجَبَنَا مجيئُكم وفرحنا، فلم نَرُدَّكُم عن شيء، ولم نقاتِلْكم حتى أخرجتموهم عنا».[1]

كان الأمناء على الرسالة على ذلك العهد أقوياءَ على أدائها وحَمْلِ أعبائها. لم يكن الفتحُ استعمارا، بل كان «مجيئا» يُرحب به المستضعفون المغلوبون على أمرهم. دفع المؤمنون دماءهم ثمنا لنُصرة دين الله والمستضعفين كما أمرهم الله في مُحكَم كتابه، ولم يكن هدفُهم أن ينهبوا خيراتِ البلاد المفتوحة، بل جاءوا بالعدل يقيمونه، أمناءَ على ما فتح الله عليهم من أرض وأرزاق، يضيفونها

(1) «الأموال»، ص: 130.

إلى ما يبذلونَ من تليد أموالهم ليُنفقوا كل ذلك في سبيل الله. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سأله بعض الجند، ومنهم بلالٌ رضي الله عنه، أنْ يقسم بينهم أرض السواد بالعراق: «والله لا يُفتَحُ بعدي بلد فيكونَ فيه كبيرُ نَيْلٍ (ثروة)، بل عسى أنْ يَكون كَلاًّ (أي عالة) على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بِعُلوجها، وأرضَ الشام بعلوجها (وهم السكانُ الأصليون)، فما يُسَدُّ به الثغور؟ وما يكونُ للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهْلِ الشام والعراق؟».[1]

كانوا يحملون هم الأرملة والذرية، يسهرون على تقسيم الأرزاق وإعادة توزيعها من بلد غني إلى بلد فقير، لكيلا يكون أحدٌ كَلاًّ على المسلمين. ذلك لأنَّ الكَلَّ، وهو العاجزُ عن الكسب، يَلْزَمُ الدولةَ الإسلاميَّةَ أن تسُدَّ نفقاته مهما كان دينهُ. فمِن أهَمِّ واجباتنا كفالة كل مستضعف.

كانت الشعوب تشعر بالفارق بين استعمار الإمبراطوريتين الفارسية والرومية، وبين رأفة المسلمين. كتب نَصَارَى وادي الأرْدن إلى أبي عبيدةَ رضي الله عنه يقولون: «يا معشرَ المسلمين، أنتم أحبُّ إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا. أنتم أوفى لنا، وأرأفُ بنا، وأكفُّ عن ظلمنا، وأحسنُ وَلاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».[2] وذكر البلاذريُّ رحمه الله، أن أهلَ حِمص لما اقترب جيشُ المسلمين، أغلقوا أبوابَ مدينتهم لكيلا يلجأ إليها جيشُ هرقلَ، وبعثوا إلى المسلمين يُخبرونهم أنهم بانتظار عدلهم وحُسن وَلايتهم لينقذوهم من ظلم الروم.

(1) «الخراج» لابن يوسف، ص: 14.
(2) تاريخ الأزدي، ص: 97.

وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم

قال الله عز وجل يضع دستور هذه الأمة في تعاملها فيما بينها داخل أمة الاستجابة، وفي تعاملها مع أمة الدعوة:﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النحل، 90-91). هذا أمر عام بالوفاء والعدل. يخصصه أمر آخر يُلزمنا بوَلاَيَةِ المستضعفين، والوَفاءِ لهم، ونصرتهم، والجهاد من أجلهم. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ (النساء، 75). مَنْ وَلِيُّ المستضعفين ونصيرُهم مِنْ ظلم جَبّاري القُرَى وطغاتِها إلاَّ نحنُ؟ من للأرملة والضعيف من الرجال والوِلدَان إلا نحن؟ كتابا من عند الله، والتزاما يُطلب إلينا الوفاءُ به بدمائنا وأرواحنا.

لن نكون إن شاء الله إلا كما كان الأولون أهلَ وفاءٍ ونجدة وثقة. وما نجده من أعراف دولية، وقوانين تضمن حقوق الإنسان والشعوبِ، وما نُبْرِمُ من اتفاقيات، فلَنْ يزداد ما يتضمنه من مروءة وخير إلا شدة واستحكاما بمساندتنا ووفائنا، لا سيما الوفاء للمستضعفين في الأرض، والأمانُ للخائفين، والكَفالةُ لكل ذي عَيْلَةٍ.

ما نحن مخربون سيافون نُكْرِهُ الناس على دخول ديننا، بل نحافظُ على الأموال والدماء والأديان والمروءات. كتب عمرُ رضي الله عنه، والأمةُ في عزِّ قوتها، عهداً لأهل بيتِ المقدس، قال: «بسم الله الرحمن

الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله أمير المؤمنين أهلَ إيلياءَ من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلْبانهم، وسقيمِها وبَريئها وسائِرِ ملتها: أنه لا تُسكنُ كنائسُهم، ولا تهدَمُ، ولا يُنتَقَصُ منها، ولا مِنْ حَيِّزِها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولا يُكْرَهُونَ على دينهم، ولا يُضَارُّ أحدٌ منهم». [1]

مع المستضعفين

خطب الإمامُ عليٌّ كرم الله وجهه خطبة جامعة في الاستكبار والمستكبرين منها: «صَدَّقَهُ (أي الشيطانُ المغوي المحرض على التكبر إمامُ المتكبرين) به أبناءُ الحَمِيَّة، وإخوانُ العصَبيَّة، وفرسانُ الكِبْرِ والجاهلية. (...). فأقحموكم وَلَجَاتِ الذُّل، وأحَلّوكم وَرَطَاتِ القتل، وأوْطَأوكم أثْخَانَ الجراحة، طعنا في عيونكم، وحَزّاً في حُلوقكم، ودَقاً لِمناخركم، وقصدا لِمَقاتِلِكم (...). ألا فالحَذَرَ الحَذَرَ من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حَسَبهم، وتَرَفَّعوا فوق نسَبهم، وألقَوْا الهجينَةَ (الفَعْلَةَ القبيحة) على ربهم ! (...) فإنهم قواعدُ أساس العصَبيَّة، ودعائمُ أركان الفتنة، وسيوفُ اعتزاءِ الجاهلية. (...) وأما الأغنياءُ من مُتَرَفَةِ الأمم، فتعصبوا لآثار مواقعِ النِّعَم، فقالوا: ﴿**نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ (سبأ، 35). فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصُّبُكم لمكارم الخصال، ومحامِد الأفعال. (...) فتعصبوا لِخلالِ الحمد من الحفظِ للجوار، والوفاءِ بالذِّمَام، والطاعةِ للبِر، والمعصيةِ للكِبْرِ، والأخْذِ بالفضل، والكفِّ عن البغي، والإعظامِ للقتل، والإنصافِ للخلق، والكظْمِ للغيظ، واجتنابِ الفساد في الأرض». [2]

(1) تاريخ الطبري، ج1، ص: 245.
(2) «نهج البلاغة»، ج2، ص: 141 وما بعدها.

وكتب رضي الله عنه في عهده للأشتر رحمه الله يوصي بالطبقة المستضعفة، قال: «ثُم اللهَ اللهَ في الطبقة السُّفْلَى من الذين لا حيلةَ لهم، والمساكين، والمحتاجين، وأهلِ البُؤْسَي والزَّمْنَى ! فإن في هذه الطبقةِ قانعا ومُعْتَرّاً (السائلُ باللسانِ والمحتاج الذي يستحيي أن يتسول). واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قِسما من بيت مالك، وقِسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد (الصوافي هي أراضي الدولة). فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدْنَى. وكلٌّ قد استُرْعِيتَ حقَّه، فلا يَشْغَلَنَّكَ عنهم بَطَرٌ (طغيان وترف). فإنك لا تُعْذَر بتضييعك التافِهَ لإحكامك الكثيرَ المُهِمَّ (لا تعذر إن اعتبرتَ إنصافَ الفقراءِ وتخصيصَهم بأراضي الدولة من التوافِه، وأهملت تلك الحقوق معتمدا أن غيرَها أهم). فلا تُشْخِصْ همَّك عنهم (لا تصرف اهتمامك عنهم)، ولا تصَعِّر خدَّك لهم (لا تتكبر عليهم). وتَفَقَّدْ أمورَ من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيونُ (تحتقره)، وتَحقِرُهُ الرجال. ففَرِّغْ لأولئك ثِقَتَكَ (أهل ثقتك) من أهل الخشية والتواضُع(...). فإنَّ هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم(...). وتعهَّدْ أهل اليُتْم وذوي الرِّقَّة (الضعف) في السنِّ ممن لا حيلةَ له، ولا يَنْصِبُ للمسألة نفسَه (وهو المعتر)».[3]

وكتب رضي الله عنه إلى عامل له على الصدقة: «وإنَّ لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا، وحقا معلوما، وشركاءَ أهلَ مَسْكَنَةٍ، وضُعفاءَ ذوي فاقة. وإنَّا مُوفوكَ حقَّك، فوفهم حقهم. وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوما يوم القيامة، وبُؤْساً لِمن خصمُه عند الله الفقراءُ والمساكينُ والمدفوعون والغارمُ وابنُ السبيل !».[4]

(3) «نهج البلاغة»، ج3، ص: 100ـ101.
(4) نفس المصدر، ص: 26.

إدارة الاستكبار للعالم

تدير القوى الاستكبارية شؤون العالم إدارة مجحفة بحقوق الشعوب المستضعفة. اختار شرق الجاهلية وغربها، انطلاقا من نفس المبادئ المادية، هدفا موَحَّداً للتنمية الاقتصادية التي لا نهاية لها. في الدائرة الرأسمالية دولاب جهنميٌّ للإنتاج والاستهلاك يدور إلى غير غاية خارجة عن الإنتاج والاستهلاك. وفي بلاد الاشتراكية دولاب مثله وإن كان أقل كفاءة. لا تشبع مصانع الجاهلية ولا تقف، لا تُميز بين النافع وغير النافع، بين التافه وبين السلاح الفتاك. وتلتهم خيراتِ الأرض وأموالَها وطاقتَها. وفي ثلاثة أرباع المعمور الباقية المنهوبة يسود الفقر والجهل والمرض، ويجتهد الغزو الثقافيُّ لِيوهم المستضعفين أن السعادةَ تتمثل في الانفتاح على بضائع الرأسمالية، وأسلحة الاشتراكية، لتبقى شعوب المستضعفين سوقا تستورد إفرازات حضارة الأشياء. ولإبْقَاءِ هذه التبعية، وحول النـزاع على توزيع مناطق الاحتلال والاستعمار والنفوذ، يجري الصراع الأخَوِي بين عِملاقي الجاهلية على قواعدَ لا تَمَسُّ مصالح المستكبرين، بلضحيتُها على كل الحالات الشعوبُ المغْلوبة المَهِيضَةُ الجناح.

إن دخول دولة القرآن في الساحة لا نريده أن يكون عامل مزيد في الفوضى والقرصنة في العلاقات الدُّولية. فليس من صالح الدعوة الإسلامية، وهي الوظيفة العليا لدولة القرآن، أن يزداد العنفُ، وغمطُ الحقوق، وظلمُ العباد. بل يُصْلِحُها أن يسودَ الاستقرارُ والسَّلمُ ورعايةُ المصالح المشروعة لكل الدول، بإدخال الدولِ الكبرى التي يجب أن نساهم في الضغط عليها بكل وُسعنا، والثورةِ عليها إن اقتضى الحال، لينشأ جوُّ الصداقة والإنصاف بين بني الإنسان، ذلك الجو الضروري لازدهار الدعوة.

الفهرس

الفصل الخامس

الكرامة الآدمية

الفصل السادس

أفحسبتم...

الفصل السابع

التربية والتعليم

الفصل الثامن

الإعلام

الفصل التاسع

الاجتهاد

الفصل العاشر

الاختلاف

الفصل الحادي عشر

إمامة المستضعفين

yassine.net